# ذاكرة جدار الإعدام

الكتاب: ذاكرة جدار الإعدام

المؤلف: خالد أخازي

التصنيف: رواية

الناشر: دار مدارك للنشر

الطبعة الأولى: نوفمبر ٢٠١٩م

الرقم الدولي المتسلسل للكتاب: ٩ - ٧٥٩ - ٤٢٩ - ٦١٤ - ٩٧٨ :

Madarek مدارك

Madarek Publishing House دار مدارك للنشر

الرياض:

7917 شارع التخصصي ، حي النخيل، الرياض، المملكة العربية السعودية

7917 Takhassusi St, Al-Nakheel District , Riyadh, Saudi Arabia

Zip Coed: 12383-4284, Riyadh, Saudi Arabia. Tel: +966 114541148

دبي:

مجمع إعمار للأعمال، شارع الشيخ زايد، دبي- الإمارات العربية المتحدة

P.O.Box: 333577, Dubai, UAE. Tel: +971 4 380 4774, Fax: +971 4 380 5977

بيروت:

فرن الشباك، الطريق العام، سنتر غاريوس، بيروت-لبنان

P.O.Box: 50074, Forn Elchebbak, Lebanon.

جميع حقوق الطبع وإعادة الطبع والنشر والتوزيع محفوظة لـ **مدارك**. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من **مدارك**.

mdrek.com read@mdrek.com DarMadarek

خالد أخازي

# ذاكرة جدار الإعدام

## إهداء

إلى الغائب الحاضر في النص..

إلى كل من احتمل تجليات كآبتي، وترك الخيال ينضج على مهل في خلوات الاعتصار، لتغدو الكتابة ممكنة، والوجع استعارة للوجود المحايث.. والألم مطاقا، والحياة ممكنة.

**«إن الثورات يدبّرها الدهاة وينفذها الشجعان، ثم يكسبها الجبناء».**

نجيب محفوظ

**«كان يمكن للإنسانية أن تكون سعيدة منذ زمن، لو أن الرجال استخدموا عبقريتهم في عدم ارتكاب الحماقات بدلاً من أن يشتغلوا بإصلاح حماقات ارتكبوها».**

جورج برنارد شو

# ١

تنفس الفجر المعتصر في مخاضه الكوني، على صخب ميعاده السيزيفي اليومي، فشهقت الظلمة شهقتها الأخيرة من غبش متوجس، ثم زفر على ديدنه نزيفه القرنفلي على خط الأفق، ومد أصابع الضوء المرتعشة العفراء، ينفض غبار الخمول والكسل عن دور وبنايات الحي اللاتيني، يتسلل بين الممرات وعلى السطوح ضوء خجول يعري صمت الكون بحياء، يتسلق الجدران في سفر وئيد إلى شقة «سالم الزموري» بالطابق الرابع، كاشفاً عبث ليلة ثقيلة الخيالات والأوهام والخيبات، والأصل فيه طهر لا يكشف الأهواء، ولا يعري سوءة الليل.

تغيرت الألوان والظلال والأصوات على الشرفة والجدران والحيطان والأشياء، ينظر سالم بسخرية وتعب من أثر أرق عنيد مشاكس إلى تغير الصبغات والأشكال، يرمق جثة السرير الملقاة على السرير، الهامدة الملفوفة بأكفان بيضاء كثيرة، يناجي نفسه وحواسه تلتقط الأصوات والهمهمات والهمسات، وحده الآن يسمع بطريقة موحية ومغرية، تفاصيل الضوضاء الصامتة حوله، فتغدو الغرفة بكل مكوناتها ساحة صخب ومنصة للمظالم، كأن الأمر وحي يلقى في صدره وعقله، يناجي نفسه على صدى

كعيص فراخ الطير التي بنت أعشاشها على النوافذ وبين شقوق الجدران: «كيف يصير للأشياء ضوضاء وهي جامدة بلا حياة في العقل والوجدان...!؟».

السرير مبعثر في فوضى، وهو يعشق الفوضى، وفيها يجد التناغم مع وجود متغير الخرائط دوماً، يضجر من نظام البيوت، وترتيب الأثاث، ويستغرب لقدرة البعض على تحمل الرتابة والتكرار، على الوسادة أن تختار مكانها كل يوم، ولا مستقر لمرمدة على منضدة فقدت جمالها من أجل وظيفة وهمية متكررة.

بعثرته بالأمس على السلم صديقته «دومنيك»، آه منك يا دومنيك الحلم والغواية، علاقتهما ملتبسة بلا خرائط ولا إعلان نوايا... بعثرته حين عفرت أصنامه في التراب وهي ترغم جسده في لحظة عابرة على الانهيار، تحت اكتساح مجنون وقوي لقبلاتها الهوجاء كوابل عاصفة جبلية، أوشكت أن تنهار في أغواره الحكمة، من نزوة جامحة، ورغبة غالبة، وحين ابتلعتها أدارج السلم، وتركته في منتصف الطريق، بين النزوة والغيمة، بين الذروة والفوضى، طارده خيالها على سلم شهوته، فعاد يلملم الفوضى، ليخصي ظل الشهوة الجامحة، ويحوله حطباً لعبور جميل من تجهم الرتابة والتفاهة، إلى أعراس الكتابة.

الشعر الذي لا يدعيه، طوق نجاته القديم الحميم في يم الحرمان وأحراش قلق الوجود، ووجوم المكان. فزع إليه، يدبّج كلمات ويطرزها سقفاً للسكينة، كلمات لا يلزمها بهوية في دغل





الأجناس، مبتعداً عن خط التماس مع النقاد المهووسين بالنظام والانسجام والوحدة.

يسامر في ليل الكتابة الطويل الظل بدل الضوء، فيسمع ويرى بحواس وبصيرة خفية وحدس الكلمات، ما هو محتجب عن الحواس الفاترة، فتنظر إليه الوسادة الحزينة بشفقة، تكاد تتلوى وجعاً، يصله ما يخاله ألمها صدى ورجعاً، يقترب منه السقف الشاحب وقد مل رفقة وقبلة المصباح المتصدئ الشفتين، يمطره بندى أنينه الليلي، يشكو له سحابات السجائر المتعبة، وتشكو له الرفوف العزلة القاتلة في الزوايا الباردة المهملة، يسمع تنازع وتصايح الأوراق على المنضدة وتسابقها نحو منصة الإعدام، لتجثو تحت سيف القلم، قرباناً منتشياً بموت مقدس، تصير الأشياء أشياء، كما هي بلا لاقطات حسية كسولة، وتغدو الكلمات كلمات، تحقق تناغمها من فوضى الوجود، المفتقر دوماً إلى اعتراف بجارحة أو فكرة، احتفال ينزعه من التعدد إلى التصور الأوحد.

الجدران كئيبة ...باردة، مازالت تلفظ قطعة قطعة ورق التزيين الذي شاخ فتجعد وارتخى، الجدران ألبست غصبا هذا الزيف الورقي، طبيعة ميتة على اللوحات، تركت الحياة البهية على العتبات، الستائر الناعمة لم تعد تكتفي بأصابع تدغدغ جلدها، الستائر المتموجة بلوعة وحيرة، غدت لعوباً متهتكة، تتهالك وتتراقص على نسيم متسلل من الشقوق، تطمع في عناق جامح يخلطها والعرق والنزوة، تمنت لو كانت ثوب فستان على

جسد أنثى، لتكشف الجمال والبهاء، لتختلط والجمر والغواية، لا ستارة تمنع الضوء والخيال، يكاد في جنون خيال اللحظة أن يسمع شكواها من قدرها، حلمها أن تصير ثوب عروس، يصير ذكرى جميلة لامرأة تداعب رمق العمر بالذكرى والشجى.

يستحضر «سالم الزموري» «دومنينك».. امرأة عجنت من لواعج الغجر وهواجس حكيم تحت المطر، يصيخ السمع لأثر شهيقها على نحره، يتلمس بأصابع مرتعشة رذاذ ثغرها على شفتيه، فيشتاق إلى سلم العمارة، إلى تلك القطعة البهية منه، حيث غمرته قبلا مجنونة لكن بلا علامات ولا إشارت تؤمن طريق العودة أو منعرجات الغواية، وذابت مع الطريق والشهيق، ثم اختفت كظل الأصيل الجريح. يهرب من وجه الأنثى التي حوّلته وقود ليلة مضطربة الأهواء، إلى وجه القصيدة، كان عليه أن يحرر سريره من جحيم انتظار الغفوة، وأن يعلن هدنة مع الأرق، فيتحايل على الهوس بالشعر والسحر، يفضّ بكارة البياض قبل الفجر.

ينظر إلى القصيدة آخر نظرة، يحمل القلم، يشعر به معتزاً بما حبر الليلة، يتراقص بين أصابعه بنشوة، ربما في يده رعشة، والقلم في غفوة، يدس القصيدة في جيب سترته، يشعر بالقصيدة مضطربة في مخاض أليم، يراجع فواصلها، ففي الشعر كثيراً ما تنهكه علامات الترقيم.

وباريس تصحو هنا في الحي اللاتيني، كأنها متحف عالمي، كأنها فولكلور متجدد، يجلس لحظة، القصيدة تنظر إليه، ويجاملها بقراءة ثانية وهو يرمي بوجوده المتجلي نحو ساحة «سان جيرمان»:





«دومنينيك» يا قدراً عابراً بلا أثر
يا سفراً انحسر ظله بلا مطر
يا نار البداية الموجعة
يا عزاء الصبح بلا قطر
يا نسيم النهاية الموغلة
في اللبس والسحر
يا غيمة مغرية بالبلل
في سفر شيخوخة الغجر
يا تجلياً لحوحاً للغواية
في الأشياء والأنباء والحذر
يا حلم تراجيديا يونانية
بنهاية سعيدة خالدة
تعالي نرقص رقصة الكشف
تحت مطر العراء
وكل ما فينا.... خلية.... خلية....
قطرة قطرة من عرق وتلبية
يشهر هذا الشعور الملتبس فينا
علنا نسميه حباً.... عشقاً....
أو نسدل ستارة الوهم يقيناً....
تَحْرِشين حَرْشاً عنيداً مشاكسا ذئب شهوتي....
تهيجينني كفريسة لأمضي إلى حتفي....
لأخطو مخدراً بعطرك إلى مصيدة تبددي....
ولا أدري هل أنا فيك أو أنت فيّ....
أم نحن عابران في نزوة بلا أثر.

**باريس شتاء ١٩٥١**

تلك الكلمات هي الكلمات التي حبرها وطرزها على ثوب البوح، بإعادة قراءتها تمنى لو أدخل السرور في قلب القصيدة العنيدة المحتملة، تمنى لو اكتفت بتلك الرعشة في صدره، لكن لكل قصيدة نشوة، لكل قصيدة كبوة، لكل قصيدة نزوة... خرج مبكراً لينهك الوقت المتربص على طرقات الحبور بكل عبور بدهشة.... قد ينهكه ثقل أسئلته الملتبسة، قبل أن يتخلص مما علق بالحياة من لبس الوجود، آه.... ! اللبس غدا معطف الإبداع وزمن البوح ممكن وزمن الكتابة لم يعد شتاء طويلاً.... آه....! اللبس غدا حجة الإمتاع، والإفهام يغتاله الإبهام.... ماذا يصنع....؟ وكل قصيدة يقرؤها يجدها غير مكتملة، بحجة الانفتاح، غير مغلقة بحجة الاجتياح، غير جاهزة بحجة الإحراج.

يتبرم مما يفكر فيه، ويضع الأسئلة الحائرة في طابور انتظار جديد، يترك وراءه الحي اللاتيني الباريسي خاملاً حالماً، كمشهد شرقي غريب، لا ينتهي زمن الحلم فيه صحواً، يتلمس الورقة مرة ثانية في جيب سترته، لمَ تسكنه الكتابة عند نقطة النهاية....؟ فيحس بالكلمات جوعى لقارئ، تَفَهَّم خيبتها، وتفهم مخاض حزن الورقة الثانية البيضاء التي أتعبها الانتظار على رف الخزانة، علها تصير ذات قيمة يوماً ما، هل تغار الأوراق العذراء من الأوراق المحبرة؟

يمضي على الطريق مطرق الجبين، يهرب من ردهة السلم حيث باغته «دومنيك» بالأمس بقبلات اللبس، يداه في جيبي سترته الطويلة كالعادة، لم يتعود بعد على وضع القبعة ذات الحوافي المستديرة على عادة مثقفي باريس، كلما وضعها هاجم



بجنون هرش قوي فروة رأسه، كهرش البق في الفنادق الرخيصة القذرة، يمشي خارج الزمن العادي للأحياء، في زمنه الداخلي يعيد ترتيب الأشياء ورسم الخرائط، تقاسمه سيجارة مترنحة دوماً بين الشفتين لوعة السير المرير بلا هدف، بوق سيارة «بوجو٢٠٣» سوداء، يرتفع قوياً في الأجواء، تكبح السيارة بصرير مزعج مكابحها بقوة، كانت سوداء كالموت القادم بصمت، بناصية مقدمتها الضخمة الطويلة، الممتلئة الجانبين حد التخمة، في تناقض رهيب مع طول مقصورة الركاب الضيقة، ينتفض مصدوماً والسيارة قاب قوسين أو أدني منه، وهو يعبر نحو ساحة «سان جيرمان»، عبوراً أحمق، يشرئب السائق من النافذة برأسه المغطى بقبعة بلا حواف، ويصيح:« إيه....! انتبه....! هل أنت أعمى....؟» ثم ينطلق بسرعة.

صوت عجوز تتبضع عند البقال على الواجهة المقابلة للساحة جوار حانة «ليب»، يصله حاداً غاضباً، مستاءة بغيظ غير مبرر ولا مفهوم، وعيناها تنضحان بالضغينة: «العرب....!العرب.... !كلهم.... هكذا.... متشابهون.... وحمقى.... نعم....! حمقى....».

«Oui...! Les arabes sont tous comme ça! les mêmes... des fous.».

متضايقاً من كلامها الجارح، يحدجها بنظرات ثاقبة عنيفة، بقسوة فيها من العتاب واللوم ما يكفي لإحراجها، تتبعثر سلعتها وهي تسقط من بين يديها المرتعشتين، يخفض بصره رحمة

بها وإشفاقاً من حالها، يمنحها هدنة من صبره وحلمه وتفهمه لخرفها، فتتلهى العجوز بتسوية منديل رأسها الأشيب، ثم تطرق جبينها وهي تلتفت مسترقة النظر إليه بسرعة، فيمنحها أمناً روحياً مبتسماً ملوحاً لها بيده حتى يطمئنها، كأنه يقول لها: «لا عليك سيدتي.... لابأس....».

البقال الجزائري الشاوي الأصل المسمى«ماسين»، الثلاثيني، الأشقر الشعر، الكهل ذو العينين الخضراوين، الطويل والنحيل القامة، البارز عظام الوجه، الناتئ عظمتي الوجنتين، العريض الجبهة، الرقيق الشفتين والأنف، هو صاحب المحل حيث خاطبته العجوز، البقال الأصهب في البداية بدا غير معني بما يقع ، كأن الأمر لا يهمه، أو أنه في صفها، لكن نظرة منه حادة وتنضح بما يعتلج نفسه من غضب دفين، تحدد المواقع والمواقف، فيرد لها الصاع صاعين في الحال متبرماً ضجراً، ويقول بغضب وحنق، مبدياً أنه لم يعد يطيقها على ما يبدو وضاق ذرعاً بتصرفاتها: «ردي السلعة....! رديها....! لا أريد مال المتعصبين.... أنا لا أتاجر مع العنصريين، وبالمناسبة.... أنا عربي.... وإن كان من أحد أحمق في هذا الحي فأنت الحمقاء.... اذهبي.... j'en ai ras le bol» «سالم الزموري» يعلم في الحقيقة أن السيد «ماسين» أمازيغي جزائري من منطقة «الشاوية»، ونخوته وقرابته منه ليست من عروبة ولا إثنية فجة، ولكنها من وحدة المصير والألم والآمال، ومن ندوب كبريائه الجريح في مواقف عاشها هو نفسه.

لوح له «ماسين» مبتسماً وقال له: «لا تهتم يا شاعرنا....!





«دوروتا Dorota» عجوز حمقاء.... وهي بولندية الأصل.... لكني فوجئت اليوم بسلوكها....» يشكره بابتسامة عريضة، ويتسمر في الساحة لحظة، تجول في خاطره أسئلة ملتهبة تتناسل من قلقه الوجودي «لمَ يصرون كلهم على أنني شاعر....؟ ما أكتبه مجرد تعابير تلامس أفق الشعر، لا أصنفها إلا بوحاً حراً غير ملزم بنظرية ولا شكل، آه....! النظريات غدت تخنق النصوص، والكل منشغل بنظرية عامة، كنحو عام، ينضبط بقسوة له كل نص طموح يحتاج إلى بطاقة هوية، آه....! ما أكثر وجوه القمع وأبعاد السلطة....! صخب حول علمية النقد يملأ كل المحافل الفكرية: براغ.... باريس.... موسكو.... بون.... برلين.... لندن.... ليتني أعرف فيما يفكر فيه المتمون للخريطة العربية الآن؟ للأسف.... أكثرهم.... مستهلكون.... فقط ينتظرون الموجات النقدية ليترجموا وينضموا إلى صف فكري إلى حين.... ثم يتحولون إلى نظرية أخرى، الكل في تسابق غبي، نحو صياغة نظرية للأدب، متى كان الأدب ينظر في مرآة ليعرف نفسه....!؟»

تتناسل أسئلة سالم الزموري في عقله الذي لا يرسو على شط أمان، وتختلط بموضوع بحثه الجامعي، وبقلقه المعتاد، وتجول بخاطره سلسلة من الأفكار كلهب النار، لا يجرؤ على عرضها أمام أستاذه المشرف، فعليه أن يكون من الحواريين، عليه أن يتحول إلى خادم صغير في مشروع أستاذه النقدي الكبير، عليه أن يتحول إلى فقرة أو على الأرجح إلى فصل في كتاب الأستاذ المشرف المنتظر صدوره، يستغرب متسائلاً: «لمَ الكل يعدو بحمى حارقة، تحرق المعنى، وتنتصر للشكل!؟».

يـردد بصمـت وهـو غائـب عـما حولـه مـن ضجيـج الصبـاح: «تلـك هـي السـاحة الثقافيـة في باريـس الآن.... شـتاء سـنة **١٩٥١**، شغف مزيف بعملية لا تطيقها النصوص، وشغف بالالتباس، ولا أحد يسأل الشاعر والأديب عن رأيهما.... أكره هذا اللغط الفاشي بين جدران السوربون، ماذا لو تركوا الشعر يسافر بلا خرائط، فحين يحمل الشاعر خريطة رحلته، يتيه في الصحراء....؟!»

يستحضر صورة الدكتور المشاكس مسيو «فلاديمير بوينيتش»، وكان من أصول سلافية، الذي يشرف على رسالته ويستغرب من إصراره على النظرية والشكل، على ما يسميه «البويتيقا» كعلم يحتكم إليه النص، لمَ هو مصر على اغتيال المعنى لصالح الشكل....؟ ويشعر بالخيبة فأستاذه يوشك أن يغتال الأديب، ويردد في خاطره «قريباً سيغتاله أحد ما، هناك مؤشرات تدل على استعداد قوي للتضحية بالكاتب.... بالمعنى.... وهناك موجة قوية للانتصار للقارئ.... بفتح النص على الدعارة الدلالية في ماخور كبير، ليلد لقطاء المعنى.... يا رب النص يضيع....».

أوف.... آه....! لمَ يفكر في هذا الأمر في هذا الصباح؟ لمَ أسئلة رسالته الجامعية تطارده أينما حل وارتحل....؟ سيقتله هذا الصمت الخانق الخنوع وعجزه الخضوع على إعطاء رأيه في الموضوع، فهو يرى أن البلاغة العربية حسمت في ثنائية بائدة لعلاقة الشكل بالمعنى، والتراث النقدي العربي، حسم في ما يشبه هذا الصخب، لكنه يخاف أن يقول رأيه، إنهم ينطلقون من أرسطو، يمجدونه ويحملون قوله أكثر ما يطيق.... أرسطو لم يقل كل شيء عن الأجناس، في خانات أنواعه أقحموا ما لا يليق بالنصوص المتمردة على التجنيس، السوربون الساحرة غدت ساحة لجدال قوي حول «الأدبية»، استعر واحتد حتى تناسى المنظرون النص، واشتغلوا على ظلاله، أو انتقوا ما يلائم وهم «الوحدة» على حساب التنوع الجميل.

هو بكل بساطة يطرز نصاً لا يسعره ولا يجنسه، يكتب في منطقة منزوعة سلاح النقاد، لا هو نثر فصيح، ولا شعر صريح، هو يكتب على الماء، حتى لا يترك أثراً جريمة فض بكارة البياض، يكتب بقفازة حتى لا يترك بصمة على البياض الضحية، بحس شعري دافق وباكتئاب جامح.... هذا ما فعله الليلة.... وهو يحاول ترويض مشاعره الجامحة الملتبسة اتجاه «دومنيك».... فهي ريح لا يدري متى تعصف بالمراكب على الرصيف، ولا يدري هل اختار الورقة البيضاء القابعة على الرف البارد العبوس في لونه البني الغامق، أم هي التي اختارته....!؟ هل أشفق من حالها....؟ هي فعلاً كانت حائرة لحيرته، أو ربما حائرة من أزمتها، ربما تشعر بخزي عنوسة الأوراق، بخوف أن تجد نفسها في صندوق قمامة بدورة المياه، أو تحملها الريح بعيداً لتتآكل تحت الشمس وبلل المطر، ربما هي خائفة أن تغدو مجرد ورقة تخفي سلعة رخيصة على الطريق، أن تصير حزمة للفشار مثلاً، ربما يطالها العار الكبير، فتمسح مخاطاً عفناً، أو تلتصق بفج عجيزة باردة.... ربما يدفئ بها طفل على الطريق أصابعه الباردة، فتصير رماداً متطايراً....

وتكبر الأسئلة في خاطره، وتتشعب تشعب قلقه: «هل الورقة

العذراء معذبة أكثر من عذابه، تائهة بين عز بياضها، وتوقها الجامح لرحلة غجرية بلا أعنة مضطهدة في حدائق انتظارها؟ هل تغار من شقيقتها التي تحتفل بالقصيدة، حيث حَبَّر بياضها علها تستوعب هذا الاضطراب والغليان في نفسه؟ ألم يكن نفسه يعلق الرجاء والعزاء على سارية شراع فلك القلم؟ ألم يشعر بصريره محايداً لا يدعم الكلمات بقوة تبدد ثقل اللحظة المترددة ؟ ألم يشعر ذاته بالخيبة والانكسار يقتاتان من كبده؟ فالورقة ظلت غير آبهة بما يختلج في الروح، ويدعوها للبوح، ظلت باردة، خلافاً لنار لوعته.... خذلته بعدما أغوته....

حبر قلمه لم ينتزع من الورقة عذريتها المغرية كرهاً وقسراً، بل هي التي قدمت نفسها قرباناً لربات الإلهام، وأعلنت رفضها لقدسية الفراغ، تريد أن تصير أقنوماً كئيباً في كنسية العزاء، وضحت بالقداسة من أجل وجود مدنس بالحبر لكنه نبوءة لمن لا نبوءة له، عذرية الورقة عارها الذي لا يطاق، فكلما طال البياض، غدت مجرد قطعة من كفن لشجرة لم تعد موجودة.

على مدى زمن ليلته الرتيبة، كانت الورقة البيضاء تصيخ السمع إلى ضوضاء مشاعره، فحفزته بصمتها الصاخب أن يعلن زمن وجودها، أن يخرجها من التفاهة، فأحس باعتصارها، ولشغفه الشعري المطري، مد لها أصابعه، وبسط لها لوعته، فأعلنا معاً عرس القصيدة، في غفلة ناقد يتربص بالإيقاع، وكل أسلحته من الطابور الخامس للخليل الفراهيدي، ومدفعية الأصمعيات والبيان والتبيين الثقيلة في مخازنها إلى حين.





لم يَدَّع أبداً يوماً أنه شاعر، لم يجنس تلك الكلمات لا نثراً ولا شعراً، لكن أصدقاءه يصرون أنها شعرٌ، وحين يترجمها لصديقه «بيير»، وترجمة الشعر جريمة وفضيحة، لا يقول صديقه النورماندي أي شيء، لأن المعاني موجودة على قارعة الطريق، وحين يخرج الشعر من بيت ثقافته ولغته، يغدو مجرد معانٍ بلا سحر ولا حياة، لكن «دومنيك».... مستعربة.... تتقن العربية وتدرس الفكر العربي، أحياناً تقول إنه إسلامي فقط، وأحياناً تضيع بين فكر فارسي وكردي وأفغاني وقوقازي ومغولي وأوزباكستاني، يدرس على أنه فكر عربي، وحين تضيع في الجغرافيا، بمنطق الدولة الحديثة، تفقد بوصلة البحث، فيقول لها: «عربي.... إسلامي.... الفكر ينسب للغة التي كتب بها، لا جنسية له إلا داخل خريطة اللسان».... فتشهد له أن ما يكتب الشعر، لكنها تؤكد دوماً أننا لسنا في زمن الشعر، كأفلاطون تصر على إخراجه من المدينة الفاضلة.

في غفلة من النقاد المتربصين بالتحولات الصادمة، يحبر ما لا يسميه شعراً ولا نثراً، و يعول يوماً على ناقد جريء ينقده من موقعه في الثالث.... الوسط المرفوع. أحاسيسه حين تضطرب، ترتعش أصابعه، لن ينتبه الغرباء في تلك المقهى إليه، سيكون هناك، ظلاً لرجل عابر، وسيكون فقط مجرد زبون يحتسي قهوة، لا زحمة حواليه ولا طابور معجبين يطلبون توقيعاً تافهاً بلا معنى، كم يكره هذا النوع من التوقيع، لا يفهمه، ويعتبره طقساً وثنياً جديداً، حتماً الحيرة والشغف سيعصفان بروحه عصفاً قاهراً، وهو يراوغ طيف «دومنيك» وينفس عن النفس بكلمات

فاضحة، لكن لن يكون هناك بمقهى «les deux magots» من يدون حركاته كفأر مختبر، سيغادر الساحة الشهيرة «Saint-Germain-des-Prés».... «قديس المروج سان سرجمان» بمقاهيها ومعالمها، سيلج فضاء آخر، سيحلم بحرية، فلن يتعرف عليه لا النادل ولا عازف الطريق.





## ٢

توقف لحظة حائرا كطفل تائه وسط مدار «أوديون» «Odéon» حيث يتقاطع حي القديس جرمان والحي اللاتيني، الحي الذي يقطن به في شقة ببناية قديمة الطراز بالطابق الرابع، يسترجع مرة أخرى بنشوة غامرة وارتباك مضطرب قبلات «دومنيك» ليلة أمس على ردهة بالسلم، آه....! ستغدو تلك الردهة محطة شوق يومية، عود ثقاب يشعل النار في غابات نزقه الحالمة، بعد الأشياء العابرة تدخل التاريخ، تاريخنا هو أساطيرنا الجميلة، وحين يطرح سؤال «الما بعد....» يفتح بوابة الوجدان على مصراعيها، لشهية كواسر التوجس والريبة، لتحلق فوق سماء روحه القاتمة، لتنهش بمخالبها الخطافية، ومناقيرها النافذة، ما بقي من جثة أمله.

رجاؤه اليوم أن يحسم الأمر، أن يلغي حالة الاستنفار في وجدانه، أن يبدد القلق والتوجس اللذين يحرمانه السكينة، بانتصاره على هوس التدقيق في التفاصيل المملة، أو إدمانه التأويل الولود اللحوح الذي يوسع أزمته النفسية، سيبيد سرطان الوهم والهوس اللذين يصران على غزو خرائط جديدة في أيامه للبس جديد، وألم مشاكس عنيد.

ها هو يقلب في موضوع عابر كان بالإمكان أن يكون حادثة تصنع الأعراس والحبور، فتحولت قلقاً وهاجساً مؤرقين، فعادي جداً أن تقبلك فتاة على ردهة السلم، لكنها «دومنيك» وليست أية فتاة، والمقلق أنها فتحت في نفسه شهية السفر في غابات الشهوة، والغريب هذه الرغبة الجديدة التي تولدت فيه للكشف عن فاكهة نادرة، هذا ما يزعجه في الحقيقة، ليس قبلاتها بل ما يخيفه ويخفيه، انهياره المفاجئ، سقوط أصنامه، انهيار برجه، فهل تسعى الفتاة لاختبار حكمته وقوة عنان نزواته؟

وشط بعقله نحو منطقة الشك القاتل، وغدا العادي عند كل الناس مشكوكاً وظنيناً، والسهل اليسير مخيفاً ومريباً، والعفوية المشاغبة ببراءة متهمة بالمؤامرة والمكيدة، ما المؤلم في قبلات انتزعتها **دومنيك** منه، وهو يشتهيها وراغب فيها لحد الجنون؟ أين الشبهة....!؟ أين التهمة....!؟ أين تجليات مؤامرة محتملة....!؟ لكنه هكذا هو، نسخة مهذبة متعلمة من صورة أبيه القروي، خليفة القائد المتسلط «بوشعيب القرشي» على منطقة هوارة و«أولاد تايمة» والنواحي بالجنوب المغربي، ربما نسخة نفسية متطابقة بكل وساوس السلطة وأهواس الحكم، والوالد وهو اليد اليمنى للقائد، شرب أسوأ ما في سيده من علل وتوجسات الحاكم.... خوفه.... إحساسه بالتآمر عليه دوماً.... الحذر من النساء.... من الأبناء.... من الحاشية.... من المادح.... من الهاجي.... من الصامت.... من الغامز.... من اللامز.... من المرتعش.... من الثابت برباطة جأش، من البعيد.... من القريب.





القائد «بوشعيب القرشي» هو الغالب، والبقية وإن كانوا من أعوانه وخدمه مغلوبون، والمغلوب على ملة وقيم الغالب، والأب لابد أن يشرب ذريته ما يراه حقيقة مطلقة، فنشأ الابن «سالم الزموري» بين الخدم والحشم في الدار الكبيرة «بهوارة»، وما من يوم يمر إلا ويربيه الأب على الخوف والحذر وعدم الثقة حتى في الزوجة «لو أنجبت منها أربعين ولداً.... اسمع رأي المرأة ولا تعمل به....» هكذا يصر الأب ويلح، ويستحضر مواعظه وهو يتلوها بزهو واعتداد، مستلهماً ملاحم وغزوات سيده القائد «بوشعيب القرشي» الذي لم يرحم حتى ابنه الذي تآمر عليه لقتله، رفقة القرويين المكتوين بتسلطه وفرضه عليهم السخرة والمتمردين الملقبين بـ«الزواك» حتى الموت، ويستحضر صوت الأب الجهور وهو مستلق على فرشة عالية وأمه تدلك كتفيه: «سيدي القائد سافر إلى مراكش، لأداء الواجب عند «القايد» الكلاوي، قائد مراكش والجنوب، وكل القواد هم صغار مقارنة ب» القايد» الكلاوي، فهو الذي يُصَدِّق على كل قرار سلطاني من تعيينات للقواد والخلفاء، كانت زيارة مجاملة، برفد مهم من هدايا وجوار، وعبيد وقنان، وسلع وغلل، وأثواب وكتان، بعدما أكمل بناء كنسية النصارى، ورياضها ودورها، وسور السوق الكبير، مسخراً من كل قبيلة الرجال الأشداء، وحتى النساء وسجناء«الزواك»

تنقل الذاكرة العابرة عبر الألسن ما صمت عن بعضه الوالد، وهو يغربل التاريخ القريب، ليمتح منه ما يليق و لا

تضيق بـه الأنفس، حكـى الشـيوخ في ليـالي السـمر: «تحت التعذيـب هلـك الكثـير مـن الرجـال والسـجناء والغربـاء، وخلطـت جثثهـم وطـين الأسـوار، وكان قـد أنهـى القائـد القـرشي تمـرد قطـاع الطـرق، «الـزواك» بحمـد الله، بتكليـف مـن النصـارى، وقـد جـاء آنفـا، وكان فيهـا باشـا ذو صيـت وقـوة وبـأس شـديد، فأنهـى الفتنـة ووأد نارهـا، وفتـك برؤوسـها فتـك عـبرة وبغـي، فقتـل أكثرهـم تعذيبـاً في الأقبيـة المظلمـة والمفـازات القصيـة، وكان «الـزواك «فتنـة ذاك الزمـن ،ولصوصـاً بـين طريـق تارودانـت وأكاديـر».

وتضيف الروايـة الشـفهية: «شـاءت مشيئة الرحمـن أن يسـتنهض أهـل هـوارة همـم رجالهـم، وقـد هلـك شـبابهم عـلى يـد القائـد الـذي كاد يبيدهـم سـخرة وجـورا ومـا كانـوا قطـاع طـرق، فتآمـروا مـع ابـن القائـد القـرشي عـلى قتلـه غيلـة، فـأدى الأمانـة العـين الجاسـوس، ووصـل الإنـذار السريـع لسـيدي بوشـعيب القـرشي، فغـير الطريـق وهـم لا يـدرون، ودخـل مـن حيـث لا ينتظـرون، وحـين قـرر مـا رأى مـن أحـكام، سـلخ جلـد ابنـه، وأحـرق وقطـع الـرؤوس والأطـراف، وبـدد البيـوت، وهـدم الـدور، وشرد الـذراري، وخـرب الخيـام، حتـى صـار الطلـل والرسـم والخـراب علامـة تذكـر كل متمـرد أو متنطـع بمصـير لا يرحـم حتـى الأقربـين....» .

وفي الحكايـة الشـفوية لـذاك الزمـن الخـبر والخرافـة، وجـزء ممـا كـرره عليـه والـده حتـى ترسـب في العقـل، وصـار مسـلمة ومـا هـي إلا خلاصـة تجربـة شـخصية، لا تعـدو كونهـا احتـمالاً أو هوسـاً أو وسواسـاً....





توقـف سـالم لمـدة عنـد النصـب التـذكاري لـ«دانتـون Danton» كأنـه يـراه لأول مـرة، رغـم أنـه يعـبر مـن الطريـق نفسـه يوميـاً، ونظـر إلى هـذا الزعيـم الثـوري الـذي أكلتـه الثـورة الفرنسـية ممـن أكلـت مـن أبنائهـا، «دانتـو» الخطيـب المفـوه المنتصـب بـين حامـل الطبـل وحامـل البندقيـة، وهمـا ينظـران إليـه بحـماس وإعجـاب وهمـة وعـزم، وهـو يشـحذ الهمـم، ويحشـد الحشـود للقيـام بالثـورة، فاسـتحضر مقطعـاً مـن محـاضرات عـن الثـورة الفرنسـية، واسـتغرب مـن طريقـة قتـل هـذا الزعيـم الثـوري، عـلى أسـاس تهمـة خيانـة مبـادئ الثـورة وهـو مـن الثـورة وفي قلـب الثـورة، ومـن داره خرجـت مناشـيرها وشـعاراتها، واسـتغرب بـألم متسـائلاً: «كيـف يخلـد فيـما بعـد، زعيـم منـح الثـورة كل شيء، فتقطـع رأسـه باسـم الثـورة، ثـم يُنصـب لـه تـذكار باسـم الثـورة التـي أعدمتـه، قـرب البيـت الـذي ألقـي عليـه القبـض فيـه، وتـم هدمـه كـما هـدم منـزل «ديـدرو Diderot» لتنفيـس وتوسـعة شـارع سـان جرمـان....!؟».

مطـرق الجبـين، يكلـم نفسـه كمجـذوب تائـه بـين الطرقـات، وقـد انتابـه حـزن غريـب وهـو يسـائل لأول مـرة النصـب التـذكاري، بعيـداً عـن دلالتـه الجماليـة والفنيـة والحضاريـة، وعقلـه يـردد صـدى العبـارة التـي رددهـا «دانتـون» بحـماس قل نظـيره، وهو يحشـد الحشـود للثورة، ويشـحذ الهمـم للدفـاع عنهـا، حسـب أسـتاذه للتاريـخ والحضـارة «تحلـوا بالشـجاعة....! يـا رفـاق الثـورة والسـلاح.... بالشـجاعة تحلـو....! هبـوا....! هبـوا....! يـا رفـاق الوطـن....! دافعـوا عـن الوطـن.... !تشـجعوا....! تشـجعوا....! الوطـن في حاجـة إليكـم....».

«Courage ....Aux armes. Frères citoyens.... Allons à la défense.... de la patrie».

تردد صدى الكلمات الحماسية ل «**دانتون**» في عقله قوياً حتى سرت الحماسة في نفسه هو، كأنه يعيش الأحداث مرة ثانية، ويخرجها من الكتب لينعشها ويبعثها حية بحيوية، على وقع الطبول وصيحات وصخب الجماهير، فملأ تفكيره طاغياً وعالمه الداخلي مضجاً الصياح والتأييد للمتحمسين والمتحمسات، وتداعت أمامه خيالات مشاهد اقتحام وسقوط سجن قلعة «الباستيل»، وصار كأنه يسمع وقع صوت المقصلة وهي تهوي على الرؤوس، والحشود التي صفقت بالأمس لزعيم رفع على الأكتاف، تصخب عليه اليوم وهو ينزل من العربة القفص نحو منصة المقصلة، واختفت الابتسامة من الوجوه بين الحشود، وحلت محلها معالم الحقد والغضب، نفسها هذه الآلة الجهنمية التي قطعت رأس الملك لويس السادس عشر وهو الذي ساهم في تطويرها، قطعت رأس زوجته الجميلة النمساوية «ماري أنطوانيت» والتي اشتهرت بعبارتها التي ألصقت بها دون دليل، وتداولتها العامة، وإن كان «جون جاك روسو» نفسه حين أشار إلى العبارة في «اعترافات»، نسبها إلى سيدة نبيلة لا غير، والعبارة فعلاً صادمة وهي «إن لم يجد الفقراء الخبز فليأكلوا الكعك».

وقطعت لأيام المقصلة الرؤوس وسط حمى جامحة متعطشة للدم والانتقام، ذهب ضحيتها رأس مهندسها «غِييُو Guillot» نفسه، وملئت الدلاء الدامية بالرؤوس المقطوعة لبعض زعماء





الثورة، غدا سالم جزءاً من مشاهد دموية يعيشها بالجوارح والإحساس، مشاهد قاسية تحول فيها الزعيم إلى سفاح، والسفاح إلى زعيم، فاختلطت الأوراق، وأرهف السمع للماضي المسافر من الكتب، يسمع الحشود تردد بحماسة النشيد المارسيلي، «la marseillaise» وهم يتغنون بالحرية وبالثورة، ويستنفرون الوطنيين والشعب في مسيرة حاشدة، لمواجهة الطغاة وخصوم الثورة من الإمبراطوريات المجاورة، حملق في وجه تمثال «دانتون» وقال متأسفاً بحسرة وحزن : «آه...! يا «دانتون»....! أنت من أبناء الثورة الفرنسية البررة التي أكلت أبناءها، آه....! يا صديقي....! للأسف.... التاريخ مليء بالحماقات، الإنسان يرتكبها ثم يهدر الزمن في إصلاحها.... عبث.... عبث....».

وبذلك يكون قد اقتحم تلك المنطقة الساخنة المتسمة بالريبة والشك، التي توجد فيها دومنيك وجيلها، بعد الحرب العالمية الثانية، والتي كان عنوانها العريض التيه والعبث، وعبر عنهما بدقة سؤالا المرحلة الحرجة: ما العمل....؟وماذا بعد....؟ وعبارات مشهورة مسافرة على الألسن، إما تصف العبثية، أو الألم....» في انتظار «غودو».... الجحيم هو الآخر....».

العبث.... والانتظار العبثي.... وأسئلة وجودية جديدة.... ستخرج جيلاً جديداً من الأفكار والإبداع.... جيل ينتظر على حافة الطريق، ما لا يأتي أبداً.... فقط ينتظر....

يخطو متجاوزاً عتبات مقهى«les deux magots»، بعد ليلة

بيضاء، يختار طاولته دون اشتراط في عقله، التعب أنهك العقل والجفن، فلم يغمض له جفن طوال الليل، بعدما راوغ الأرق لساعات، وصارع ما جال في خاطره من أفكار جامحة سدت كل الطرق أمام عينيه لأبسط غفوة، وانتظر أن تشرق الشمس على أحر من الجمر، بالمقهى.. بعض الوجوه المؤرقة المتعبة مثله بكرت، وأكثر الرواد المبكرين يقرؤون بصمت جرائد أو كتباً، أو يكتبون منقطعين عما حولهم، وآخرون يتحدثون بأصوات خفيضة عيونهم متعبة، أو يحتسون جعة في كؤوس كبيرة مرغية مزبدة من فيض دفق ضاغطة الجعة النحاسية اللون، يدخنون بشراهة، يضعون ستراتهم الطويلة على الكراسي ذات اللون «الأكاجاوي»، ويغرقون في سحابات من دخان السجائر أو الغلايين.

كانت طاولته منعزلة، من خشب «الأكاجو» اللامع على طراز باقي الطاولات، وهي ميزة وخاصة فنيتين للفضاء، يجلس مستنداً الكرسي على عمود في أعلاه انتصب تمثالان رفيعان، من أول نظرة يبدوان كائنين فولكلوريين صينيين، حدق بفضول جارف في تفاصيل هذا العمود العريض، فبدا كشكل روماني قديم، تحفة معمارية من قصر تليد العمارة والمعمار، شيد بجمالية من مرمر أو رخام، وربما من «السيراميك»، دقق في وجهي التمثالين، وتمنى لو كان بإمكانه لمسهما وهما على بعد ثلاثة أمتار على الأرجح فوق رأسه، لمعرفة مادة نحتهما، أمن صخر جلمود أم خشب صقيل، أم من خزف شرقي؟

أطال النظر فيهما متفحصاً بشغف وفضول، محاولاً كشف



التفاصيل على دقائق الأمور تلهيه عن وجع قلبه، وحيرة عقله، أدرك دون جهد تفكير أن ملامحهما تدل على أصلها من الشرق الأقصى، وأقرب الظن، أنهما صينيان، يجلسان على صندوقين أحمرين قانيين، مزركشين بزركشات ذهبية على أضلاعهما، كلاهما مستند واجهة من العمود، ويشكلان زاوية قائمة، يرتديان عباءتين صينيتين وقبعتين مختلفتين الطراز، واحدة بحواف قصيرة ودقيقة كجفنة صغيرة، والأخرى بدونها كصحن، لكنها واسعة الطوق أعلى الرأس، أقرب إلى طراز قبعة عسكرية مستوية الجوانب غير مائلة، واستغرب كيف لكلمة « magot » أن تطيق التفسير الضيق المتداول الذي يعني «تمثال من خزف»، وشغل باله بلعبة النسيان والهروب من حيرته، بالنظر العقلي في قضية التمثالين.

جال في خاطره حديث ذو صخب لا يسمعه غير هو، من تداعيات مشهد التمثالين، وقد كانت عادته أن يغيب في دواخله حين يروم أن يصفي قضاياه العالقة، ولا يخرج منها إلا بعد الاهتداء إلى السكينة، وقد تصدر عنه كلمات أو تعابير بصوت عال، فيلفت الأنظار إليه لو كان في مكان آخر، إلا في هذه المقهى التي ألفت العقول الحائرة، وأحاديث النفس الجريحة والقلقة، التي تجنح بصاحبها إلى منطقة وسطى مضطربة، بين العقل والجنون.

لهذا الفضاء خصوصية غريبة ومثيرة، وطابع مغري لحد الدهشة، فهو يجمع المتناقضات في تناغم جميل، ويؤلف بين المفارقات، ويفسح المجال لجيل جديد من النساء المفكرات المتمردات، وأغلب الرواد غير نمطيين، لا أحد يشبه الآخر،

ولا يريد ذلك، إلا جماعات من الشباب المتحمسين لمفكر بغليون وقبعة وسترة حيث يصبحون حواريه، والفضاء لا يخلو طوال اليوم من شاعر «بوهيمي» أو فنان رسام لم يتخلص من «دادانية» العشرينيات البائدة، أو مبدع فوضاوي، يحتفل بالعبث لباساً ولغة وحياة.

تأمل مشرئباً بعنقه نحو السقف في الشكلين فوق رأسه، يغير موضع كرسيه، حتى تسهل الرؤية، فلا يكلفه النظر بتلك الطريقة المؤلمة تشنجاً عضلياً، يفتح قاموساً ثقيلاً، متجهماً كعجوز في محطة الميترو عند الغروب، أخرجه من محفظته القديمة الجلدية البنية، وينخرط في حديث النفس الخفي الكتوم، وسيجارته تترنح بين شفتيه واللهب يزحف جمراً نحو عجيزتها سريع «les deux magots »... للكلمة معان متناقضة ومتعددة، والمترجم الدقيق، قد يجد نفسه أمام معان ذات مفارقات غريبة، لأنه يفتقد إلى السياق ومرجع الإحالة، وفي غياب السياق ومرجع الإحالة، نحتكم إلى القاموس، وإن كان القاموس بليداً عند عتبات المجاز والاستعارات والكنايات، وقد نحتكم إلى حفريات لغوية أو إلى التأويل المكلف أحياناً، فلكل تأويل ضحايا....

يفتح القاموس على الصفحة المتضمنة للكلمة، يقرأ ما يجد بين يديه بشغف ودهشة توشك أن تقفز حية من نظرات عينيه، كأنه يكتشف شيئاً جديداً وغريباً، ويقول في نفسه: «الكلمة تعني معاني عدة.... تعني مالاً مكدساً كثيراً غير نظيف أحياناً، أو كنزاً مكدساً بكل بساطة، هل نأخذ بهذا المعنى لجلوسهما على





صندوقين يبدوان أنهما نفيسان، ويخزنان ثروة....؟ سأؤجل الحسم في المعنى، الكلمة تعني أيضاً نوعاً من القردة الإفريقية، وهذا معنى بعيد، لأن صاحب التمثالين الأصلي صيني، ولا أظنه يهين نفسه، إلا إذا كان القرد مقدساً في ثقافة شرقية ما، وتعني الكلمة أيضاً كل شخص وقح وضيع ينازع ببذاءة وسفالة، وهذا المعنى مدحض بالسبب نفسه السابق، وبما تعكسه نظرات التمثالين من حكمة وتأمل صافيين، نعم...! ويه...! كل المعاني السلبية تنهار أمام سياق خارجي مصطنع غير مضمون، والسياق الآمن هو سياق الفضاء ذاته، فهي مقهى المثقفين بامتياز، وحواريي الوجودية والشعراء والكتاب والفنانين والفلاسفة، وساسة من اليسار الفرنسي ووسط اليمين، كما علمت من شهرتها، سأحتفظ بالمعنى البسيط «تمثالان من خزف أو بورسلين»، وتلك صناعة صينية تقليدية بامتياز، وليجد ضالته في المعاني السلبية كل متعصب حقود عنصري مختل العقل».

وحين رست مرساة فكره على رصيف معنى نهائي للعبارة مراوغاً أصل الألم الحقيقي، عادت سفن الحيرة لتبحر به بعيداً عن شط الاستقرار النفسي تحت رياح القلق الهوجاء حين تحضره «دومنيك» طائفاً في الخيال، فيهامس ويناجي نفسه: «آه.!. يا دومنيك....! قبلاتك بالأمس، كانت سخية.... ندية.... لغماً انفجر قريباً من شرفة القلب، شظية واحدة هنا، تؤلمني في منطقة الصدر، أكاد أسمع فيها كل أصوات أدغال الشهوة الطافحة، لكن.... وماذا بعد....!؟ أكان عليّ أن أدعوها إلى شقتي!؟ لو

فعلت ودخلت، كيف كنت سأجد الطريق إلى حدائقها الخفية وهي تستفز كل وحوشي المقيدة بالحكمة والعقل، أنا طبعاً أعرف مزاجها المتناقض، فوضاها الداخلية اللذين تجعلاني دوماً أشكك في كل مواقفها، فهي تغير آراءها كما تغير جواربها.... لا.... لا.... ليست انتهازية ولا متقلبة الأفكار حسب المنافع والمصالح، ولكنها مثل معظم جيلها من الشباب الفرنسي، تعصف بها الشكوك، ولا ترتاح ليقين ولا مطلق، والزمن زاخر بالأفكار الجديدة، والتكتلات الفلسفية المتناقضة، فرنسا في مخاض عسير، وأسطورة «شارل دوغول» بدأت تتبدد، بتواريه عن الأنظار بعد إسدال الستار عن الحكومة الموقتة، والنساء أكثر تقديراً له، وللأسف، فرنسا بمجدها وثورتها الفرنسية، ومسارها منذ عصر الأنوار، لم تعط الحق في التصويت للمرأة إلا قبل ست سنوات، بقرار من «شارل دوغول».... الحقيقية أن الناس كادوا ينسون هذا الجنرال غير ثلة من الشيوخ والجيل القديم، حين تستحضره ترفع الأنخاب له في الحانات، وتردد عبارته الشهيرة بصوت جماعي «أيها الفرنسيون.... لقد خسرنا معركة.... لكننا لم نخسر الحرب وسوف نناضل حتى نحرر بلدنا الحبيب من نير الاحتلال الجاثم على صدره».... وقد يرددون «النشيد المارسيلي» في حماس وبهجة وحنين ونوستاجاليا مبكية، الجمهورية الرابعة فعلاً في تناقض وأزمة داخليتين، و«دوغول» نفسه خارج السلطة، والنقاش حوله مفتوح وإن توارى عن الأنظار في الظل، ودومنيك المسكينة جزء من هذا التحول الغامض».



هو متيقن من طيبوبتها ونبل خلقها، فهي رغم تقلباتها الصادمة ليست وصولية، لا تصبغ أفكارها وفق أهدافها المرحلية، وأهوائها العابرة، فقط هي من جيل حائر فرنسي، ما زال لم يجد الأجوبة المريحة عن أسئلة راهنة حارقة، عن قضايا مرحلة ما بعد الحرب، وما زال السؤال الكبير «وماذا بعد» ، يتلمس في عقلها مثل غيرها من هذا الجيل الشكاك جوابه في دروب الأفكار المتطرفة أحياناً، والمساجلات العنيفة لحد الخصومات المجانية أحياناً أخرى، فيتحول الاختلاف إلى أحقاد بين المفكرين أنفسهم وإلى تصفيات برصاص الفكر لشخصيات تفكر خارج منطق الحواريين والمريدين الذي طغى على المرحلة.

# ٣

تتابع السيدة «ماتيفا سوزان»، من بعيد حركات سالم وتغير معالم وجهه، وتعابير محياه الفاضحة للقلق الطافح، يدس وجهه بين صفحات القاموس الأصفر الغلافين، ويشغلها سؤال عن هويته، فهو زبون جديد، وشاب على ما يبدو مغاربياً، و«ماتيفا سوزان» هي مسيرة المقهى، وهي ابنة السيد أوغيست الذي حول هذا الفضاء منذ أربعين سنة تقريباً، من حانة مفلسة كانت قبل ذلك محل تجارة صيني للملابس الحريرية الجديدة إلى ورشة للفكر والنبيذ والجعة والقهوة السوداء المقطرة الباريسية ذات النكهة الخاصة هنا.

السيدة «ماتيفا سوزان» التي اتخذت اسم زوجها بعد الزواج على عادة الفرنسيين، لاحظت اهتمامه المبالغ والغريب بالتمثالين، غادرت المقصف وئيدة الخطو، دنت منه مبتسمة وقالت وهي تنظر جهة زاوية العمود العالي صوب السقف المنقوش كستائر بأجراس: «ربما أثارك جمالهما.... لست الأول.... كل زائر جديد يتملكه الشعور ذاته، والسؤال نفسه عن علاقة الشكلين بالمقهى.... آسفة....! أوه.... !لم أقدم لك نفسي.... «سوزان أوغست»، ابنة «أوغست بولاي» رحم الله روحه، مبدع هذا الفضاء الجميل





والمالك الأصلي». مرتبكاً يمد يده للمصافحة وهو يقول متلعثماً: «تشرفت سيدتي.... تشرفت.... Madame ....ravi. أنا سالم الزموري... مغربي...» تردف قائلة منفرجة الأسارير وهي تضع كفاً على كف كتحية مواطن صيني: «وأنا.... أنا.... بكل تواضع.... صاحبة المقهى وأسيرها رفقة زوجي.... الصيدلاني «رونيه ماتيفا».... أتراه....؟ الرجل الذي يقبع هناك وراء المقصف.... هناك.... نعم هناك.... الذي يضع «شالاً» أسود حول عنقه....».

تلتفت جهة المقصف وعيناها توجهان النداء قبل اللسان، وتصيح: «إيه....! روني.... !روني....! تعال لتلقي التحية على السيد سالم...» ثم تنظر إليه وتسأله بفضول لطيف: «أي رياح أتت بك إلى باريس مسيو سالم...!؟ فيريد رفع التكليف كما تعلم من صديقه النورماندي «بيير» فيقول لها باحترام:

- سالم سيدتي... بدون سيد....!

فترد عليه وهي تبتسم بلطف:

- وأنا ناديني tout court «سوزان» كما يفعل كل الزبائن... فنحن هنا أسرة واحدة...

- حاضر سيدتي...

فتطلق ضحكة عالية وهي تقول:

- تقول حاضر وتقول! سيدتي...

- العفو... سوز....

- نعم بكل بساطة سوزان...

- العفو سوزان...

- هل أنت طالب....:؟

- نعم طالب دراسات في الأدب والحضارة الفرنسيين بالسوربون... دراسات عليا معمقة، أنا من المغرب.

- نعم... تبدو مغاربياً... سحنتك تشبه سحنة سكان جنوب البحر الأبيض المتوسط... سمرة غير غامقة، أنف ليس بأفطس، شعر لا هو بالمجعد ولا الناعم، الطول الفارع... ربما أنت مقبل على عقدك الثالث.

- سوزان...! نعم عمري سبع وعشرون سنة... لكن في بلدي لا تحكمين من السحنات والألوان على الأصول والجذور، في بلدي قد تجدين الزنوج ذوا الأصول الجنوب الإفريقية، والسمر الزرق من الصحراء الممتدة، وذوا البشرة البيضاء الشقر بعيون خضراء، وأكثرهم موريسكيون هاجروا من الأندلس، وعنصر هجين، لا هو أبيض ولا أسود، ويهوداً مغاربة تتفرق فيهم كل الملامح، وأمازيغ بملامح خاصة، تمتح من بين كل العناصر، فيهم السود والبيض والسمر والحمر والشقر، نحن خليط من الصعب الحكم على أصولنا من لون بشرتنا أو نعومة شعورنا ولون عيوننا... نحن المغاربة بكل بساطة...





- أوه...! رائع...! ومقنع... يعجبني حديثك...

ثم تلح على زوجها مسيو «روني» الذي كان في حديث ثنائي مع زبون على المشرب:

- يا «روني»... ! تعال لتلقي التحية على سالم...».

من بعيد يلوح لها بالانتظار لحظة، فتلح وقد بدت مستاءة:

- إنه من بلد صديقك ألبير... ألبير كامي... ألبير الجزائري...

يمسح «روني» يديه بمنديل، ويخطو نحوه بسترته الثلاثية، وقبعته ذات الحواشي، ويصافحه ويقول مبتسماً:

- يا سوزان ألبير ليس جزائرياً... هو فرنسي ولد ونشأ هناك...

- ولكنه جزائري الهوى، ويدافع عن الجزائر...

يقاطعهما صوت أنثوي رقيق فيه بحة بكاء محتبس:

- عذرا مدام سوزان... أبحث عن شاب اسمه سالم...

تنظر مدام سوزان إليها باستغراب وتقول وهي مبتسمة:

- نتاليا...! أيها الجميلة...! كيف حال أمك دوروتا...؟

بحياء، تصوب الفتاة الشقراء، عينيها الخضراوين، صوب سالم وتقول وهو تطقطق أصابعها:

- إنها بخير ... غير ... أنها...

تحاول مدام سوزان أن تنتشلها من حرجها وتقول لها بلين وعطف وهي تشدها من يدها:

- ما بكِ يا نتاليا...!؟ تعالي... يا حبيبتي...!

- لا شيء مدام سوزان...

- أتبحثين عن سالم!؟ ها هو يا صغيرتي...! أظنك احتفلت بعيد ميلادك العشرين السنة الماضية....

- نعم خالتي سوزان، عيد ميلادي الثاني بعد العشرين، في الواقع أريد أن أعتذر للسيد سالم من تصرف أمي...

- ماذا فعلت مرة ثانية هذه الحمقاء...

مرتبكاً ينتصب سالم واقفاً ويرد عليها:

- لا بأس...! آنستي...! لا بأس...!

ثم تنخرط الفتاة بالبكاء، وتمسح مخاطها من شدة النحيب بمنديل قدمه لها السيد روني وهو مستاء وحزين، تسوي منديل رأسها على الشعر الأشقر دون الناصية المتمردة، وكانت قصيرة القامة دون عيب، بيضاء البشرة، ممتلئة اللحم دون سمنة، فالبطن مستو، والخصر ضيق، خفيفة العجيزة، جميلة الوجه المدور، ترتدي تنورة «الجرس» السوداء الطويلة ذات الثنايا المتموجة، تتسع متقدمة من الخصر إلى الساقين الملفوفتين في جوربين مخمليين





شفافين، وتنتعل حذاء قصير الكعب، تضمها مدام سوزان وتقول لها بلين وحنو:

- لمَ تبكين يا صغيرتي...؟ أمك حمقاء والرب يسوع...! ماذا فعلت من جديد لتبكيك فهذا الصباح...؟

- أمي...! يا خالتي أحرجتني مع السيد سالم، وشتمت العرب... عادت بدون بضاعة هذا الصباح، وحين سألتها، لم ترد علي، فقط أغلقت عليها غرفتها كالعادة، وحين خرجت للتبضع عند السيد «ماسين» علمت منه الحكاية...

يمرّ السيد «ماسين» إلى الداخل، ويلقي التحية على الجميع ويقول محرجاً يسرع النطق حتى يوشك أن يصيبه عي بلا حسر نطق خلقي:

- يا سالم...! هذه ابنة تلك الحمقاء... وهي عربية شامية... وقصة أمها... مع ... زوجها العربي... فعلاً... تركت في قلبها جرحاً عميقاً...

يرد سالم مبتسماً:

- والله نسيت الأمر فور دخولي المقهى...

تضمها مدام سوزان إلى صدرها، وتربت على ظهرها بمواساة لها وهي تردد:

- لا عليك... تلك البولندية خرقاء... والرب يسوع

المسيح... ولو كان أبوك هنا ...لما صارت على ما هي عليه... البولنديون طيبون، وهذه العجوز تخلط الأمور أحياناً كثيرة...

يردف سالم وهو لا يعرف ماذا يقول:

- لا يهم... لا بأس...! آنسة نتاليا...!

تنظر مدام سوزان في عيني الفتاة وهي تشبك أصابع يدها كأنها متضرعة بعطف ورأفة، وتقول لها:

- أوه...! فعلاً... لم تنس ولم يندمل أبداً جرحها... ولا أعرف هل من حزنها وحبها له أم من كبرياء خدش....مسيو ماسين ... سامحني... رجاء... لكن سمعنا هذه القصة مليون مرة، عن الرجل اللبناني الذي اسمه....

- صليبا ربيع.... يا خالتي...!

- نعم ... هجرها بعد ولادتك بسنة، والحقيقة... أنه خرج ذات صباح ولم يعد... من يدري ماذا وقع له في ذاك اليوم... ومنذ ذاك الحين عممت كرهها على كل العرب...

يصر السيد «روني» على أن يشرب «ماسين» فنجان قهوة معه قبل أن يعود إلى محله:

- اجلس... قهوة إكسبريس يا بول... لماسين... كنت أقول لسوزان إن ألبير كامي ليس جزائرياً... جزائرياً... أفهمتني...

يفكر لحظة «ماسين» ويقول:





- جزائري الولادة والنشأة... فرنسي الهوى...

- ماذا تعني بذلك؟

يشعر السيد «ماسين» بالإحراج ويرد متهرباً من الجواب:

- أعني أنه فرنسي أكثر منه جزائري، ولن ننتظر منه الكثير...

ثم يرمي ماسين بكرة اللهب في ملعب سالم:

- أتتفق معي يا سالم....!؟

فوجئ سالم بسؤاله، لكنه تخلص منه بذكاء:

- موقف كامي من المذابح التي ارتكبها ستالين باسم الشيوعية واضح، وأظنه سيكون إلى جانب مطالب الشعوب العادلة.

ينتفض «ماسين» واقفاً وهو يقول:

- لا أعتقد ذلك يا سيد سالم...! قد لا يكون مع صف المطالبة بالاستقلال... ربما يكتفي على عادته بمطلب الإصلاح دون استقلال....

مستغرباً... يرفع «روني» حاجبيه، وتتقلص خطوط جبينه وهو يقول:

- أنتما تتحدثان كأن في الجزائر ثورة قائمة، والوضع هادئ

هنـاك... ولا شيء يـؤشر عـلى حركـة للتحـرر لا خفيـة ولا ظاهـرة، أظننـا خـارج الموضـوع...

وضـع «ماسـين» يـده عـلى كتـف «نتاليـا»، وربـت عـلى يدهـا، ثـم خرجـا معـاً، والشـابة مـا زالـت متأثـرة حزينـة، تنتحـب بـألم، تمسـح دموعهـا وهـي مطرقـة الـرأس، يوشـك نشـيجها أن يغـدو نحيبـاً.

قبـل أن يدبـر «روني» هـذا الصيـدلاني عائـداً إلى المقصـف، يـودع سـالماً بحـرارة لكـن في عجلـة مـن أمـره، ويـردد دون أن يتوقـف عـن الهرولـة :

- فطـورك اليـوم عـلى حسـاب الـدار... مرحبـاً... أتمنـى لـك يومـاً سـعيداً.

يبتسم سالم ويرد:

- Merci.... Merci beaucoup.... Enchanté monsieur

شكرا... تشرفت سيدي...

جلسـت مـدام سـوزان معـه عـلى الطاولـة مستأذنة، ومبـاركاً هـو غـير ممتنـع بلطـف بهـزة مـن رأسـه، ووقوفـه لهـا وهـو يفسـح لها المسـافة بـين الكـرسي والطاولـة بحركـة نبيلـة ولبقـة، منفرجـة الأسـارير، طفقـت تسـوي عـروة منديـل رأسـها حـول عنقهـا، و قالـت وهـي تشـير بسـباتها نحـو أعـلى العمـود:

- أرى أن هذيـن التمثاليـن يشـغلان بالـك، سـتفهم قصتهـما بعـد قليل...





درات عيناهـا في محجريهـما، وهـي تنقـل النظـرات مـن مـكان إلى مـكان، ملتفتـة في دورة تـكاد تكـون كاملـة، وقـد ارتسـمت عـلى وجههـا عـلى حـين غـرة علامـات عابـرة وسريعـة مـن القلـق والضجـر خلافـاً لطبعهـا:

- أوف...!«جـاك...!»... أيـن أنـت يـا جـاك...!؟ أيـن أنـت...!؟

يقاسـمها سـالم قلقهـا رغـماً عنـه تداعيـاً وتأثـراً، وهـي تكنـس الفضـاء بحثـاً دقيقـاً عـن هـذا المسـمى «جـاك»، ظهـر بعـد برهـة شـاب أنيـق، يبـدو أنـه تجـاوز العشريـن بقليـل، كان وسـيماً معتـدل الطـول، قليـل اللحـم دون دقـة نحافـة، مقصـوص الشـعر الناعـم الملمـع، حليـق الوجـه، يرتـدي سـترة رماديـة بـلا ربطـة عنـق، تحتهـا كنـزة صوفيـة خفيفـة بيضـاء، بياقـة ثلاثيـة الزوايـا، لم تحجـب القميـص الأزرق المفتـوح الأصـداف حـول العنـق، دنـا منهـما متهالـكاً وهـو يهـز رأسـه مبتسـماً، يعـذب علكـة بقـوة بـين شـدقيه، وينظـر إلى سـالم بزاويـة نظـره، يـد غابـرة في جيـب سـترته، وأخـرى منشـغلة بتسـوية ملابسـه في هـوس غريـب هـو يميـل إلى خـد أمـه مقبـلاً ويقـول:

- صباح الخير... نعم... ماما... maman.... Oui...Bonjour

مشرقـة الوجـه دون أن تغـادر ثغرهـا ابتسـامتها الجميلـة الهادئـة، تشـبك أصابـع يديهـا اللتـين ترفعهـما كأنهـا متضرعـة في صـلاة فرديـة، ونظرهـا مركـز نحـو وجـه ابنهـا، وتقـول بلطـف وحنـو:

- تعـال... يـا جـاك.... ! سـالم...! هـذا ابنـي جـاك، جـاك...! هـذا سـالم طالـب بالسـوربون...

يقف سالم ويحييه بأدب ولباقة ولطف ابتسامة:

- تشرفنا.... مسيو جاك...

- جاك فقط... رجاء بدون تكليف...

- نعم جاك...

- كل الشرف لي.... يا سالم...!

ثم تحض ابنها على الجلوس على طاولة سالم وهي تقول مدنية برأسها منهما:

- أنت يا سالم...! شغفك المكان قد رأيت في عينيك الدهشة، جميل.... لا بد أن لديك أسئلة عديدة، وأنت يا «جاك» تملك الأجوبة والتواصل بينكما ممكن... فأنتما من جيل واحد...

ثم تنظر إلى وجه سالم وتردف:

- تقريباً...! ويه...! تقريباً...! ما دام الفارق لم يتجاوز عشر سنوات... هل أنتما معي...؟

ابتسم «جاك ماتيفا» وهو يقول:

- نعم ماما... من يستطيع ألا يتفق معك.

تضربه ضرباً خفيفاً على كتفه، وهي تردد مستاءة:

- ماذا تقول يا أحمق...؟

يضحك، ثم يرسم قبلة على خدها ويقول بلين:





- أنا أمزح يا ماما...

مستاءة دون أن يودع محياها ذاك الضياء من فرح عفوي غير متكلف تقول مغمغمة مشيرة له بسبابتها وهي تنصرف

- المهم... كن مفيداً... أسمعت...؟

- حاضر سيدي الزعيم... Ok Boss...!

دنا بوجهه من وجه سالم وهما متواجهان على الطاولة نفسها، وقال بعدما انصرفت مدام سوزان دون أن يريح العلكة، ولا طاحونة شدقيه:

- الأمر ليس سراً.... ماذا تريد أن تعرف...؟

- لا شيء... فقط...

- أوكي... سأختصر... لهذه المقهى تاريخ طويل من التحدي والنضال، وهي علامة على تحقق الطموح بالإرادة القوية، كما تعلم... فضاء رحب للفكر والأدب والفلسفة، وهناك جائزة سنوية باسمها منذ سنة ١٩٣٣، فاز بها السنة الماضية السيد «جون ماساريس Jean Masarès» عن روايته العظيمة «مثل بجعة الصحراء»... وفكرة هذه المقهى انبثقت في عقل جدي «أوغست بولاي»، عندما اشترى الفضاء بأربع مائة ألف فرنكٍ... طبعاً بقيمة زمن ١٩١٤، كانت تعد ثروة، كانت مجرد مشرب للمشروبات الكحولية، لكنها كانت لسنوات، منذ ١٨٨٤ الحانة المفضلة لشعراء كبار من طينة: «أرتير رامبو» و«ستيفان

ملارمي» و«بول فيرلان» وبدءاً من ١٩١٤ اشترى جدي المقهى التي أفلست، وله الفضل فيما ترى من طاولات وتغطيات من خشب الأكاجو، والحفاظ على التمثالين اللذين يحرسان المكان منذ ١٨٨٤، وهذا الفضاء كان في الماضي محلاً لبيع أنفس الملابس والأثواب الحريرية الصينيتين ذات الصيت الباريسي العالي، كل جديد في عالم الألبسة الحريرية الراقية كان يباع هنا، إلى أن تم تحويله إلى أجمل مقهى أمام كنيسة القديس سان جرمان المروج... والآن قل لي ماذا تدرس....؟ أنا أتابع الدراسة من أجل الحصول على دبلوم مهندس في الأشغال العمومية، وحينها عندي بعض الأفكار يمكن تطبيقها لتطوير الفضاء وتوسيعه.

رشف سالم من فنجان قهوته وقال:

- أنا طالب بالسوربون ... أدرس «الأدب والحضارة الفرنسيين» كما سبق وقدمتني مدام سوزان....دراسات عليا معمقة...

انتفض «جاك» وقال بحماس:

- هذا جيد... المكان يناسب الطلبة أمثالك، قد تصادف السيد جون بول سارتر، ومدام سيمون دي بوفوار، إنهما يجلسان طول النهار، أمام فنجاني قهوة، ولا يتوقف السيد بول عن تدخين غليونه أبداً... اجعل من هذا المكان قبلة لك يومية...! ستتوسع آفاقك... والآن... أعذرني... أنا مضطر للذهاب... لا تؤد شيئاً .... الفطور على حساب الدار...



ابتسم سالم ورد عليه:

- سبق أن أعلن عن ذلك أبوك.... شكراً...

وما إن اختفى جاك حتى عاد سالم إلى شأنه الذي أرقه، فبالأمس بعدما تسكع ودومنيك في شوارع باريس، قررت أن تقله إلى شقته في آخر الليل، وأصرت أن تصعد معه حتى باب الشقة، وفي غفلة منه حشرته بقوة وعنف غريبين لأول مرة في زاوية على ردهة السلم، وقبلته قبلات ساخنة متوالية، ثم انسحبت متهالكة وهي تلتفت إليه بدلال وفتنة، وتركته في حيرة من أمره، فما إن استلقى على سريره حتى طوقته الأسئلة تلو الأخرى، فما زال على حاله موزعاً بين أثر نشوة شفتيها على شفتيه، وأثر الصدمة في دواخله التي اضطربت وما رست سفينتها على أمواج التوجس العاتية حتى اللحظة، وإن شغل زمناً بالحديث مع سوزان مدام المهذبة وزوجها الصيدلاني مسيو روني اللطيف الكريم، وجاك ابنهما الخلوق المنفتح دون تعصب ولا عجرفة، والفخور بمجد أسرته الذي أسسته من عرق جبينها بدءاً بالجد النادل «أوغست بولاي» الذي أبدع فأمتع، واستغرب أن تكون «نتاليا» فرع من شجرة دوروتا، لكن التمس الأعذار لامرأة مجروحة الكرامة، وربما منكسرة النفس، ومتشظية القلب من حب مازال عالقاً بشغاف روعها.

بات هذا الشاب المغربي القروي التربية والتنشئة، بتوجس مما وقع، وإن ترعرع في دعة عيش ورغد حياة ونعمة واسعة، فقد

ظلت ظلال التربية الصارمة تخيم على علاقاته بالمرأة، وهو لا يجيد لا المغازلة ولا الإطراء على الجنس الناعم إلا شعراً بينه وبين نفسه. ها هو في مقهى الشغف والمعرفة والفن، ينصت لمعزوفة قبلاتها الساخنة الملتهبة الأخيرة ويستحضر بخجل وتأنيب ضمير قاس كيف سامر طيفها على سريره الذي ألهبته أصداء قبلاتها، وكيف تمطط كقط خامل تحت غطائه الناعم المحرض للنزوة، وكيف غدت الوسادة وجهها الشهي وجسدها الناعم الطافح بالأنوثة الفتاكة، والغطاء نفسه أوشك أن يتشكل شكلها وبشرتها في لحظة استيهامات جامحة...

ينظر جهة المقصف، ملتفتاً صوب الصخب الذي أثار وشد انتباهه، يظهر له فنان تشكيلي تجاوز الثلاثين من عمره بقليل غزيز الشعر، كلاسيكي الهندام، سترة بربطة عنق، بدون لحية، وشعر بقصة إيطالية لامعة ناعمة، يحمل لوحة مغطاة بثوب أبيض، وفي عينيه الدهشة وبريق الريبة، يكشف عن اللوحة أمام الجميع، تضع مدام سوزان يدها على فمها من الذهول، وتردد: «ما هذا الجمال... يا موريس!» يتفحصها كهل بقبعة سوداء وسترة طويلة رمادية خفيفة، وغليونه يتأرجح بين شفتيه، ويعض عليه من حين لآخر بأسنانه من ثقله خشية إفلاته، يرخي نظارتي القراءة على أنفه الرقيق، يطيل النظر بتمعن، يهز رأسه، يدبر بظهره لحظة ليشعل غليونه، والرسام الشاب، يترقب رأيه وقد انقطعت أنفاسه، يقول له متحمساً « ما رأيك مسيو شارل....؟».

يصمت مسيو «شارل»، يكاد عقل الرسام المتحمس أن





يطير قلقاً وتشوفاً للرأي الحاسم، يكاد يفقد صوابه، وعيناه تدوران في محجريهما وترقبان بتوجس ينتظر، ينتظر... يطول صمت شارل، ومعه كل جماعة المثقفين والمفكرين والحواريين تنتظر في لهفة عكستها تعابير وجوههم المتقلصة والمنبسطة في تواتر وتناوب سريع، حتى أشفقت مدام سوزان بنظراتها من حاله وعليه، ثم يقف «مسيو شارل» وجهاً لوجه أمام الرسام، ينظر في عينيه لحظة، يجره إلى حضنه، ويضمه بكل قوة ويقول: «الآن وجدت أسلوبك يا موريس لوحة رائعة... يا موريس...». ينشرح موريس برأي الناقد، فيرفع نخباً للجميع، ويقول: أنا «**موريس بواتي**»، أخلد هذه اللحظة... بتقديم كأس للجميع... للأصدقاء... ولكل من حضر هذه اللحظة التاريخية... ذكرى لوحة «A l’arrière de l’église »، فينضم إليه الكثيرون، وهم يعبرون عن الإعجاب باللوحة صخباً وتصفيقاً وبتعابير حماسية، تعكس الدهشة والنشوة، وشغباً جميلاً وهم متحلقون حوله، وبحركات بالرأس والأيادي والهمهمات، فباركوا ما رأوه فناً جديداً، معلنين عن ميلاد فني جديد، ورسام مبدع آخر بباريس.

لم ير سالم من لوحة «ما وراء الكنسية» غير كنيسة في عالم ريفي، متوارية وراء أشكال جميلة بسيطة، وتوقيع محبر في سنة ١٩٤٧، ولم يفهم علة الفرق الزمني بين توقيعها وإشهارها، لكن نزوات ووساوس الفنانين، وأمزجتهم المتقلبة، وقراراتهم الغريبة المفاجئة، معروفة بين أوساطهم وعند أصدقائهم، لم يكن هو

على إلمام كبير بفن الجمال ثقافة ومعرفة واصفة، ورغم ذلك لا يفوت على نفسه فرصة السحر هذه، ويكتفي بهذا الجمال المنساب في سلاسة من اللوحة، هذا الجمال المعلن عن نفسه للعالم بلا نظرية ولا شغب في كواليس المعارض والنقاد، يتوقف سالم عند مفاصلها ليفكك جمالها في الألوان والطبيعة والضوء والأبعاد، فينتشي بعفوية معالمها دون تكلف ولا تعقيد.

تحضر على حين غرة في خلده لوحة «الموناليزا»، التي تختبر ذوقه وشهيته الفنيتين، وتتحدى فهمه ووعيه، فتفضح ضحالة معرفته الجمالية، ويدبر عقله دوماً هرباً من سؤالها المحرج الحارق له «أين تتجلى قيمتي الفنية والتاريخية...؟» لحد الآن، لا يفهم من أين تأتي شهرة بعض اللوحات ذات الصيت العالمي، فيتهم ذوقه حتى لا يفتح على نفسه جبهات حروب مجانية، ويبرئ ساحة النقاد وسماسرة الفن. كم يخشى أن يقول لدومينيك التي تهيم تفتخر بفهمها النقدي للجمال الكوني، رأيه في تحفة «دافنشي» وفي تكعيبية «بيكاسو» التركيبية، فهو يعتبر أن المرحلة الوردية هي أزهى وأجمل مراحل بيكاسو، والتكعيبية شرخ في الروح من آثار الحرب انعكس على الرؤية والوجود، فجاء الجمال مشروخاً متشظياً، لكنه يصمت كعادته، لا يريد أن تكون آراؤه متطرفة نشازاً ضد التيار، ضد المتفق عليه، وإن كان يؤلمه بصمت عدم فهمه لأسرار كثير من اللوحات التاريخية العالمية الصدى والسمعة.

يناجي نفسه، «لمَ علاقته بدومينيك ملتبسة...؟» يعي جيدا أنه متردد في علاقته بها، منحاز لعقله المتوجس، قامع لتلك الرغبة





المتربصة بضعفه، وقد تكون فاتورتها غالية جداً، هل ينتظر خطوة أخرى منها!؟ القبل الساخنة لا تمنحه جواز المرور إلى خرائطها، هكذا قال له صديقه يوما «بيير» القادم من منطقة «بروتون» الفرنسية: «إن قبلتك يوماً لا تطمع في الكثير حتى تؤمن الطريق، لا تتسرع...! لا تكن أحمق... ! لا تطلق يدك في مفاتنها إلا حين يحين الوقت، ستفعل هي... ستبادر هي... عليك فقط ألا تفوت الفرصة، أن تنتظر... أن تتربص بالفرصة حين تتاح... فحين تدعوك لفنجان قهوة وأنت توصلها ليلاً إلى شقتها، فاعلم أنها دعوة صريحة، لما بعد القبلة الساخنة...».

سالم يثق ويصدق صديقه «بيير» لأنه قروي ريفي مثله، وفرنسيته ذات لكنة هجينة، ويتكلم لهجة غريبة، ولم يكن يدري أن من الفرنسيين من يتكلم لهجات هجينة، بكلمات غريبة غير اللغة الباريسية الفصيحة، هذا الشاب «النورماندي»، السمين في قصر بين، تكاد لا تميز قفاه عن ظهره من تراكم اللحم في شكل طبقات كأنها من عجين خمير، كثير الالتفات بلا سبب، بعينين ضيقتين بنيتي الحدقتين، في وجه دائري معتصر الدم، دائم الحمرة في انتفاخ بيّن، كمن يعاني من حساسية مزمنة، ويزداد الاعتصار لكل مجهود ولو كان بسيطاً، ربما احتساؤه للنبيذ دون إفراط ولا سكر طافح، خلافاً لأكثر الفرنسيين العاشقين للجعة نهاراً، يربو له الوجه كالعجين المنتفخ، تكاد تسمع أنفاسه وهو يتحدث، كأنه يخرج الكلمات من أنفه الضيق المنخرين، بين شفتين رقيقتين تتقدمها الثنايا البارزة دون عيب كبير والفكين العريضين، وكانت

قدماه عريضتين، لا يطيقهما أي حذاء، حتى تتفجر الفردتان عن حواشي النعلين من ضغط مستمر، لذا كان يفضل أن يشتري أحذية أكبر حجماً من قدمه ليعوض العرض، تسلل إلى رأسه صلع مبكر، لم يترك له إلا جزيرة زغب أشقر في مؤخرة الفروة، وهو من عائلة راقية أرستقراطية الأصول، وأبوه ناصية قومه، تحول مع الزمن إلى الزراعة الصناعية، وقد كان ظهيرا للمقاومة الفرنسية أيام احتلال النازية للمنطقة، فساهم مشاركة فعالة في إنجاح عملية «نبتون» وكان من بين جنود الحلفاء عند الإنزال، ولعب دوراً رئيسا في عملية التضليل التي سهلت سحق القوات النازية بالمنطقة، جواً وأرضاً، وهو مزارع كبير محافظ، يملك أراض شاسعة في سهل «**كاين**» يزرع أكثرها حبوباً وشمندرا وبازلاء.

نشأ «بيير» وسط هذه الأسرة ذات المجد القريب، في مدينة «كاين»، «Caen» مدينة المائة جرس، لا تفوته الصلاة الجماعية والإنصات إلى الموعظة الأسبوعية، ولا يتخلف عن «قداس» يوم الأحد كيفما كانت الأجواء والظروف، في «كاتدرائية نوتردام» الواقعة في قلب باريس على ضفة نهر السين، وهو الذي جال بسالم بحماسة وسخاء شوارع وأزقة وجسور وبروج مدينة الأنوار، وكان سالم يعتقد أن صفة الأنوار لصيقة بها لأنوار نهضتها وصخب حياتها ليلاً، لكن «بيير» صحح له الفكرة قائلاً باعتداد لا يشوبه رغم ذلك خيلاء ولا تكبر: «سميت بمدينة الأنوار لأنها





أول مدينة في وقت مبكر أطلقت نظام إضاءة الشوارع، ولكونها عاصمة الثقافة والفكر في عصر الأنوار».

بفضل هذا الشاب النورماندي ذي العشرين سنة وأربع، غدت باريس مألوفة تقريباً، فقد أخذه ذات أحد إلى هذا الصرح الكبير لكاتدرائية «نوتردام» أو السيدة العذراء، فسحرته بجمالها ومعمارها، واستمتع بالمعمار الفريد لطرازها القوطي، وزخارفها الرائعة، والتماثيل التي تكاد تتراقص في عيونها حياة من جمال وطهرانية، وقدسية طافحة في خفاء، ووقف مذهولاً أمام الزخارف الرائعة التي تزين الجدران، والفسيفساء والزجاج الملون المزينين للنوافذ العجيبة، وسقف الكنيسة المقوس الشكل بمهارة صانع وبراعة مبدع، وجمال أصابع فنان حاذق.

«بيير» مدرسته الأولى في المجون والصخب، أخذه معه في مغامرات ليلية صاخبة إلى مواخير الدعارة والبغاء، وعلمه اللذات السريعة لمومسات الطرقات، وهو يردد بثقة: «لابد أن تطفئ من حين لآخر جمرة الشهوة حتى لا تضعف، فترتكب حماقة من الحماقات وأنت مع «دومنيك»، وحتى تنجلي عن عينيك غشاوة النزوة العمياء، فتنتبه لدروسك... الحرمان صعب يا صديقي...! وقد يشوش عليك عقلك ويعوق مسار دراستك».

كان بإمكانه أن يقول له إنه يختلف معه اختلافاً جذرياً، فهو يرى رأي «سيغموند فرويد»، في وظيفة الحرمان والكبت الجنسيين، فقد يؤديان إلى انبثاق موهبة نادرة في الإبداع والخلق

الجماليين، بالتسامي والتعويض النفسي، فالطاقة الجنسية المحتبسة قد تتحول وقوداً للهب الإبداع، وجذوة لنار الموهبة الخلاقة، لكنه صمت سكوت العاقل المحافظ على أصدقائه، وترك صديقه ينتشي بفتوحاته تلك الليلة الماجنة، تركه يسقط ملكه متعمداً الخسارة على طاولة شطرنج الحياة، فأحياناً تساوي الخسارة نصراً كبيراً.





## ٤

لم تظهر دومنيك في حياته من جديد، غابت شهوراً طويلة، حتى أيقن أن ما أقدمت عليه تلك الليلة على السلم مجرد نزوة أو حماقة من حماقاتها، أو شغب من تجليات فوضاها، وحمد الله أنه لم يخط أية خطوة جريئة يؤدي ثمنها اليوم، وهو الذي لا يتردد في التفكير في كل خطوة قبل الإقدام عليها، فحين يكون معها، يداهمه الشك والتردد المجهضين لكل جسارة مفكر فيها من لدنه، ينتابه التوجس الجاثم على أنفاسه، الذي ينهك عقله القلق سؤاله المؤرق: «لِمَ اختارته هو من بين كل هؤلاء من «الهبيين» والمتمردين والفوضويين، لتكون معه حين تريد لملمة فوضاها، والبوح بآلامها، والعبث بعيداً عن رقابة ما تسميهم التافهين، كأنها فتاة من السنوات المجنونة «les année folles»؟! سنوات العشرينيات، بعثت من جديد بكل عبثها وأعراسها، لكن في ثوب جديد يلائم سنوات الستينيات» وغيابها لهذه المدة، أثبت صدق توجسه، فمن يحب لا يطيق الغياب، ومن يعشق لا يتحمل حتى مجرد الالتفات بنظره بعيداً عن وجه الحبيب.

اعتاد سالم الجلوس بمقهى «les deux magots »، وغدا يتردد عليها باستمرار، أحيانا يقاسم «جاك» جعة، أو يتجاذب أطراف

الحديث مع «روني» و«سوزان»، وبين الفينة والأخرى يجالسه «ماسين» البقال الجزائري، فيتقاسمان الحنين ووزر الغربة، مؤخراً غدا «ماسين» يأتي كثيراً برفقة «نتاليا» يجلسان بعد الغروب، في طاولة منزوية في عمق المقهى يشربان الجعة، يتهامسان ويده على يدها، أو أصابع يديهما مشتبكتان، ويضحكان بأصوات عالية، ينقطعان عما حولهما حتى يختلسا قبلة بين الفينة والأخرى.

في مطلع الربيع، حضرا معاً ذات مساء، وهو يشدها فرحاً من يدها كمراهقين نزقين يهتزان من نشوة مبهمة المصدر، وقف «ماسين» على كرسي كخطيب على منصة، وضرب بملعقة على كأس بلوري حتى ارتفع رنينه كرنين جرس بشدة، والفتاة إلى جانبه مطرقة الجبين بحياء ملتبس وقلق عكسته عيناه اللتان هربتا من المشهد وهما يكنسان السقف، باضطراب واضح لا يعرف هل هو من خجل أم من شعور آخر، فقال مبتسماً وهو منتصب القامة كفارس من القرون الوسطى: «أيها السادة! ستشاهدون اليوم أعظم حدث في حياتي، ستكونون شهداء على رفع ستارة حياة جديدة مليئة بالوفاء والسعادة، لحظة من فضلكم»، التفتت إليه العيون وفشت الهمهمات والهمسات، وبدا الكل مترقباً للحظة بوح استثنائي، ثم جثا على ركبتيه أمام «نتاليا» التي احمرت وجنتاها خجلاً أو ربما قلقاً، ورمشت عيناها بسرعة غريبة، ففتح علبة حمراء بها خاتم زواج وقال برومانسية طافحة:«أتتزوجينني يا نتاليا...!؟» عمّ صمت المقهى، والكل موقن من تجاوب الفتاة الإيجابي حتماً ويقيناً، طال الانتظار، فزادت حدة الهمهمات،



وصار الالتفات بين الزبائن محرجاً يسائل الفتاة في تلكئها، والفتاة غارقة بارتباك واضطراب، طقطق أصابعها، تسوي منديل شعرها وهو مسوّىً أصلها، وتفك عروته وتربطها مراراً بشكل آلي رتيب، فارتفع صوت مدام سوزان «نعم... نعم... وي... وي...» ، فتداعت الحناجر لصوتها متحالفة في النداء والرجاء في إيقاع منتظم على نقر الطاولات وخشبة المشرب «وي... وي... نعم... نعم...oui... oui ...oui...» التفتت «نتاليا» إلى الوجوه بقلق واضح، فسقطت دمعتان ساختتان على خديها، وهرعت إلى الخارج منتحبة، أمام ذهول الكل وصدمة «ماسين»، الذي ظل شارد الذهن للحظات، يحاول عقله أن يفهم ما حدث، جلس على المشرب وثمل تلك الليلة بصمت وحزن عميق، ووحدها مدام سوزان، كلمته للحظة، وهو مطرق الجبين، منكسر بحزن عميق. منذ تلك الليلة لم يلج الحانة، ولم تطأ قدماه عتبتها، ولم تظهر معه «نتاليا»، وغدا حزيناً يلفه الصمت واللبس، كأنه في غيمة كآبة مستمرة، يلعق جراح كبريائه أو يلملم شظايا قلبه المنفطر، منذ تلك الليلة اختفت ابتسامة البقال، وحلت محلها ملامح شيخوخة قبل الأوان، وما شوهد بعد ذلك، إلا وهو يصلي، أو يعد حبات السبحة بوجوم ظاهر.

وتمر الشهور تئد الخيبات عند البعض، وتؤجلها عند البعض الآخر، تبدد الآلام والأتراح بالنسيان في صدور البعض، ويطول زمن الانكسارات في قلوب البعض الآخر، ويحل زمن غير متوقع عند قلة لانتصارات وفتوحات وأعراس لا يصدقونها هم أنفسهم،

وباريس تستقبل شهر يونيو بصخبها المعتاد، ومناخها غير المستقر، فما بين الصباح والمساء، تقفز الحرارة ست درجات، لتعانق عند الأصيل الواحد والعشرين درجة، وقد تشهد تساقطات من حين لآخر.

صارت طاولة سالم بالمقهى على العمود تحت التمثالين شبه محتجزة، ونسي أو تناسى «دومنيك» عملاً بنصيحة صديقه النورماندي: «تجاهلها كما تجاهلتك، يبدو أنها تريد التلاعب بعواطفك، يا أخي...! ربما تعتبرك مثل صورة «كارت بوستال»، مشهداً فولكلورياً، أدباً شعبياً، تثير فيها الدهشة والعجب والسحر، حتى إذا شبعت من نشوة العجب، غيرت الصورة السياحية... انسها...! وفكر في غيرها...!».

بسط كتبه على الطاولة «الأكاجاوية»، وطفق يتصفحها والقلم يدون ملاحظاته، زحفت فجأة سحب يونيو المباغتة نحو باريس، وبدأ وابل مطر عنيف يغسل النوافذ، وهو منتش بصفير الريح وهي تعبر الشقوق والشروخ، عزم سالم الليلة على أن ينهي هذا الفصل الممتنع من بحثه الجامعي عن «بودلير»، يتردد في ترجمة عنوان الديوان وتصور المعنى في العقل، أهي أزهار الشر أم أزهار الألم؟ هذا ما يخشاه، فالشعر عنده لا يترجم، ترجمة الشعر جريمة، فضيحة، مذبحة في حق الجمال، بين معنيي الألم والشر، حضرت صورة «دومنيك» رغماً عنه، وقد انتابته أحاسيس ملتبسة، فهو نفسه لا يستطيع أن يميز مشاعره اتجاهها، فلا هو بالحزين لغيابها ولا هو بالسعيد ببينها، تلاشى الشوق نهائياً، أهو الشوق أم



الشبق؟ لا يعلم، ربما انتهت هذه العلاقة الملتبسة بأقل الخسائر، «شكراً صديقي «بيير...» أنت مدرسة». هكذا ناجى نفسه بسكينة وراحة وهو يستحضر مواعظ الشاب النورماندي.

قبل أن يغادر شقته نحو المقهى هذا المساء وهو واثق، نظر في المرآة ليرى هذا الوجه الأسمر بصفاء، وهذين العينين الضيقتين السوداوين الحدقتين، تحت حاجبين كثيفين غير أقرنين، وهذين الكتفين العريضتين، وهذا الأنف الدقيق المنحني باستقامة، وهذا الفم المعتدل الأبعاد ذا الشفة السفلى المرتخية، وأسنانه البيضاء المتراصة، وطوله الفارع دون غلو معيب، وتسريحة شعره الناعم التي لا تختلف عن قصة الباريسيين، ورأسه الصغير مع ضمور وبروز عظام الوجه، ابتسم للمرآة وردد بزهو مناجياً نفسه: «ههه....! يا سالم...! ثق في نفسك...! ستأتيك فرصتك... فأنت لا ينقصك شيء...».

معزوفة المطر على نوافذ المقهى بين وقع الوابل وإيقاع الرذاذ في تناوب جميل، يدمع لها الزجاج وسقائف وقوف الحافلة، فجّرت فيه الحنين إلى البلد، والغريب أن المطر ورائحة التراب يحملانه بقوة خيال بدهشة داخلية وانتشاء إلى حياة الطفولة والصبا ومشاهد الماضي الحزين. وضع ديوان «بودلير» جانباً، وسرح في ذكريات مازالت طرية، واستحضر اليوم الممطر الذي حل فيه بباريس عند نهاية الحرب للدراسة هرباً من قائد مراكش والنواحي «الكلاوي» الشديد البأس، أو بالأحرى هربه أبوه منه ومن القائد «بوشعيب القرشي» القزم مقارنة بالقائد «الكلاوي»، اشتاق إلى الوطن، لم

تطأ قدماه المغرب منذ ست سنوات، تمنى لو أنه ربح معركته مع أبيه لضمه إلى مرحلة ما بعد عام ١٩٤٤ بالمغرب، وهو يحاوره في تلك الليلة الممطرة الباردة، ربما مطر الليلة هو الذي أنعش روح تلك الليلة الممطرة التي كانت حاسمة في علاقته بأبيه، تمنى لو انضم الأب إلى مرحلة الجهر بالمطالبة بالحرية والانعتاق، لو فعل ذلك ما هاجر ولا رحل، لكن أباه كان مصراً على خدمة القائد «بوشعيب القرشي» كخليفة له حتى الموت، بطاعة عمياء، يسميها إخلاصاً ووفاء للعهد والبيعة، فهو«الخليفة أحمد الزموري» بأولاد تايمة، وكان قد غدا اليد اليمنى الذي يبطش بها القائد بقوة وبلا رحمة، قسوة بلغت من الفظاعة والشناعة والهمجية أن خلط جثث قتلى وصرعى أعمال «السخرة» خلال بناء سور السوق بمدينة تارودانت تحت السياط، بطين بناء الأسوار والجدران.

يستحضر لحظة اندلاع شرارة الخلاف مع أبيه، حين حاول أن يوقظه من غفوته، ليرده بلطف وأدب يليقان بخلقه، براً بالوالد، إلى صف المظلومين المكلومين من البلدة، إلى صف الحرية والكرامة، لكن أباه «الخليفة» رأى أن المتمردين يستحقون القتل، لأن الفتنة عنده أشد من القتل، وبخروجهم عن الحماية الفرنسية، فقد شقوا عصا الطاعة، وعصوا السلطان المطاع، وبقتلهم سيأمن الناس، ويفشو الأمان على الطرقات وفي الأسواق، أما هو فشعر تلك الليلة الممطرة الباردة أن البلد حوله يتغير وأن النفوس بدأت تتوق للحرية والكرامة، ولكن أباه رأى أنه ما من قوة قادرة على إخراج فرنسا.



و تداعت له كل مشاهد المرحلة، ما قبل حلوله بباريس، حين احتفل مع من احتفلوا بوثيقة المطالبة بالاستقلال فجر ١٩٤٤، فغضب أبوه عليه أشد الغضب من إعلانه تأييده للوثيقة وهو ابن الخليفة «أحمد الزموري»، اليد اليمنى للقائد «بوشعيب القرشي»، فسجنه عله يتوب، وحرمه من إتمام الدراسة في مدارس أبناء الأعيان بأكادير، وكان مرشحاً أن يلتحق بسلك الضباط بالمدرسة العسكرية، فلم ينفع معه لا جلد ولا حبس ولا تجويع ولا ترغيب ولا ترهيب، حتى خشي الأب أن يهدر دمه القائد «القرشي» مقابل جائزة سخية.

وكان مصراً على موقفه، فتمادى وتجاسر فأدان وشجب واستنكر استبداد وظلم وجور أبيه والقائد على البلاد والعباد، وانتفض مع مجموعة من أهل «أولاد تايمة» ضد السخرة في ضياع المعمرين، وبشروا بثورة شاملة تحرر عبيد السخرة والشعب الربيق، فعُذبوا وسُحلوا وقُتلوا، فحار فيه أبوه وأعمامه، وكان أن اعتقل بعض طلبة مدرسة ابن يوسف بمراكش من الوطنيين، وتحت التعذيب الذي لا يطاق، ذكروا اسمه ضمن النخبة المتزعمة، فأرسل القائد «الكلاوي» إلى قائد منطقة أولاد تايمة «بوشعيب القرشي»، آمراً إياه بلهجة قاسية مهددة أن يربي هذا «البرهوش» الصعلوك ابن خليفته الذي عجز عن حكم «خيامه»، وتربية أبنائه، وأن يطفئ الفتنة القادمة من «هوارة»، فإن لم يقدر عليه أرسل إليه من يقطعه إرباً إرباً» ،فكاد الأب أن يبطش به، ومصاهرته «القائد القرشي» له، إذ تزوج عم سالم الأصغر إحدى

أخوات القائد القرشي القبيحة العانس، حدّت من أثر غضبة القائد الكلاوي، فدفعت به أمه لأخواله الأمازيغ الأشداء ذوي الشكيمة الشديدة، والهمة العنيدة، والعزيمة المتينة المقيمين في قمة جبل «آيت عبد الله»، فأرسلته خفية إلى الجبل، فسكت الأب عن الأمر ولم يسأل ونسيه، مادام قد غدا بعيداً عنه، لا يسمع له صخب ولا لغط.

وظل سالم على علاقة سرية بالحركة الوطنية، فخاف الأب أن تطاله يد القائد الكلاوي الذي لا يرحم أحد، وخشي على سمعته كخادم وفيٍّ لفرنسا والقائد القرشي، وخشي أن يفقد وضعه مما أسماه طيش ابنه، فقرر أن يرسله لإتمام الدراسة بفرنسا، بمنحة فرنسية سخية، ومنذ ست سنوات وهو هنا، تدرج في تعلميه العالي، حتى غدا قاب قوسين أو أدنى من الحصول على دبلوم عال يؤهله ليهيئ دكتوراه الدولة.

وحين عاد إلى ديوان «بودلير»، توقف بدهشة وانجذاب عند قصيدة بعنوان «إلى عابرة» فشدّته وسحرته المعاني والصور الجميلة، وإن كان لم يتغير موقفه من ترجمة الشعر التي يعتبرها جريمة، فهذا ما قرأه معنى لا مبنى:

حولي الزقاق الصاخب يعوي.
امرأة فارعة الطول تمشي
نحيفة تعبر في حداد غريب
يلفها ألم عميق مهيب



تهز وترفع يدها الباذخة
حاشية الفستان الإكليلية
تظهر ساقها كتمثال منحوت
في نبل دون تهتك في رشاقة
وأنا متوتر أرشف قهوتي
في فضول وعبث وانتظار
أرى في عينها سماء غاضبة
فيها يختمر الإعصار
فيها الرقة الناعمة التي تغوي
والمتعة الجامحة التي تردي

فعادت ما ظن أنه نسيها، بقوة وصخب تطفو على سطح الذاكرة، بابتسامتها المبهمة، وفجرت القصيدة مواعدهما الأولى، بمكتبة السوربون المتجهة، الرحبة الصارمة الرفوف والوجوه، حيث دشن علاقته بدومينيك في إطار علاقة مبهمة، غير واضحة الخرائط والهوى.

في الشتاء الماضي، من سنة ١٩٥٠ التقاها ضائعة جامحة بين الرفوف، متمردة النظرات والحركات، ربما هو من كان تائهاً بين العناوين والوجوه، يتذكر تلك اللحظة التي مد فيها يده إلى كتاب، فسبقته يدها الجميلة، كأنها من شمع أو مرمر مصقول، تحضره ابتسامتها الساخرة، الهازئة بعبث من كل شيء ، وينتعش في ذاكرته شكلها البوهيمي الغريب، فيجلي خلده بلا عائق مفاصل

الحدث، كأنه يعيشه بلا ثقوب ولا مساحات فارغة، يذكر أنه قال لها ذاك اليوم:

عفوا آنستي....! هذا كتاب لابن رشد... «فصل المقام لما بين الحكمة والشريعة من اتصال».

لم ترد عليه، تجاهلته متعمدة، حتى شعر بإهانة وبخدش في كبريائه، فلوح بحركة بيده تنم عن ضجر واستياء ومضى، يكشف عن الكنوز المرصوصة بصمت مقدس رهيب، ثم تقاطعا من جديد في الممر الآخر، وقد شغلهما ما هما فيها، حتى تجاسدا من جديد، فنظرت إليه بقسوة وقالت:

- هيه...! أتتبعني...؟

- يا هذه...! أنا لا أتبعك، ولا يهمني أمرك...

فترفع صوتها، ضحكاً، حتى يضج المكان المهيب، فتشرئب الوجوه نحوها مستنكرة فضها بكارة الصمت القدسي للفضاء وتظهر بين الممرات إحدى موظفات المكتبة المتجهمة، وقد أرخت نظارتي القراءة، وبين يديها كتاب مفتوح، قاربت الستين حولاً، شاحبة النظرة والطموح، ثقيلة الخطو من تعب السنين وخمول الآمال، وقد غابت الشمس عن غابة حدائقها، وكانت سمينة في قصر قامة، تجمع شعرها الخفيف بدون ناصية طائشة بمنديل أزرق، وترتدي سترة غامقة الزرقة، وتنورة طويلة رمادية، فوق كنزة صوفية ممتلئة بأصداف كبيرة بيضاء، وتنتعل حذاء أسود مستوي النعلين، مكشوف الظهر إلا من رباطين غليظين يمتدان



من طرفيه على نحري الفردتين، يشدهما إبزيمان حديديان، وتضع جوربين صوفيين ثقيلين، تقول وهي تحاول أن تنتصب: « شو...! شو...! رجاء»، رد فعل من دومنيك جاء قوياً بتهكم واستخفاف، ردت هازئة وهي تضع يديها حول خصرها، وتلوي شفتيها: «شو .... شو.... تُقال للكلاب يا سيدتي...!» لم تتجاوب الموظفة مع ردها، فقط انسحبت مستاءة بتبرم إلى الطابق الأعلى المطل على الفناء الواسع للمكتبة، وهي تردد مضطربة من غضب لجمته:

«أي جيل هذا.....!؟

«...Oh...! Quelle génération...! Mon seigneur Jésus!...»، ثم تلتفت الفتاة إلى سالم وتقول:

- مغرور أنت....

- و متعجرفة أنت...

- هه...! ما الذي دعاك أن تصفني بذلك...؟

- قولك، حركاتك... عدم احترامك لمدام «ماري»...

- وهل يحق لها أن تنادينا بتلك الطريقة؟

- لا عيب في ذلك... فتلك لغة كونية ... ولنفترض أنها أخطأت... احترمي سنها فهي بمقام أمك...

- لا علاقة لها بأمي... ولا علاقة لك بأمي...

- آسف...

يقول العبارة الأخيرة، ويشيح بوجهه عنها، منشغلاً في البحث بين الرفوف، متجاهلاً وجودها بضجر واضح.

تلحق به، تعترض طريقه بجسدها، وتقول:

- أمازلت تريد الكتاب...؟

فقط أردت أن أثير انتباهك أنه توجد له ترجمات بكل اللغات وتلك التي بين يديك نسخة عربية محققة...

- أعرف...

- هل أنت من أصول عربية...؟

ترد له الصاع صاعين تواً دون تأخير، فتنشغل عنه عمداً وتدللاً بتصفح الكتاب، وتنظر إليه من زاوية عينها فقط، وتقول وقد تقلصت عضلات وجهها ساخرة:

- أنا فرنسية... أصلاً ... هل أنت مستغرب من اهتمامي بكتاب عربي، بلسان عربي؟

- طبعا... لكن...

ثم تخاطبه باللغة العربية الفصحى:

- يا أحمق...! ربما أتكلم العربية أحسن منك...

قمع دهشته ورد عليها بسخرية وقسوة نبرة:

- لا أظن ذلك، فلثغتك فاضحة، فالحاء عندك خاء، وحرف





العين متعب مخرج الخروج من جوفك... لثغتك تفضح أصلك...

تفرس في الجسد النحيل داخل كسوة من سترة وسروال ما حجبتا جمال جسدها، والرمش فيها فاضح للبهاء، وإن كانت تخفي الجمال بفوضى لباس، وإهمال مقصود، فمد بصره إلى القدمين، فبدتا جميلتين بحذاء مستو بلا كعب كعمودين من رخام صقيل، وقال وهو يفرك ذقنه:

- أقدم لك نفسي... سالم الزموري طالب السلك الثالث، «أدب وحضارة فرنسيتان» من المغرب...

- أعرف...

- تعرفين ماذا...؟

- من أنت...

تشده من حزامه، وتسحبه نحو حديقة الجامعة:

- أنا دومنيك... طالبة باحثة «مستعربة» أدرس الفكر العربي الإسلامي...

- تشرفت...

- هذه لغة جد منتقاة...

- هكذا تعلمنا منكم...

- ليس كل علمنا وسلوكنا يصلح لكم...

- أنا هنا في بلدكم ومنضبط وفق قواعدكم.

- ستحرم لذة الرفض والتمرد....

- لست هنا لأتمرد، أنا هنا لأتعلم كيف تمردتم حتى وصلتم...

- تلمح إلى الثورة الفرنسية.؟..

- بل إلى كل الأفكار التي ذللت الطريق للتحول من عصر النهضة إلى عصر الأنوار، إلى عصر العبث والقلق والانتظار...

- لا تهتم... فالقديم يأتي متداخلاً في الجديد، والقديم لا يغادرنا أبداً، نستدعيه حنيناً، فيغدو «إتيكيت»، أو طلبا للنجدة في الأزمات...

- ربما... فالماضي... لا يفنى بل يختلط والأنفاس الجديدة... أو يتكيف في أزياء جديدة، الماضي يجيد لعبة التنكر في الخطاب واللغة..

- وهل الماضي تهمة؟

- حفارو القبور من المفكرين هم التهمة، ما لم يحنطوا ما يستخرجون من مقابر الماضي، الماضي ليس تهمة بحد ذاته، لكنه قد يصير أداة للقتل والاغتيال في يد صناع الظلام، والخفافيش المختبئة بين أسراب الحمائم.





- دعنا من هذا الآن...! هل نشرب كأساً...؟

- أين ؟

- حانة «ليب»... بسان جرمان...

- حانة «الإتيكيت»...! ألا ترين أن هناك مفارقة في الأمر...!؟

- سترى أنها فضاء يسمح للعابث أن يصير قديساً...

- واو...! لغة راقية... وتعبير حق له أن يجد طريقه إلى كتاب...

- دعك من لغتي... هل نذهب...!؟

- لا بأس...! فأنا أسكن في الجوار...

- أعرف أنك تقطن في الحي اللاتيني...

- تعرفين كل شيء عني...

- للسوربون عيون وآذان...

- لنذهب... إذن...!

تمطر فجأة، يهرعا نحو سقيفة لبناية مجاورة، ينتظران أن يهدأ المطر، هو يسترق نظرات إليها، وهي تتفرس فيه بجرأة أربكته، وتسوي شعره بيدها بطيش وجرأة، وهي تقهقه:

- لنذهب... لقد خف المطر....!

- حاضر

يهـرولان بسرعـة، نحـو سـيارة أجـرة، يرميـان فيهـا بجسـديهما بتهالـك، وتنطلـق بسرعـة مخلفـة سـحابة دخـان أسـود لم يتبـدد سريعـاً.





## ٥

قصـدا معـاً حانـة « lipp» «ليـب» المطلـة عـلى شـارع «القديـس جرمـان» بوجههـا الزاهـي، «العنبـي اللـون» وواجهتهـا المثـيرة المصنوعـة بمهـارة وفنيـة، مـن خشـب الأكاجـو «الماهوغـاني» اللامـع المصقـول، وجدرانهـا مـن السـيراميك الـبراق، فأرغمتـه عـلى الجلـوس في ركـن رطـب فشـت فيـه روائـح رمـاد عقـب السـجائر، إذ كان مجرى الهـواء يمـر قـرب طاولتهـما، فنأيـا بعيـداً عـن المـشرب، وعـن صخـب مرتاديـه المتميزيـن الذيـن يدخنـون بشراهـة، ويتحدثـون بضوضـاء، كانـت تلتفـت يمينـاً ويسـاراً، لتـدون ذاكرتهـا حضـور وجـه معـروف، أشـارت إليـه خلسـة، قائلـة : «أتعـرف ذاك الشـاب هنـاك...!؟ إنـه «ميـتران» الـذي تجـاوز عقـده الثالـث ببضـع سـنوات، السـياسي الـذي تقلـد حقيبـة وزيـر عدة مـرات، وهـو الآن عضو البرلمـان الفرنسي، ولا أعـرف مـاذا يفعـل في تكتـل اليمـين المعتـدل، فأفكاره يسـارية، خلافـاً لانتمائـه السـياسي الـذي مـن خلالـه شـارك في حكومـة الجمهوريـة الرابعـة»، رفعـت رأسـها وسرحـت ببصرهـا بذهـول وسـحر في جمـال السـقف الـذي زينتـه لوحـات تمتـح مـن السـحر الإفريقـي لـ«شـارلي غـاري»، وتلقـت مـن شـاعر هنـا، نخبـاً، ومـن في فيلسـوف هنـاك عـلى المـشرب نخبـاً آخـر.

كم كانت متحمسة لأكل النقانق الشهية واحتساء البيرة بهذا المقهى الذي يضج بالمفكرين والفنانين وعارضات الأزياء، وكانت تمني النفس بأن ترى جون بول سارتر وسيمون دو بوفوار، لكنهما أخلفا الموعد، وظل مقعديهما شاغرين دون أن يجرؤ أحد على الجلوس على أحدهما، توترت فيما بعد، وهي تتابع ما تسميه ثرثرة حول الفن والأعمال التشكيلية، وكانت تقول له بصوت خفيض «الفن هو واجهة الحياة الحقيقية»، كان بوده أن يقول لها «هؤلاء النقاد الذين يقومون اللوحات الفنية، ويصدرون أحكاماً تحدد سعرها فيما بعد، يمارسون أسطورة اسمها النقد الجمالي»، فأحياناً يقف أمام لوحة مشهورة، فلا يشعر بأي شيء سوى بثمنها الخيالي، وهي باردة أو تافهة كما يرى... وله اعتقاد راسخ أن الأمر لا يعدو كونه صناعة للوهم.

وحين دقت الساعة منتصف الليل، خرج هو أولاً مترنحاً من طفح الشرب، وانتظرها على الرصيف الآخر، فانشغلت هي بحديث على العتبة مع كهل يرتدي معطفاً طويلاً مبعثر الثنايا، بشع في لونه الرمادي الحزين، ولا يغادر الغليون فمه، كث اللحية البيضاء، معتدل الطول، هزيل البنية، من حين لآخر كانت تلتفت إليه، تلوح مبتسمة، ويحييه الكهل ذاته بأن ينزع قبعته ملوحاً بها، يبتسم له أيضاً ويرسل تحية تلويحاً، على إيقاع قهقهته، تودعه، وتعبر نحو الرصيف المقابل للحانة وتقول وهي تلقي نظرة على ساعتها: «مازالت في حاجة إلى أن أرقص... اللعنة...! هذا المقهى بقدر ما هو مغرٍ بشخصياته بقدر ما يصير أحياناً مملاً».





تسكعا تلك الليلة في أهم شوارع باريس، وهما يتحدثان عن الجفاء الذي طال علاقة سارتر بكامي، منذ صدور كتاب «الإنسان المتمرد»، الذي أدان فيه كامي من يبرّرون القتل، وكل المثقفين المتواطئين مع الشيوعية، وفهم «سارتر» أنه المقصود بالنقد الجارح، فأوكل إلى «فرنسيس جيزون» وهو كاتب مغمور لم يتعد عمره الخامس والعشرين سنة بتدبيج مقالة في إحدى وعشرين صفحة بعنوان «ألبير كامي... الروح المتمرِّدة»، أظهرت للرأي العام أن «كامي» رجعي متواطئ مع الرأسمالية، وأساء المقال لشخص ألبير كامي، منشغلاً بالموضوع أكثر من الأفكار التي جاءت في الكتاب، وترجيا معاً أن تتبدد سحابة الخلاف بينهما ليعود لحانة «ليب» وهجها وأنسها.

تهالكت ليلتها على الطريق، حتى كادت سيارة أن تدهسها، فسحبها سالم بقوة، فسقط وسقطت فوقه، فتمنى أن يطول زمن هذه الكبوة الجميلة حين اختلط الجسدان وامتزج الصدران، لم يوقظه من نشوته العابرة غير شتائم الراكبين وهم يشرئبون من النوافذ «عاهرة... مخنث... خراء...» وقبل أن تختفي السيارة، تتقاطر قنينات الجعة الفارغة ، فتتشظى محدثة صوتاً مخيفاً.

وظلت علاقتهما مداً وجزراً، رغبات مؤجلة، شهوات معطلة، كراً وفراً وجدانيين، شغب أنثوي يلجمه عقل متمرد على الجنس ويعده استعباداً، تربص ذكوري منه للحظة ضعف ساعة سكر، نظرات زائغة منها في أوج الثمالة، توشك أن تفك عقال عقلها وترتمي في أحضانه، لكنها تشد العقال في آخر لحظة، وأنفاسها

قرب أنفاسه، وظل المبهم في هذه العلاقة هو سمتها الأساسية، معتمداً هو على «مواعظ» صديقه النورماندي «بيير»، ومتمسكة هي بفكرها الثوري المتمرد، حول عبودية النساء، وأسطورة الحب، وتغليف رغبة التملك والملكية بمقولات الزواج والعشق، ورفضها لكل علاقة ملزمة لازمة، منددة بالزواج كمؤسسة من صنع الرجال ببدهاء، إذ تعتبره دهاءً ذكورياً من صناعة الذكر لتقنين ملكيته للمرأة، لكنها في الوقت ذاته حائرة بين هذه الرغبة الجامحة فيها، وبين أفكارها الرافضة لضعف الرغبة، حتى كانت تلك الليلة حين جرته بعنف على السلم، وغمرته قبلاً ساخنة ملتهبة كالجمر، وهو موزع بين الدهشة والنشوة، وحين حملتها أدراج السلم بعيداً، كانت كأنها تحملها أبعد، فأبعد... فاختفت...

وكان البداية لعلاقته مع دومنيك شتاء، ومن البدء نشأت غريبة ومبهمة بدون بوصلة ولا خرائط وجدانية، عاصفة خرقاء، غارقة في المفارقات والمتناقضات، لم يجرؤ خلالها على مدى شهور أن يخطو خطوة جريئة نحوها، وإن كانت تستفز نزقه، وتشعل دغله، وتسقط بدلالها الغريب الذي يتحول فجأة إلى قسوة وفظاظة، عنان توجسه وضبطه للشهوات، وعرفها عن قرب، فعرف التحولات الصاخبة الغريبة، والأحاسيس المتناقضة، والأفكار المتطرفة الحائرة.

«دومنيك» هذه الفتاة الباريسية المشاغبة العفوية، الجامحة العاطفة الجياشة الأحاسيس المتطرفة والطافحة بالحياة والأنوثة والنزق، تنهك حكمة كل من يجاهد غض الطرف عن أنوثة



صارخة، فيضطر للالتفات على الطريق، أو النظر خلسة في هذا الجسد المنحوت بدقة، يكاد في تناغم جميل، أن يمنح هذه الفتاة كل الجمال المحتمل، دومنيك ظلت في منطقة في وجدانه يغشاها التوجس والتردد، فلا هو قادر أن يطوي صفحتها، ولا هو قادر أن يطلق عنان مشاعره نحوها.

فمزاجها المتقلب يهدد في أي لحظة هذه العلاقة المترددة على العتبات فهي كالعاصفة غير المرتقبة ولا المنتظرة في يوم صحو، وسماء صافية زرقاء بلا غيم ولا سحب عابرة، وهي كالنَوِّ المضطرب كأمواج بحر لا تتوقع متى يتغير مزاجه، عاصفة مباغتة دوماً محبطة لكل توقع، تتحول من هادئة مثيرة في رمشة عين، إلى جامحة ثائرة في فوضى مشاعر كفرس برية هائجة، لا تطيق صهوة، ولا يكبحها عنان ولا لجام، ولا يد تربت على رأسها لتهدئتها.

تتصرف في أكثر الأحيان كقديسة من زمن الراهبات والرهبان الجائلين بين القرى وفي المناطق البعيدة، لنشر العزاء والرجاء، ومنح النفوس العليلة، والمرضى اليائسين من دواء فيه شفاء، سكينة العبور نحو العالم الآخر، بعد جلسة اعتراف وبوح، «دومنيك» الشغوفة... حتى اسمها فيه قدسية الأولين، وتزكية «اليونانيين» فهو لاتيني الأصل، يعني فيما يعني هدية الله، ويعني أيضاً كل شخص متصل ومتعلق بالرب، ومولود يوم الأحد، وتشترك فيه الإناث والذكور.

تقاسم سكان الشوارع والأزقة والهوامش البائسة، وموسمات

متنصف الليل الرخيصات، والمنبوذين والمنبوذات، وجبتها التي قد تكون الوحيدة، وتتخلى لهم عن علبة التبغ حتى علبة عيدان الثقاب، وقد تنزع معطفها وتصر على إلباسه أحد المتشردين الذين لا مأوى لهم غير الأزقة الباردة في الشتاء الباريسي القاسي، وإن لم تكن لبوسة، ولا كثيرة اللباس شراء وتغييراً من ترف أو هوس بالصيحات، ليس من عوز وهي ابنة محام مشهور بشارع «هنري مارتان».

مزاج «دومنيك» يقفز من طرف حالة إلى طرف آخر بلا اعتدال، لا توسط في مواقفها ولا اعتدال لعواطفها، يمر من حزن شديد واكتئاب جاثم، تصير الحياة من خلالهما عندها لا تطاق وتافهة بلا متعة ولا حماس، إلى طرف حالة أخرى يغمرها بجموح فرح عارم، وحماس غامر، يدفعانها بإفراط إلى الإقبال بجنون حد المجون على كل الملذات والمتع، فترقص حتى الفجر في مرقص ساهر معتم، أو في علبة ليلية رخيصة في ضواحي باريس التي مازالت ترمم نفسها بعد سبع سنوات من نهاية الحرب العالمية الثانية، فتصير كقصبة في مهب الريح، تترنح من شدة التأثير على إيقاع الموسيقى الجديدة الصاخبة المسافرة من أمريكا.

وأحياناً أخرى تغدو خرقاء حمقاء قاسية بلا شعور ولا إحساس، تلعن المنبوذين والمهشمين والمدمنين السكارى، وتحملهم مسؤولية وضعهم القاسي بما فيه من مظاهر التيه والضياع، وتكره فيهم الضعف والمسكنة، وتلعن فيهم المذلة والعجز، تصير النقيض الآخر للقديسة، كأنها مريدة من حواريي نيتشه، تقمع





في نفسها الرحمة والشفقة، وتعتبرهما من أخلاق العبيد، وتدافع عن عالم بلا عيب ولا ضعف، وكان سالم كلما نازعته في الأخلاق وهي تستشهد بـ «نيتشه»، ذكرها برأيه في المرأة... فتصمت.

حين يقفز مزاجها إلى الطرف الآخر الغاضب من الضعف ومظاهره، تصرخ في وجه المتشردين والمدمنين الذين يدسون قنينات الخمر تحت ستراتهم المتسخة، أو يخفونها في أكياس التبضع الصغيرة الورقية الرملية اللون، وهم يتوسلون المارة ملحين حتى يضجروا ، أو فقط يجلسون على الرصيف، ويضعون صحناً وينتظرون بصبر وترقب سماع رنين قطعة نقدية تبهجهم على غرة، لا تتورع هذه الشقراء الفاتنة حين تتلاشى في شخصيتها أحاسيس القديسة، عن الشتم بفظاظة وبذاءة، الصراخ بقسوة واضطراب بكلمات عارية ضجرة: «اذهبوا إلى البحر يا كلاب الشارع، تخلصوا من شقائكم شنقاً... أو أطلقوا رصاصات على رؤوسكم لتضعوا حداً لجحيمكم، الشفقة والرحمة تعطلان الثورة، الصدقة تكرس الخنوع والخضوع، قوموا يا أشقياء وانتزعوا حقكم من الأغنياء... أكرهكم... أكرهكم».

وكان كل متشرد أو بلا مأوى يعيش في الشارع، أو منبوذ يقتات من القمامة وعطاء الناس، يعدها مجنونة، أو ثملة غلبها السكر، وبعضهم تكون لهم ردة فعل من قاموسها السفيه، فينعتونها بالعاهرة الباغية، و من لان لسانه، ورق منطقه، وتهذب غضبه صاح في وجهها «مكانك مصحة الأمراض العقلية، أنت مجنونة... حمقاء...» ومن يعرفها حق المعرفة، يبتسم في وجهها،

ويمضي دون الرد عليها، وهو يعلم أنها فقط موجة عابرة في بحر حياتها، ويأمل في موجتها الأخرى الصادقة، السخية بسكينة.

هل هربت من ضعفها أم خجلت من سقوط صنم عبادتها؟





## ٦

وفجأة كما غابت واختفت بلا وداع ولا إشعار ظهرت دومنيك على حين غرة ، ذات ظهيرة بدون سابق إنذار، في قلب شهر **غشت** الذي كان رحيماً هذه السنة باعتدال مناخه دون قيظ منهك، وبحلولها المفاجئ الجميل، وإن حاول زهاء عام أن يراوغ طيفها، ويتجاهل وجودها خاطراً أو حلماً. لم يعرف سالم كيف دخلت إلى الشقة وقد انتقل إليها مؤخراً إلى زقاق جديد، صحا على صخبها وضوضائها، فقد حلت كالريح الهوجاء، وهبت على الشقة هبوب العاصفة على السفينة الغافلة المطمئنة، وهي تقول بصياح حماسي خلطته وضحكة جامحة:

- ها أنا عدت...! أظننت أنك ستتخلص مني بسهولة...؟ لا... لا... لا...! انهض يا كسول...!

- من أنت...؟

- من أنا....؟ أنسيت صوتي... أم تتظاهر بذلك؟

- دومنيك؟!

- دومنيك... يا كسول... نعم....

- دومنيك... واو...! أخيراً.... هل أنا أحلم...؟

- لا... ها أنا ذا لحمٍ وعظمٍ...

- أي ريح أتت بك بعد كل هذا الغياب...!؟

- ريحي لا تعرف متى تعصف، حتى تهزّ حياتك....

- لكن انتظري... ! كيف دخلت؟

تغلبها قهقهة متهتكة عالية وهي تقول:

- أخذت المفتاح من متعهد العمارة، قلت له إنك مريض ولا بد أن أدخل لأراك... واستعملت أقدم سلاح للمرأة... دلال ... غنج... رقة... تهتك....

- أحمق... وساذج...

- والآن اخرج من سريرك...

- انتظري لحظة حتى ألبس ملابسي، فأنا عار تحت الغطاء...

- عار يا حيوان...!.

يتثاءب بكسل، العبارات تتمطط لتمططه:

- دعيني ألتقط أنفاسي...!

- الآن... قلت الآن... يا خامل...!

تصر أن تخرجه من الفراش عارياً كما ولدته أمه، وتلك كانت





عادته عند النوم. أحرجته وأربكته وهي تسحب عنه الغطاء كأنها تلعب لعبة طفولية بضحك ونزق، وتقفز بحماس وحيوية، فيشده بقوة، وتسحبه هي بشدة، حتى تظهر مقدمتا ساقيه، تصايح متبادل بين الجانبين كسر روتين الشقة في يوم الأحد الهادئ بجادة «دو بونتواز» بحي القديس فيكتور، ، ابتعدت عنه لحظة، وشرعت تفتح الستائر المتموجة الكئيبة السوداء، وتتنقل كنحلة من ركن إلى آخر بصخب طفولي:

- إيه...! يا كسول...! اصح...! يا كسول... !لن أتركك... هكذا... انظر إلى الساعة.... !

ينظر سالم من تحت الغطاء، وهو يشده بيديه إلى قمة رأسه، يتفرس في وجه في الفتاة الجميلة جمالاً يخلب العقول خلسةً، فهو لم يصدق نفسه لحد الآن أنها عادت، تظاهر بتغطية رأسه، وعدم اكتراثه وتجاهله، وهو يسترق النظر إليها خلسة من فجوة الدثار بفرح مقموع، ولولا كرامته لقفز نحوها وضمها ضماً شديداً، يتفرس في عجيزتها الخفيفة وهي تميد فيميل عقله، ويتابع تعابير محياها البهي، ويسترجع معالم وجهها الأبيض وقد خالطته سمرة من أصل لاتيني قديم، ويترصد بلهفة حركات شفتيها الممتلئتين، تطبقان على ثغر أقحواني الأسنان بانتظام ونصاعة. وحين انثنى الجسم الفاره، وزاد انحسار فستانها الأرجواني المنحسر أصلاً عند الركبتين، أبانت عن فخذين ممتلئتين بنعومة الحرير، وكانت ضامرة الكشح والخصر، طويلة الجيد، وقد نحفت عما كانت عليه قبل،

ووجد أن في لباسها تغيراً صارخاً، لم يعد رجولياً يحذر النظرات، بل أنثوياً صارخاً يستفز البصر والسمع والنزوات.

تلح عليه وتلح بجنون، فيظهر رأسه بكسل وما انفك يتمطط بخمول متثائباً، وهو يجاهد لفتح عينيه المتعبتين بصعوبة، من جراء شدة ضوء هذا الصباح الصيفي، ومن أثر ليلة صاخبة أمضاها أمس بحانة ساهرة في النواحي رفقة «بيير» وبعض الأصدقاء، يحتسون الجعة ويرقصون على إيقاع موسيقى «الريتم آند بلوز» بإيقاعاتها السريعة، وكلمات أغانيها الصارخة، التي تتضمن ما يكفي من الجرأة والسخرية، خاصة أغنية «بيلي هالي» الشهيرة «**رجل أحمق، أحمق**» وعلى إيقاع روك «آند رول»، وكان هذا النوع من الموسيقى كاف ليثير استياء الشيوخ وسخط العجائز المتحسرين على زمن موسيقاهم الهادئة.

طفقت دومنيك تذرع فضاء الغرفة، وهي تجمع الملابس هنا وهناك، وتفرغ المرمدة التي طفحت أحشاؤها بأعقاب السجائر في صندوق القمامة، وتتخلص من بقايا الطعام، وقد تغيرت فيها عدة أشياء، ملابسها ولم تعد فضفاضة على مذهب «البوهيميين»، ولا رجولية على مسلك بعض الحركات النسوية المطالبة بالحقوق المدنية أسوة بالرجل، غدت مثيرة متهتكة المشي، متثاقلة الخطو، وقصة شعرها صارت قصيرة «قصة الشمس»، ولم يكن من عادتها أن تنتعل النعل العالي لتعلن به عن أنوثتها، صار وقع كعبي حذائها مستفزاً، وجسدها تحرر من عقال الفكر المخدر لتسليع المرأة، تميد فيميد قلبه وتتهادى روحه، فيشعر بلذة تسري في بدنه،





يهجم الضوء والريح الخفيف على الفضاء، تتطاير جرائد الأمس وعلب طعام جاهز، ينقل نظره صوب المنضدة، يحدق في وجه الساعة، العقربان متعانقان عند الثانية عشرة، والديك اللولبي، بدأ يصدر نقراته الاثنتي عشرة، تجر عنه الغطاء، فيستر حجره بيديه، وهو يصرخ:

- أعيدي الغطاء...! يا حمقاء...!

- هل أنت خجول يا فتى....

- أعيدي الغطاء.... يا دومنيك...! أرجوك...!

- انتظر... سأرفع عنك الحرج...

تشرع الفتاة في خلع قميصها الأرجواني، فتكشف الطبيعة عن جسد طري ندي، في تناغم أبعاد بهي، كقطعة منحوتة، ثم تنزع حمالة نهديها وهو يغطي عينيه بيديه، وينظر من بين فرجة الأصابع، تمتد أصابعها إلى تبانها، فتتلكأ وهي تتهالك وتميد، وتنظر إليه بنظرات زائغة، ثم تتظاهر بعزمها على خلعه وهي تتلوى كقصبة في مهب الريح، أو كراقصة إفريقية تهزها الطبول هزاً، فيهتز نهداها الصغيران المنتصبان، تتوقف برهة وهي تضحك بمجون غامر، تدنو منه، تتهالك في مشيتها وتتثاقل ميداً ودلالاً، تتسارع أنفاسه، يشعر بالغثيان، بانقباض في معدته، بضيق في التنفس، تضيق الحجرة، يتوقف الزمن، تكاد الجدران تخنقه، تندس تحت الغطاء كمد مفاجئ يغمره بللاً، فتعلو أمواج شبقه، ويهدر بحر الغواية، وتحلق في الأرجاء طيور متعطشة لوحشة

الدغل، يكاد أن يغشى عليه، يعلو الشهيق والزفير، زوبعة تحت الغطاء الذي تشكل خرائط وقارات وجبالاً ومهاداً، السرير يئن لذة بعد غفوة طويلة، يضحك يناجي الوسادة التي كانت بذهول «أخيراً استعدت وظيفتي... لست قبرا للحياة، أنا الحياة».

يتوقف الزمن، يؤجل كل قرار إلى ما بعد، يعطل الحذر، يتوارى التوجس، مد وجزر، الفرس البرية تروضها نعومة الأصابع، تلين وتسرج في قفزة في الفراغ، لكن بلا لجام، تلعن الصحوة التي تمنع الغابة من أن تتقدم نحو الشواطئ الصخرية، لا يهم الأجرف والأنواء، لا يهم «المابعد»، تهتز السفينة على الموج العاتي، يصير كل ضلع فيها متشوفاً لضربات سياط الموج، تكاد تتكسر على الهديج والنشيج، الستائر حائرة، تسرق نظرة وتستثير حفيف أجنحة نورس بحري، وتحلم أنها الوحيدة على الساري، في هذا السفر السحري.

تهدأ العاصفة، تستفيق الستائر من حلم النوارس، تتمايل السفينة على رمق هبوب ريح خفيف من أنفاس متقطعة، يسقط الغطاء الشراع، ويختلط جسدين في آخر اعتصار بعد أن أرست الشهوة مرساها على رصيف شبع مؤقت، فتخجل الشرفة، وتتلوى الوسادة من غيرة، وحده السقف لم ير غير أثر الريح، وحده السرير شاهد على الانهيار وزحف الغابات والعويل واختلاط الأنواع، وحدها الستائر تجيد الحلم لتكون جزءاً من هذا العبور نحو الحدائق الخلفية، عند غروب آلهة الحكمة.





قالت وهي ترتدي فستانها:

- لنخرج... ! لنحتفل...!

ينظر إليها ومازال يشعر بخدر في جسده، وبقية لذة تسري في عروقه:

- أسترحلين من جديد...!؟

- لن أرحل عنك أبداً...

- كيف أصدقك...!؟ أريد ذلك ... أتمناه... لكني لا أستطيع...

تجلس على طرف السرير، يساعدها في عقد إبزيم حمالتها، تقول وهي شاردة الذهن:

- ليتني أستطيع أن أحسم في أي أمر في حياتي...

- لم أفهم.

تقترب من الشرفة، تسرح بنظرها خارجاً، يغشاها حزن مفاجئ، تتأوه وهي تقول:

- أنا أهرب من نفسي...

- وهل تحبينني....؟

- لا أعرف... أقاوم هذا السؤال...

- لمَ...؟

- قد تكون بعض الأجوبة أقسى من الأسئلة

- أتخافين من الحب؟

- يا سالم... !أنا من غير أفكاري مركب تائه... أنا أهم ناشطة في شباب الحزب الشيوعي.

- وليكن....أنت تخلطين بين التفكير كيسارية، والممارسة كشيوعية...

- بل هنا... هنا كل القضية... ماذا أقول لكل اللواتي خطبت في وجوههن بحماس، وقلت إن الحب وهم، والزواج استعباد واسترقاق، وهو صناعة ذكورية... وهو مؤسسة ذكورية لامتلاك المرأة...؟

- هذه فوضوية وليست شيوعية... حتى ماركس... ولينين... وإنجلز... وماو... وتروتكسي... وهم آباء الشيوعية... تزوجوا وأنجبوا، ولم يدفعوا بأبنائهم للدولة الراعية الأم، ولا تقاسموا زوجاتهم مع الغير... الواقع أكبر من النظرية يا دومنيك..

تنظر إليه بحيرة، وتدنو منه:

- أعرف أنك أرستقراطي الأصل والتربية.... وفيودالي....

يضحك بقوة ويقول:

- هذه تعابير ومفاهيم كبيرة عنا في بلدنا، أقصى مظاهر الاستغلال عندنا هي «الخماسة» أو «الرباعة»، وأقساها جداً ما جاء





به الرجل الأبيض باسم الحضارة البيضاء بـ«السخرة» أي العمل مقابل وجبة أكل أو بدون مقابل، في نظام التخميس أو التربيع على مالك الأرض أن ينفق عليها بذوراً وأسمدة وأدوية، والخماس أو الرباع لا يقدم إلا عمله سواعده وعنايته، وحسب الاتفاق يأخذ الخمس أو الربع، وفي البادية المغربية إن أردت إصابة قروي في مقتل قل له «الخماس نْتاَع أبوك» أرأيت أننا مجتمعان بمرجعيات وممارسات مختلفة، وما من نظرية أممية، لا تليق بمجتمعاتنا لما فينا من غيرة حامية، مروءة غالبة، نحن قد نملك الأراضي لكن لا نمتلك الفلاح وأسرته كما في عصوركم الوسطى وكما تفعل الرأسمالية المتوحشة من استغلال للقوى العاملة، وسلب إرادتها، ولم يطبق نبلاؤنا الحق «في الليلة الأولى»... العار الغربي القديم، الذي يعطي الحق للمالك النبيل في معاشرة عروس الفلاح أولاً، قبل زوجها.... لسنا طبقة نبلاء وطبقة الغوغاء... لكن عندنا السخرة والظلم والبغي، والفساد والرشاوى، ولن يصطلح أمرنا حتى نأخذ مصير بلدنا بيدنا، ثم نبني دولة الحقوق والواجبات والعدالة، ونعمل على النمو بعرق سواعد أبنائنا.

- كلامك فيه تناقض.... أنسيت طبقتك الاجتماعية...؟ ألست ابن خليفة لقائد جبار؟

- نعم... لكن لست ابن ماركيز أو دوق...

يقهقه ويردف:

- لقد انتحرت طبقياً على لغتك، ولو أردت أن أكون في صف الباطل ما غادرت بلدي....

- ألا تستعبدون الناس في بلدكم...؟

- أقول يا دومنيك إن فينا الغني والفقير، والملاكين الكبار والمزارعين الصغار، والحرفيين والصناع، وأكثر نشاطنا الزراعة والرعي. قبائل ملتحمة في السراء والضراء، تعطي الضرائب ما وجب منها في أنفة ما لم يتجاوز أو يجور الحاكم أو من يوليه دفع الضرائب، نتمرد على كل غلو فيها وشطط، في مقدمتنا وطليعتنا العلماء والوجهاء، كلنا جيوش في عسكر السلطان إن دعت الضرورة، تربطه بنا بيعة، لا عقد اجتماعي ولا انتخابات عامة، لكن البيعة فيها ضمان للحقوق الفردية والجماعية، وحماية العباد والبلاد، والأملاك والممتلكات، وضمان الأرزاق والأقوات في الأسواق، ومحاربة الغش والاحتكار بالحسبة عبر كل أمصار، وحماية الدين والملة، والثغور والحدود، ونشر الأمان والطمأنينة، الكل راض بموقعه وبدوره وعيشه، وتغيير المواقع ممكن بالعمل الجاد والمال الغزير والعلم الوفير والنسب الشريف، حتى حللتم ببلدنا باسم الحماية، ثم تحت شعار نقل حضارة الإنسان الأبيض، اغتصبتم الأرض والبحر والجو، وصنعتم نخبة موالية لكم، تستعبد الناس سخرة في أراضيكم ومشاريعكم، لم نكن إلا أمة من العامة والشرفاء والمرابطين والوجهاء وحاشية السلطان والعلماء، نعيش جنباً إلى جنب في المدن والبوادي، فلا تبغي فئة على الأخرى، فالغني يطول بالعون الفقراء بالعطاء دون كمذلة أو منة، فما تحاسد الناس ولا تباغضوا. ولا نرفع تبجيلاً وتقديراً إلا من كان له نسب إلى الرسول، مشهود له موثق وكان على خلق



وهدي المصطفى، فالنسب وحده غير كاف إن ألبسه المرء بالظلم والجور والفواحش، أو نرفع فيما نرفع العُبَّاد والدعاة والزهاد، ما لم يبتدعوا في العقيدة والعبادات مسلكاً، وليس الابتداع كما يفهمه البعض، مطلقاً، بل مقيداً في قضايا العبادة والعقيدة، وكل إبداع خارجهما إن نفع الناس في أي مجالات الحياة، فهو من ديننا، أو يطلبوا سلطاناً أو مجداً تحت راية الدين، ليست لنا ألقاب نبيلة تورث وتباع، ولا مناصب لرجال الدين في دول كانت تمنحهم الأرض والتقديس وتعفيهم من الضرائب، وليس لنا رجال دين يوزعون تأشيرات للجنة، بل علماء يعلمون الناس دينهم ويجهرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويستنفرون الناس وقت الشدة، وليس لنا قلاع غامضة يخدمها الأتباع وعبيد الأرض، ويزكيها قسيس أو راهب، يبشر بجنة مؤجلة لقوم هو في جحيم يومي من شظف العيش و قسوة استعباد.

بنبرة هازئة تقول:

- ألم يطلب سلطانك الحماية...؟

- كنا في زمن فوضى و«سيبة»، فجئتم للحماية ثم تحولتم غزاة مغتصبين، ونسيتم العهد والاتفاق.

- لمَ تجعلني جزءاً من هذا بضمير المخاطب...؟

- أليسوا قومك...؟

- لست مسؤولة عن أخطاء تاريخ أمتي...

- للأسف... إنها جمهورية فولتير وعصر الأنوار... جمهورية الحرية والمساواة والإخاء هي نفسها التي قطعت رؤوس الأفارقة، وتغتصب الأرض والبشر.

- للأسف..!

- دعينا من هذا ...! هل يدق قلبك حباً أم إنك تلجمينه بالعقل المزيف للمشاعر...؟

- لا أستطيع أن أجيب عن السؤال... دعنا نحترم هذا التعاقد...!

- أي تعاقد؟

- كلانا لا يستغل الآخر، أنت تعطي وتأخذ دون إكراه وأنا أعطي وآخذ اختياراً وإرادة حرة، صفقة فيها من العدالة ما يسقط أي مفهوم للرق والاستغلال، ويحصننا ضد النرجسية المتسللة بصمت...

- لسنا في سوق يحتكم إلى العرض والطلب... هذه مشاعر وليست سلعاً ومجرد أشياء...

- أنت وأنا حران... لا أحد فينا يملك الآخر، وفي الوقت نفسه نتقاسم بعدل تلك المتعة الطبيعية...

- لا...! لا...! أرفض هذا الاتفاق... إنك تحولين يا شيوعية الجنس إلى سلعة، إنك في تناقض صارخ، لا جنس حقيقي بلا قيم تحصنه، وإلا صرنا كالحيوانات...





- أي قيم... الدين... الرأسمالية... الكولنيانية؟

- لا يهم مصدرها مادامت ترسخ الكرامة ولا تحولنا إلا مجرد أشياء أو حيوانات ...

- لا يهم هذا السرير كيف نفكر...

- بل يهمني أنا حتى لا أفقد احترامي لذاتي.... القيم تمنعنا ضد شطط أنفسنا...

- الأخلاق ستضعفنا...

- كأنني أقرأ لذاك الأحمق نيتشه، وهو يقتل الإله، وهذه مفارقة غريبة، فنيتشه والشيوعية لا يستقيمان...

- أقصد فقط كل القيم التي تبرر الاستعباد والاحتلال والاجتياح والاستعمار، نحن الآن نحتل بلدكم تحت شعار نقل الحضارة... ألم تقل ذلك...؟ أرأيت كيف تصير القيم مظلة للظلم...؟

- العيب ليس في القيم بل في من يلونها حسب مقاس ثوب طموحاتهم، الفعل البشري يبرر الشر منذ القدم بما له من مبررات عقلانية أو قدسية، لكن هذا لا يمنع أن قيم العدالة والحرية والمحبة والأخوة هي قيم كونية.

- أنت لا تفهمني....

- ماذا تريدين مني أن أفهم؟ اسمعي...! نصب النازيون

المشـانق والمحـارق لليهـود والغجـر والمثليـين والمعاقـين، وقتلـوا الملايـين في أبشـع جرائـم للإنسـانية، وقـد كانـوا يعتقـدون أن عرقهـم الآري هـو الأسـمى والخالـص، وغـيره هجـين أو وضيـع عليـه أن يبـاد، لكـن أتعلمـين مـا فعـل الحلفـاء المحـررون في ألمانيـا...؟ ملايـين النسـاء.... نعـم ملايـين الألمانيـات ثـم اغتصابهـن قهـراً مـن لـدن المحرريـن الشـيوعيين، وفرنسـيي الحريـة والعدالـة والأخـوة جنـود العـالم الحـر وإنجلـترا المحافظـة، مهـد القيـم، مـا فعلـه المحـررون في نسـاء ألمانيـا حتـى انتـشرت جثثهـم في الشـوارع، دليـل عـلى أن الـشر ليـس كامنـاً في ديـن ولا فكـر، بـل هـو فينـا، ولا يلجمـه غـير قسـوة القوانـين الرادعـة، أتعلمـين عـدد الأطفـال المنسـوبين إلى أمهاتهـم الألمانيـات اللـواتي اغتصبـن ظلـماً!؟ أيـن القيـم والعدالـة هنـا...!.؟

صمتـت لحظـة وهـي تفكـر بعمـق، نظـرت إليـه، باسـتياء وهـي تعبـث بالسـتائر:

- ألا نؤجل هذا الأمر؟

- كـما تشـائين... لكـن تذكـري لا أريـد أن أعقـد معـك صفقـة.... والآن تعـالي يـا حمقـاء... !

يسـحبها بلطـف، ينهـار مـن جديـد الجسـدان تحـت وابـل الشـوق واللوعـة، يتـوارى الجـدل وراء البـاب، يتنظـر صحـوة العقـل، صـارا الآن أكثـر تجربـة وخـبرة في السـفر بـين مهـاد المتعـة، تعلـما بسرعـة كيـف يتجـولان في حدائقهـما الداخليـة، كيـف يتمهـلان ويمنحـان كل الوقـت لجمـرة اللـذة حتـى تتوهـج أكثـر، قبـل أن تنطفـئ وتصـير





رمـاداً، تعلـما كيـف يقطفـان كل فاكهـة نـادرة عـلى مهـل، تعلـم أن يصيخـا السـمع إلى جسـديهما، وهـو يعلـن خرائـط جديـدة للسـفر في الأدغـال، فغفـت عـلى صـدره، وغفـا هـو عـلى صـدر الزمـن الـذي ظـل يهدهـده، نسـيت الصفقـة، فانسـحب العقـل مدحـوراً صاغـراً.

قبـــل الغـــروب بلحظـــات، كانـا عـلى «الجسـر الجديـد»، «NEUF LE PONT » الممتـد عـلى نهـر «السـين»، مـن الضفـة الغربيـة إلى جزيـرة المدينـة، وهـو قديـم تليـد شـيد في القـرن السـادس عـشر، بالحجـارة والخرسـانة، وبـه عـدة أقـواس، أخذتـه ليريـا معـاً، الغـروب تنهـدت بعمـق وقالـت:

- سأرحل من جديد....

- لم أفاجأ... كنت أعلم....

- كيف...؟

- أعرف أنك طائر بري لا يطيق الأقفاص...

- سأرحل إلى مصر... أريد أن أكتشف ذاك العالم السحري...

- بدأت أتعود....

- قد أعود يوماً... ربما... أتغير...

- وهل تريدين أن تتغيري...؟

- أريد أن أحب دون قيود... أن أحلق كفراشة بلا خرائط....

- وما الذي يمنعك...؟

- أعراض شيوعيتي القاتلة....

- شيوعيتك سرطان شرس، أباد الملايين في سيبيريا، وما زال باسمها يضطهد الأقليات ويهجر الناس، ويخنق الأنفاس... ويبيد عرقاً بطمس هويته وينفيه بعيداً عن أرضه في جغرافيا لا تعرفه ويعرفها.

- ذاك انحراف بشري لا يحسب على النظرية، بل يحسب على فهم وتأويل الناس، لا علاقته بالنظرية الأساسية... تلك...تلك... أخطاء بشرية لا خلل في النظرية، أكرر أن فهم الناس أو تأويلهم لمراجعهم قد يحولهم إلى سفاحين بحماسة مفرطة لإنزال النموذج خارج السياق، قد يلجؤون إلى خيارات دموية.

- ماذا.... لا أصدق... أتباركين الاجتثاث الإنساني والتهجير والنفي انتصارا للأيديولوجيا...؟ هذا وربي هو الاستكبار وكبرياء العقلانية المزيفة..

- لا... فقط أؤكد لك أن لكل تحول خسائر، والشيوعية لها أعداء من الداخل والخارج وعليها أن تحصن جبهتها الداخلية....

- كيف...؟! بالإبادة والذبح والنفي والتهجير...؟

- لا أقول ذلك.... فحتى الثورة الفرنسية الممنعة فكرياً، أعدمت أبناءها...

- السياقان مختلفان، أنت تعلمين أنها ليست نظرية علمية،





بل نظام حكم يتم إلباسه بقوة لمجتمعات ويتم مصادرة هويتها وقيمها، حتى إن الشيوعية تحمل في ذاتها سمها، فروسيا لم تكن رأسمالية حسب المفهوم التاريخي، لإقامة نظام شيوعي وفق الجدل المادي والتاريخي... لا يمكن حسب النظرية القفز على الحقب، وروسيا ومن يدور في فلك اتحادها زراعية...

- هذا نقاش يقتل متعة ما حولنا، دعنا منه الآن!

تضع رأسها على صدره، وتحلم صحواً لو كان بإمكانها أن تعود للوراء بضع سنوات فقط، تشعر بورطة الأفكار، يخنقها هذا الالتزام الغبي الذي غدت بين فكيه، أمة أسيرة نظرية، هربت من عبودية الذكورة، فصارت عبدة لصورة صنعتها لنفسها، وكل تحول سيكون إما خيانة أو نكسة في نظر الآخرين، تدفق الدمع ساخناً على خديها، حتى بلل صدر سالم، اكتفى هو بالصمت وهو يحصي كل آهة ونفس.

تحني الشمس رقبتها بخنوع تام لجلادها، تمشي في جنازتها الرهيبة أسراب طيور مختلفة، ويودعها زعيق المراكب العابرة، تنزف أشلاء كقطع الكبد على صفحة نهر «السين»، فتمتلئ ساحة «دوفين» بالعاشقين والعاشقات والبوهيميين والمتعبين والمتعبات ومغنيي الساحات والأرصفة، تمتد ظلال السترات الرمادية الطويلة والقبعات على أرصفة أكشاك الكتب، نساء يتعقبن صغارهن وهم يلهون بصخب، وحده الجسر معتز بهذا التدفق بين عالمين، كانا بالأمس متنافرين، من جهة ضفة عالم المدينة والبؤس، ومن جهة أخرى ضفة عالم البذخ والعلم.

ويعلن الليل زمنه بقوة، فتضاء الأضواء الخافتة بشحوب، ويختلس العشق زمنه الحالم في عيون العاشقين، وترفع ستارة الصخب الليلي الباريسي، فيعم ساحة «دوفين» صخب الأطفال المتعالي، ودردشات الكبار، وضحكات النساء والفتيات، بينما احتشد حشد صغير أمام فرقة غنائية كورسيكة، تحيك ألحاناً جميلة من لوعة مزمارين من القصب مرتبطين بوعاء جلدي حيواني كقِرْبة أو شكوة الرعاة، تسمى هذه الآلة الموسيقية العجيبة «كاراميزنا»، ويعزف رجل آخر على آلة موسيقية «مازركا» وهي تشبه الأكورديون في تناغم ورجع موسيقي جميلين مع نغمات قوية وشجية لآلة «الماندولين».

تسحب دومنيك سالماً من يده سحباً خفيفاً نحو الحلقة وتقول له:

- تعال...! نستمع بالغناء الكورسيكي الرعوي الجميل....

- وي...! لنذهب...!

يتمشيا فيطوق خصرها بيده، في مشهد رومانسي، فتتهرب منه بخفة ولباقة وكياسة وهي تضحك ببراءة وتقفز كطفلة مدللة، وتخطو بعيداً عنه، يتعقبها بنظراته زائغة، ويتوعدها مبتسماً بحركة من يده، فتتحول من الضحك إلى القهقهة، فجأة تتسمر في مكانها وتضع يدها على فمها بقلق، جحظت له عيناها، وبدت كالمصدومة بذهول، واصطبغ وجهها بمسحة حزن عميق، فانثنت كعداءة متعبة عند خط الوصول، وهي تسند جسدها بركبتيها، وغلبها الخنين من البكاء فأشارت بيدها، وهي تردد: «لا يمكن... C'est pas possible» التفت سالم إلى الجهة التي تشير إليها، فصدم هو أيضاً، وهو يرى البقال ماسين الجزائري، يخطو على بعد أمتار من الجسر، وهو يترنح من سكر طافح، ويحتسي الخمر عباً بدون قدح من القنينة مباشرة وقد سترها بورق الجرائد، ثم صعد على الحاجز، وبدأ يصيح «!je m'étouffe! .... la merde ....... تفو... أختنق» فخاف الناس عليه، وخشي سالم أن يرمي بنفسه في مياه نهر السين، فأسرع إليه ووثب حتى شده من حزامه وأنزله بقوة، تدحرجا معا على الأرض، وتناثرت شظايا القنينة وهي تلتطم بالأرض، فصرخ الصغار خوفا وامتعض بعض الزوار من العنصريين الذين اغتنموا الفرصة، لانتقاد العرب والأجانب، كأن الجسر الجديد، لا يشهد عربدة ولا محاولات انتحار من فوقه، من عرقيات أخرى، وجلسا معاً على الأرض يتحسسان جراح ركبهما، سالم يلهث وماسين يلعن ويسب ويشتم الكائنات والوجود.

قال ماسين الجزائري صاحب محل البقالة وهو زائغ البصر ثقيل اللسان، مضطرب الحركات «هنا...نعم... هنا... كنت ألتقي «نتاليا»، حبي الأبدي، على الجسر فوق القوس الثالث، هنا تعاهدنا على الوفاء والإخلاص، لا أعرف لمَ رفضت الزواج مني...... لن أتركها كما فعل أبوها لأمها... والله... أقسم... أقسم بشرفي...؟» يستلقي على الأرض، يمد رجليه، يغلبه فواق شديد، يشده سالم من وسطه، فيعجز عن جعله منتصباً، فيجلس معه، يغفو ماسين على صدره، يوقظه برجة قوية وهو يردد: «اسمع

يـا ماسـين! لـن أردد هـذا الـكلام مـرة أخـرى، هـي لم ترفضـك، بـل هـي في معضلـة، في وضـع صعـب، أمهـا ترفضـك وتهـدد بالانتحـار إن تزوجتـك، وهـي المسـكينة غارقـة في حبـك... لم ترفضـك أنـت بـل خافـت عـلى أمهـا... هـي الضحيـة ولسـت أنـت... لا تبـك بجبـن، جـد حـلاً للوضـع، صححـه، لكـن بهـذه الطريقـة، سـتكون الأم البولونيـة صادقـة ومحقـة حـين تقـول إن العـرب لا يتحملـون المسؤولية» يضحك ماسين، ويقـول متثاقلاً هـو يلـوي لسـانه: «وأنـا لسـت عربيـاً، أنـا أمازيغـي... شـلح... مـن الشـاوية... ورجـل... والله الرجولـة...» يـرد عليه سـالم مبتسـماً: «يـا ماسـين.!...ما إن نقـف أمـام الجمركـي عـلى الحـدود حتـى نصنـف عربـا، عـلى جـوازك لا تظهـر جـذورك، بـل يظهـر الوطـن فقـط الـذي ننتمـي إليـه جميعـاً، مهـما تعـددت وتشـعبت أعراقنـا وتباينـت معتقداتنـا... كـن مـا شـئت إذن، وجِـدْ حـلاً لهـذا الوضـع الصعـب التـي تعـاني منـه نتاليـا، ولا تبـك عـلى حالـك... تذكـر هـي الضحيـة...».





# ٧

ظـل سـالم شـهوراً ينتظـر بشـوق ولهفـة، عـودة دومنيـك التـي سـافرت إلى مـصر، ولا يـدري هـل اعتصـاره وألمـه مـن شـوق جـارف أم مـن شـهوة طاغيـة تطلـب الجسـد الطـري، ومـا حسـم أبـداً في السـؤال، لأن في صـدره تختلـط وتضطـرم اللواعـج... شـوقاً... نزوة... ألفـاً... شـبقاً... غوايـة... حنينـاً... وفي عقلـه يتماهـى الحـب والشـبق. انتظـر عودتهـا ومـا لهـما مـن وسـائل للاتصـال غـير رسـائل تائهـة تـأتي مـن حـين لآخـر، دومـاً متأخـرة، بـاردة العواطـف، تقريريـة الخطـاب، جافـة المشـاعر، لا تحمـل غـير الأخبـار والأحـداث، بـلا رومانسـية طافحـة ولا عاطفـة جياشـة، ولا بـوح عـن شـوق ولا ألم مـن حنـين، وطغـت البطاقـات البريديـة عـلى هـذا الشـكل مـن التواصـل النمطـي، كأنهـا تقـوم بالواجـب لا غـير، بطاقـات تـؤرخ بهـا لحظـة وجودهـا بمـكان مـا، وفي زمـن مـا.

طـال غيابهـا حتـى خفـت الشـوق، وخمـدت اللوعـة، أمـا هـي فقـد رمـت وراء ظهرهـا كل عاطفـة جياشـة تشـدها للضعـف، وبـكل شـعور يئـد بـذرة التسـامي والتعـالي، ويقتـل فيهـا حمـاس التنقيـب بشـغف ويعطـل الجشـع المعـرفي عـن تجليـات حضـارة ألهمـت وأبهـرت العـالم، وأخرجـت للوجـود مـا عجـزت عـن فهمـه العقـول العلميـة

المؤازرة بالآليات المتقدمة ، وتاهت في مفاتن وسحر الوجود البهي المتناغم في ألفة لبلد لم يكشف بعد كل أسراره، رغم تعدد روافده الإنسانية والحضارية، فكل قطعة من مصر تشكل تاريخاً عريقاً، وكل تحفة منها تخبئ أسراراً بعيدة وأنباء تليدة.

اختلطت دومنيك بالناس والأهالي من «الصعايدة» والفلاحين وأهل المدن، فسكنت الإسكندرية، كما سكنتها هذه المدينة الساحرة، تاريخاً وفكراً وإنسانياً، وهناك تعرفت على أحمد البحار المصري، الذي شغفها حباً، وفتح لها بوابة الحضارة من شرفات الإسكندرية.

قبل أيام وصله خطاب وصورة منها، تمعن في الصورة جيداً، كانت لها ولشاب مصري أسمر في الأقصر، وكتبت على ظهرها «أنا وأحمد» داخل رسم قلب أحمر، وفي الرسالة ذاتها سردت مسار هذه العلاقة مع أحمد المصري الذي أحبته حباً كبيراً، وهامت به، ولم تستطع أن تتحرر منه، وهي تقبل أن تعيش معه إلى الأبد ولو أمة جاثية بين رجليه، ومما جاء في رسالتها «هذا هو الحب الحقيقي يا سالم....! لا يمنحك فرصة التفكير، ولا يستشيرك، ولا يمنحك فرصة التدقيق في المصائر، لا يسائل الأفكار بل يتحداها ويعصف بها عصفاً، هذا هو الحب الذي شعرت في أحضان أحمد، يخلخل البدايات و يؤزم النهايات، لتعلن بدايات جديدة، هذا هو الحب الحقيقي، الذي تذوب في وجوده كل الأفكار والإيديولوجيات، لأنه يصير هو الحياة، هو النفس الطبيعي للوجود، هو الأفق المبتغى للروح المسافرة في أحراش الوجود التافه العدمي، هو الدم





المشتعل وهجاً، المتدفق في عروق الكينونة كي تعلن عن الجوهر فيها، هو دفق حبور يغمرك وأنت واقف على الرصيف تلوح لسيارة أجرة، وفي دهشة في حديقة عامة حين تتطاير جريدتك، وحين تحط، تحط حيث ستتغير حياتك، هذا هو الحب الحقيقي... يسيطر عليك ويعطل فيك كل حذر وتوجس، فيصير قدراً ومصيراً لا مفر منهما، رجاء، لا تحاكمني بل افهمني... مع أحمد لأول مرة عرفت الأمان الروحي والسكينة، معه أستطيع أن أكون امرأة فقط..معه أكون ما أنا عليه، معه أكون فقط أنثى لأشعر أنني موجودة».

جمع كل رسائلها وبطاقات البريد وأحرقها حتى صارت رماداً، ثم نثرها مع الريح على الجسر الجديد فوق نهر «السين»، وعرى صدره، ليتنفس نفساً عميقاً جديداً، وودعها في عقله، مبدداً صورتها وطيفها كما تبدد وتلاشى الرماد، وعزاه العابرون بتعاطف غريب، ومواساة بالكلمات والعبارات الطيبة، آه....!! ما أطيب هؤلاء الفرنسيين...! ظناً منهم أن الرماد لعزيز رحل، تحلقوا حوله، فضموه ضمّاً، ومنهم من بكى معه مواسياً بحرارة، الفرنسيون لا يزيفون عواطفهم، إن بكوا بكوا حقاً، هم شعب رومانسي وعاطفي جداً، واللحظة يشاركه الأغراب منه ألمه، ربما مستحضرين عزيزاً أو قريباً رحل، فبكى حتى غسل القلب من صورتها، وبكى حتى تلاشت النزوة واللوعة.

وفي آخر الليل، أشارت إليه بائعة هوى وهي تتكئ على حاجز الجسر، بإيماءة جنسية مثيرة، وكشفت عن ساقها الجميلة

وجـزءا مـن فخذهـا الشـمعي الملفـوف في جـورب طويـل أسـود شـفاف مخمـلي مثـير، ثـم غمـزت وأرسـلت لـه قبلـة في الهـواء، نظـر إليهـا ومـازال يكفكـف دموعـه، وارتفـع الغنـاء الكورسـيكي في سـاحة «دوفيلـين»، فهـرع إلى بائعـة الهـوى التـي ضمتـه ووشوشـت في أذنـه فضحـك، سـارا معـاً ويـده تطـوق خصرهـا، حتـى اختفيـا عـن الأنظـار.

طـرق سـاعي البريـد بـاب شـقته ذات صبـاح أكتوبـري، هـرع بسرعـة ليفتـح، سـاد صمـت رهيـب لحظـة، وهـو يتأمـل في وجـه الرجـل وقـد اعتـصر وجهـه دمـاً، وجحظـت عينـاه، ويزحـر زحـيراً شـديداً، اتـكأ عـلى حاجـز الأدراج، وقـال بضيـق نفـس، وهـو ينـزع قبعتـه، ويمـرر أصابعـه عـلى مقدمـة رأسـه الصلعـاء مجففـاً العـرق:

- واو....! الأدراج ضيقـة.... ومتعبـة....أف... آه.... !أف...! صبـاح الخـير سـيدي... أف....!أف...!

- صباح الخير...!

- هه...! أف...! أف...!أنت السيد «سالم الزموري»؟.

- نعم سيدي أنا...

- رجاء....! استلم هذه البرقية من المغرب، ووقع هنا....!

- أين ؟

- تلـك الخانـة... تحـت... هنـا ... تحـت تاريـخ التسـليم ١٠ أكتوبـر ١٩٥٢...





- هنا...!

- نعم ...! اضغط على القلم فهو في رمقه الأخير...

- وي...! شكراً....

- لقـد أسرعـت بهـا إليـك... البرقيـات تخيفنـي فهـي إمـا نذيـر أو بشـير... لهـذا لا أتلـكأ أبـداً في توزيعهـا بسرعـة....

- شكراً لك سيدي...

- تعلـم أن غـداً بدايـة عطلـة نهايـة الأسـبوع، ولـن تتوصـل بهـا إلا يـوم الاثنـين، قلـت ربـما يكـون الأمـر مهـماً، أو.... لا أدري... المهـم ... إلى اللقـاء...

يسـتلم سـالم البرقيـة، بعدمـا وقـع في كنـاش سـاعي البريـد عـلى صفحـة صفـراء شـاحبة، يقـول وهـو يطـل مـن فرجـة ضيقـة للبـاب المـوارب:

- أفهم... شكراً.... إلى اللقاء...

لا يـرد عليـه السـاعي والأدراج الصـماء تبتلعـه، وقـد ألـف السـلم زحـيره وضيـف تنفسـه، واعتـاد الحاجـزان ثقلـه وشـغب كرشـه المتـدلي، ولم تعـد النوافـذ الجانبيـة تتـبرم لتبرمـه، ولا الحيطـان المصقولـة كالرخـام، تشـكك في عرجـه وهـو يوقـع عـلى الأرض إيقاعـات خطواتـه المتفاوتـة، لم تكـن البرقيـة مـن «دومنيـك» كـما توقـع، فخـاب ظنـه وفي الوقـت نفسـه انتابـه قلـق، وهـو يقـرأ مصدرهـا ومرسـلتها، فهـي مـن المغـرب، موقعـة باسـم ابنـة عمـه «بحريـة»، لم يعـرف لِمَ

تكفلت هي بالأمر دون بقية الأسرة، ربما تحاشى الجميع إخباره بأمر جلل، قرأ السطور بسرعة كأنه يلتهم الورقة، وقلبه ينفطر، وأصابعه ترتجف: «احضر يا ابن عمي للبلد، أمك جد مريضة، وتطلب رؤيتك قبل الرحيل... لا تتأخر...».

أخذ أول طائرة متجهة نحو المغرب من أسطول «أطلس آير»، لم يكن في حقيبته ما يلزمه من اللباس للسفر أو الإقامة طويلاً، فقد جمعها بعقل شارد، وعواطف مضطربة.

لم يجد أحداً في استقباله، فاضطر إلى الاتجاه صوب محطة« كراج علال»، بواسطة سيارة أجرة تعطلت أكثر من مرة، ونزل السائق العبوس المتبرم عدة مرات ليملأ برادها بالماء، وسط البخار المرتفع، وحين وصل استقل حافلة متعبة متهرئة، ولم يكن له خيار، وهو يعرف بلده وقدراته لكن يبدو أنه ألف النعيم والمواصلات النقية ذات المواعيد الدقيقة بباريس، يزعجه صوت المحرك العالي جداً، وهديره القوي الذي تهتز له الأجساد، والروائح العفنة منتشرة في الأرجاء من قيء الصغار والنساء، وغائط الرضع، وبلل خرقهم، وقد تكدس المسافرون نساء ورجالاً وأطفالاً بين الممر وعلى المشبك الحديدي لسقفها، وفشت رائحة دخان العادم، فكادت تخنقه، متسللة من شروخ على سرير الحافلة، فتضيق أنفاس الصغار والشيوخ والعجائز أيضاً، فيكحون طوال الطريق، ويسعلون حتى يكادوا يلفظون رئاتهم قطعة قطعة، بينما السائق يدندن برأسه على إيقاع أغنية شعبية «مرساوية»، وما انفك مساعده الجالس على غطاء المحرك، يهتز دون أن يتوقف



عن التدخين بشراهة تبغاً رخيصاً وقوي الرائحة، رحلة مضنية، أتعبته لساعات محطة من «كراج علال» بالدار البيضاء إلى مركز «هوارة» بالنقطة الكيلومترية ٤٤ المؤدية صوب أكادير.

ما إن حط الرحال بمركز قرية «هوارة»، حتى تعرف عليه بعض الناس، ممن يبجلون ويقدرون أباه الخليفة «الزموري»، أو يخافونه ويهابونه لما لهم من مصالح ومنافع متبادلة معه، ولما لأبيه من سطوة وجبروت، فتحلقوا حوله مرحبين مهللين ببشاشة وترحيب عارمين، وصخب وهرج، فصاح باسمه الفتيان والصغار، وهم لا يعرفون لماذا، فقط فعلوا ذلك لأنهم رأوا الكبار قد أسهبوا في التبجيل والترحاب، فوزع عليهم الحلوى وقطع الشوكلاتة والعلك، فتزاحم وتدافع عليه الحوذيون عارضين خدماتهم المجانية لإيصاله إلى الدار الكبيرة، فبلغ خبر عودته القائد «القرشي» وما نجم عن ذلك من صحب وجلبة ولغط العامة وهتافهم باسمه، فاغتاظ من احتشاد الناس حوله، وتصايح الصغار باسمه، فأمر المخازنية العسس بإحضاره فوراً، وتفريق الحشود من المرحبين والمهللين بالقوة، وتشتيت المتحلقين بصخب، وزجر المتحمسين المبالغين في التقدير ولو بالضرب، وقطع لسان الصغار إن تطلب الأمر، وناجى نفسه بغضب «ظننا أنفسنا تخلصنا منه، ها هو يعود ويسمح للناس بتقبيل يده، نعم... يا «ابن الزموري» صار الناس يهرعون إليك في الأسواق، ويحتشدون للسلام عليك، والذراريُّ يصيحون باسمك... فماذا تركت للمخزن ورجاله...!؟».

سحبه رئيس عسس «القيادة» برفق وهو منشرح مبتسم دون غلظة ولا فظاظة، وكان أكرش قصير القامة سميناً، ونزع قبعته العسكرية، وغدا يحك مقدمة رأسه الصلعاء، وهو مطرق الجبين، بدا مرتبكاً ومحرجاً، شديد الالتفات، فقبله على خديه بحرارة حتى دمعت عيناه، وضمه ضماً قوياً، ثم همس بأذنه خلسة «احذر...! القائد يدبر لك مكيدة...» ثم غيّر نبرة صوته صائحاً بقسوة مفتعلة بصوت جهور: «تعال يا سالم... !القائد يطلبك... صبرك الله...».

ظلت عبارة «صبرك الله» تضج في خاطره، لمَ طلب له الصبر؟ الصبر لا يكون إلا في مصيبة... والموت هو أكبر المصائب... أتكون أمه رحلت.

ولج «الرياض» الشاسع الأطراف، كقصر من عصر المرابطين، حيث انتشرت أنواع الأشجار المثمرة، والنخيل، ويجري الماء في خرير جميل في قنوات أرضية عارية من الإسمنت تحيط بسور الرياض العالي، فكان المشهد أسطورياً سحرياً، كأنه خرج تواً من قصة ألف ليلة وليلة، وانتظر وهو مستلق على الفرشة الوتيرة، المفروشة على شبه سرير خشبي، من خشب صقيل من عرعر، وفرشت الأرضية بالزرابي المزركشة تحت سقيفة من عيدان وأغصان العنب ونبات اللبلاب، تكاد الطيور تحط على رسوم الزرابي وقد تشابهت عليها رسوم الأفنان والأغصان.

مطرق الجبين لا من خوف ولا وجل، بل هي عادة الناس





هنا، الصغير لا يرفع النظر في الكبير، ويطرق الجبين في حضرته، وكان القائد القرشي محاطاً بالعسس والحرس، تلفه الجلابيب الثقيلة، ويغطي رأسه بعمامة بيضاء ناصعة، خرج إليه ولم يسلم، بل طفق يذرع المكان وهو يضرب بعصا غليظة على الأرض ثم يقول مزمجراً جاحظ العينين:

- اسمع...! إياك أن تفعل ما يغضبني، جئت زائراً مرحباً، مقيماً لا عيب في ذلك لكن، لن أسمع منك ما يغضبني وينفر القائد الكلاوي ولا النصارى، هذه المرة لن أرحمك، ولن تجد من يجيرك عند قبائل «حاحا» أخوالك، لا تغتر بهذا الترحيب من أولئك الحمقى في البلدة، فهم يبيعونك حالاً من أجل رغيف، وينفضون عنك عند الشدة والحسم، أنا أعلم بهم فهم أهل نفاق، يدفعون بك إلى الأمام حتى إذا ما استعرت والتهبت نار المواجهة، تركوك وعادوا مدبرين.

- في حاحا الرجال الأشداء والشجعان النبلاء، وهنا... أنا أدرى الناس بقومي، ليسوا جبناء، وما عهدتهم يخذلون أو يتأخرون عند الزحف، وفيهم الشجعان وأعطوا للوطن الشهداء.

- الزحف....! عدنا إلى الكلام الذي لا يأتي منه غير صداع الرأس... يا بني أبوك خليفتي ومن الأعيان ومن وجهاء البلد، ومصلحته معي ومع القائد الكلاوي والنصارى، لا مع الغوغاء الذين تسميهم أنت الرجال الأشداء.

حملق سالم في هذا الرجل الذي دَاخَ البلادَ والعبادَ، و أخاف

الضعاف والشداد، وتخضع له النفوس طائعة أو كارهة، فوجده شاحباً، أزرق الشفتين، أعراض المرض بادية عليه، تجاوز الستين سنة، ما أضعفه العمر ولكن مرضاً ما أوهنه، كان القائد قصير القامة، مدور الرأس، ضيق العينين، أفطس الأنف، خفيف الشارب، قليل شعر اللحية، متساقط الثنايا، أهدل الشفة السفلى، حتى إنه ليلثغ في الحديث، ويصدر صفيراً وينثر رذاذاً من لعابه، يتعصب بعمامة بيضاء « ، ويرمي على جثته النحيفة برنساً بنياً غامق اللون، فوق قميص قفطان أبيض بأزرار من حرير على النحر والياقة، ضآلته مثيرة وغريبة في مفارقة مع كرشه المتدلي والذي يشد جسمه إلى الأمام، فتقوس له حوض ظهره، وبرزت عجيزته وإن كانت غير ممتلئة، كمتوثب، وعلى خلاف القواد الآخرين، ينتعل حذاء عصرياً أبيض بسيور بيضاء، وجوربين أبيضين بزركشة خضراء.

- أراك تحملق في، ألم ترني قبل يا ابن الخلفية؟!

يرد عليه سالم وهو مطمئن بلا خوف:

- ما جئت إلا في زيارة صلة الرحم، وقريباً سأعود إلى فرنسا لمتابعة الدراسة

- لا تنس خير فرنسا عليك، فبأموالها تدرس وتتعلم وتنعم في أرض النصارى.

- لا هذا خطأ، بل بأموال البلد، فرنسا تأخذ كل شيء وتعطي القليل...



- عدت لهلوستك، اسمع لا أريد أن أسمع منك مثل هذا الكلام، فهو كداء السل، ينتشر بسرعة، فلا تدفعني إلى عزلك عن الناس، حتى لا يصيبهم وباءك الخبيث.

- سيدي.... أنا....

ينادي القائد وهو يسعل سعالاً شديداً مؤلماً، على حوذي بصوت مجلجل جهور:

- ولد المكي.... ! ولد المكي...! تعالَ.! يا بني!

يهرع أمين الحوذيين المسمى «ولد المكي» نحوه بسرعة وخفة وهو يشمر تلابيبه عن ساقيه حتى زلت قدمه على العتبة من اضطرابه، وكانت له عربة مشهورة لا يركبها إلا الأعيان ووجهاء البلد، يسميها «العروسة»، مغطاة بسقف خشي مصقول تبغي اللون، ولها ضلعان جانبيان من خشب الصنوبر المجلي والمطلي بصباغ أخضر خفيف، وعلى كل جانب نافذة تسدل عليها الستائر للوقاية من الحر والقر، يعطر داخلها ببخور طيب الرائحة، ولا يكف عن تمشيط الفرس الصهباء الجميلة، يقول وتكاد العبارات لا تخرج من فمه كأن به عياً وهو ينحني مراراً وتكراراً ويقف:

- نعم سيدي القائد...! نعم....!

- خذ ولد الخليفة إلى داره بدوار «القرافشة».

- نعم...! حاضر سيدي...! نعم ... حالاً...!

على الطريق الرملية المختلطة الحجارة بين صخور حادة

وأخرى ناعمة صفواء، سارت العربة والحوذي صامت بوجوم، فقط يحثّ البهيمة بالتلويح بالسوط عالياً ولا يضربها أبداً، ويرد السلام على مضض على السابلة والعابرين، أشعل سيجارة ونظر في وجه سالم، ثم أشاح عنه النظر، وأعاد النظرة نفسها، فجأة أمر فرسه أن تتوقف، فرمى بنفسه في حضن سالم وهو منتحب، ثم نظر في عينيه نظرة قاسية، وحثّ الفرس على السير بقسوة، ربّت سالم على كتفه وقال بصوت خفيض:

- تكلم! ماذا بك؟

طفق الحوذي يرمقه نظرة ثم يشيح عنه للحظات، وهو يتأفف متبرماً فقال بحنق:

- هل أنت مجنون أم عاقل...؟

- لم أفهم... هل أبدو لك مجنوناً.؟

متفرساً فيه وهو يفرك ذقنه يردف:

- «على شوفة العين» نقول عاقل، تلبس لباساً نقياً وحذاء أنيقاً بجوربين، تمشط شعرك اللامع ولا تصرخ وتتعرى... نعم....

يضحك سالم حتى تبدو نواجذه، ويقول وهو يربت على ظهره:

- إذا...؟ عاقل.... لا شك...

- لكن... لم أفهم كيف تعود للعيش معنا حيث الهم



والغم والنكد، والوسخ والعفن، وتترك بلاد النصارى و«الزين» والعطور والوجوه الوردية... آه....! آه...واو...! والنساء الشقراوات... ذوات العيون الزرقاوات، والخير يعمّ كل مكان، مزابلهم... مزابلهم يا أخي...! تطعم القرية كلها... قيل لي إن ملابسهم القديمة... لا ليست القديمة بل المستعملة مرة أو مرتين يضعونها على العتبات، يأخذها من يشاء بلا ثمن، وقد أسر لي «ولد المختار» أن كل الأثاث الذي جاء به من بلجيكا كان مرمياً على الرصيف، أفهمني أنت إذن كيف تختار العيش بيننا وسط الغبار والمتحسسين والجواسيس، حيث القمل والبرغوث يمتصان دماءنا، ولا نهنأ بلقمة عيش سائغة.

- اسمع....! «البراني» أي الغريب «عقبتو لبلادو» لا بد أن يعود يوماً إلى موطنه، وكما يقول المثل «قطران بلادي ولا عسل بلاد الناس».... وهذا بلدي على كل حال، ولا ينكر أصله إلا جاحد.

يحثّ ولد المكي الفرس على الوقوف يرخي لها العنان، ثم يحملق في وجه سالم ويقول بقلق وباستياء:

- هل تعني أنني جاحد؟

يفكر سالم ملياً وقد رأى في عيني «ولد المكي» حمية واعتداداً بالنفس برقت لهما عيناه فيقول مبتسماً وهو يربت على كتفه:

- حاشا...! ما عاذ الله أن تكون جاحداً...

- لكنك قلت ذلك...

- قلت من يفكر بهذه الطريقة، سيكون جاحداً ناكراً لجميل الأرض التي حملته ووهبته الهواء والماء والمجد، فأرضك يا ولد المكي...! ليست طعاماً وفيراً ولا لباسا أنيقاً ولا فراشا ووثيرا ولا نساء جميلات... بلدك هي حياتك.. هي أنت... هي الهواء والماء والحرية.... كيفما كانت تسكن قلبك، وتتنسم هواء الحرية فيها... أرضك هي ذاك الجزء من الكون الذي تتنفس فوقه الحرية...

يحث ولد المكي الفرس على السير ملوحاً بالسوط في الهواء وهو يقول باستغراب وتعجب:

- قل لي هل أنت لست حراً في فرنسا!؟ كيف....؟ حي وميت في الوقت ذاته... لا أصدق أن ابن الخليفة الزموري يهذي وينطق بالتخاريف... الهواء... الهواء هواء الله، والماء ماء الله، لا يحوزهما أحد دون الناس... هل هواء النصارى غير هوائنا هنا؟

- لم تفهمني... في الغربة تكون حراً وغير حر...

يشعر سالم بالعجز، فيقول متبرما:

- لنذهب..لنتحرك...!

يحملق فيه ولد المكي، وقد حثّ الفرس على الوقوف:

- لم أفهم... أتضحك علي... لن أتحرك حتى أفهم...

- حر في بلدي، وفي بلدي الأغراب حريتي دائماً محدودة





بإحساسي بالغربة وبضرورة مراعاة لعدة أشياء في طريقة الأكل والفرح والحزن وحتى البكاء والضحك والعطس والتشاؤب...

- كل الناس تبكي بالطريقة نفسها، ونأكل ونشرب كما يأكل الآخرون عدا تلك التخاريف من ملاعق وشوكات، وكثرة الأطباق، ومناديل على الصدر، أما الفرق ففي الأقوات والأرزاق والأطعمة والطيب والنساء.

ينخس ولد المكي الفرس «أيه....سر.... تحرك»، بينما يستطرد سالم قائلاً:

- كل شيء موجود في البلاد، البلاد فقط تحتاج إلى رجال صادقين، وإلى نخبة مثقفة وقائدة تدبر الانتقال نحو الاستقلال.

- لم ينفع الرجال القادة، فكيف تنفع القائدة؟ وهل نولي أمورنا «امرأة» قل كلاماً آخر... ربما جننت... لم أر قائدة ولا سمعت عنها فوق الأرض...

- يا أخرق....! النخبة القائدة... لا القائدة مؤنث القائد الذي هو رأس من رؤوس السلطة... النخبة القيادية تعني الجماعة المسيرة.

- وما دور «جْماعة» في الأمر؟

- أوف.... ستفجر لي عرقاً في الرأس... يا ولد المكي... أقصد الجماعة التي تأخذ بيد الناس... أقصد أخيار الناس...

جماعة هي «جْماعة».

- ...اصمت ... والله ... اصمت وإلا صفعتك... أحس بالدم يغلي في عروقي....

- أريد فقط أن أفهم... معنى «جْماعة».

- أقصد مجموعة... من الوطنيين الذين سيخرجون فرنسا من المغرب.

- هل جننت....!؟ فرنسا تخرج من المغرب!؟ قل كلاماً غير هذا...!؟ دبابة واحدة من جيشها تدك حياً بكامله، هل نتعارك معهم بـ«الجباد» بالمقالع... والخناجر؟ اسكت قد يسمعنا من يريد مد شعير مقابل خبر عنا......إيه...نسيت أن أعزيك في المرحومة... آجرك الله...

- من تقصد؟

- أمك رحمها الله «مي الزاهية».

- وهل ماتت...؟!

- نعم ...!منذ أسبوع... رحمة الله عليها... ألم تكن تعرف؟

مضطرباً وقلقاً يضع ولد المكي أصابعه على فمه ويقول مغمغماً:

- سامحني...أوه...! علي أن أتعلم «إغلاق» فمي.

يشعر سالم بالغثيان، تجد غصة خانقة طريقها نحو صدره،





يحثّ الحوذي على الوقوف وهو يومئ له بيده، وقد غدت الأرض تدور تحت قدميه:

- توقف رجاء...! الله يخليك...توقف...!

يترجل من العربة، يجلس القرفصاء على الأرض، يشدّ رأسه بين يديه، يميد حزناً وكمداً بجسده كسفينة تتمايل على موج هادئ، يصدر عنه أنين خافت حاد، كأنه يعالج حزنه القوي واضطراب مشاعره العميقة، ويلطم لطمات خفيفة على فخذيه، ألم في الحلق، غصة في الصدر، شهيق وزفير قويان متسارعان، آهات ونشيج، والدمع متمرد على السيلان لتبريد حرقة الألم، ينتصب واقفاً، ويطفق يجري، ويجري... يجري... يجري... صارخاً: «لا.... لا.... لا... أمي... أمي...» حتى أصابه الإعياء، فاستلقى على الأرض يلهث بزحير شديد. استجاب أخيراً الدمع الذي تمرد على اللوعة والشجى، فغسل الصدر بالعبرات الرحيمة، وأطفأ الحرقة بلله البارد، رقراقاً أبرد جمرة الجفون، وبدد الغصة في الحلق، ونفس عن الروح لواعجها القوية.

زحف الليل بظلاله الكئيبة، وغدا يغمس الأشياء والأحياء بلا رحمة في محبرته السوداء ويخرجها حالكة الأشكال، وهما في الطريق نحو هضبة «القراقشة» وغطى الضباب الكثيف الأجواء، وغدت الرؤية صعبة، أشعل الحوذي القنديل وعلقه فوق العربة، وحثّ الفرس على السير بسرعة، فكانت توقع بحوافرها إيقاعاً رتيباً لكنه مخيف في هذه الطريق الموحشة المنتشرة الحصباء، ما

إن يبدو له ضوء خفيف شاحب في العتمة، حتى يخفف حثيث الفرس المتحمسة للعدو، ويصيح : «إيه....هيه... أوه... إيه... » حتى يلفت انتباه العربات والسيارات على قلتها.

توقف الحوذي في مركز البلدة لحظة، كي يستسقي لفرسه، فأثار فضول الناس وزبائن المقهى الأمر، فتصايحوا فيما بينهم، فولد المكي لا يسمح إلا للأعيان والنصارى بركوب عربتها العروسة، علموا بحدسهم أنه يقل شخصية مهمة، فاقتربوا من العربة، فأطلّ عليهم سالم، فصخبوا حينما رأوه فرحاً وابتهاجاً لرؤيته، وحين ترجل غمروه بالعناق معزين، والقبل والضم بعفوية عارمة، وصدق جارف، باكين منتحبين «مي الزاهية» زوجة الخليفة، فقد كانت طيبة، وعطوفاً لا تبخل على فقيرهم بالقليل ولا بالكثير، واستغربوا لتغيره الشديد، فمنهم من أوعز شدة بياضه وامتلائه إلى الماء والطعام ونوعية الجبن والزبدة، ومنهم من أوعز ذلك إلى الصابون الفرنسي والحلوى، ومنهم من أوعز ذلك إلى عدم شروق الشمس أبداً كما يظنون، وسار وسطهم مبتهجاً سعيداً منتشياً برهطه، فهم قومه، وهم ظهيره وعشيرته، وبهم يدفأ ويتقوى، ومجدهم مجده، وعارهم عاره، وما خذلوه يوماً وما خنعوا عنه، فغاص وسط جلابيبهم الثقيلة، لا يظهر منه غير رأسه، وجلس بالمقهى رفقتهم بصخب وترحيب، قاسمهم الشاي والرغيف، وتجاذبوا أطراف الحديث، وزع عليهم علب السجائر والعلك والشوكلاتة، واعتذر لهم «والله لم أحسب لهذا السفر حساباً، تعرفون السبب وكلكم تستحقون كل الخير



يا جماعة» وفي لحظة ارتفع صوت ولد المكي حاداً وهو يلوح بالسوط:

- سي سالم...! هيا...! لن نبيت هنا....

وارتقت العربة المنحدر الوعر على الطريق المسلكية، حتى توقفت عند بوابة الدار الكبيرة، نبحت الكلاب بشدة، فخرج العسس، يسبقهم النمرود الذي أومأ إلى أحد العسس فصاح:

- من....؟ شكون.....؟ تكلم... !

- أنا ولد المكي الحوذي...

- ومن معك؟

- سيدي سالم.

- سيدي سالم...!؟ أتمزح يا ولد المكي...!؟

- اخرج لترى... ولد المكي لا يمزح في العمل...

- أتقول سيدي سالم!؟

- نعم... يا وجوه الشؤم، نعم سيدي سالم الزموري... ولمَ أكذب يا بهائم؟

تتعالى همهمات وهمسات، تفتح البوابة الأولى برفع رتاجها الصلب، وفك سلاسلها الكثيرة، ثم يطل النمرود من كوة بالباب الثاني، يسبقه نور قنديل كبير، يسلطه على وجه سالم، حتى أيقن

أنه هو، فيرفع العمود الغالق، ثم يخرج العسس، فيحملون حقائب سالم الذي همّ بإعطاء الحوذي أجرته، لكنه حث الفرس بقوة على العدو، وأدبر راجعاً وهو يصيح: «اسمع....! لو احتجت إلي أنا دائماً في قلب السوق.... ارسل لي ليلاً ونهاراً لا يهم... والله لست جاحداً... صدقني... أما الجماعة فلا تعول عليها»، يبتسم سالم بحسرة، وهو يسمع كلام ولد المكي الذي خلط بين مفهوم الجماعة عامة، و«جْماعة البلدة» وهي شيوخها الموقرون الذين يحسمون في الشجارات والصراعات والقرارات المصيرية، كتوزيع الماء على الحقول وفق معادلة تربط بين مساحة الأرض وحصة السقي زمنياً، ويدبرون شؤون الأعراس من زيجات وختان والمآتم والمواسم.

«القراقشة» بلدة صغيرة غارقة في العزلة، منطوية بين أحضان صدر جبال الأطلس الكبير، تبعد عن المركز السكاني الكبير لقرية «هوارة» بأربعة عشر كيلومترات، تتوزع فيها الدور غير المتلاصقة على ضفتي نهر «سوس»، وهي عبارة عن تجمع سكني يتكون من عشرات البيوت والدور الطينية، ذات السقوف المشيدة من سيقان الشجر والنخيل والقصب، والنوافذ المحاذية للأرض، قد يسميها أهل المغرب الأقصى بالجنوب «مدشراً»، وفي مناطق أخرى قد تسمى «دواراً». وتتبع لها إدارياً وقبائلياً دور ومساكن أخرى على بعد بضعة كيلومترات متفرقة شرقاً وغرباً وسط مروج الخوخ والتفاح والرمان واللوز والجوز وحقول الشعير وبعض الخضروات التي تطيق المناخ شبه الجاف، و تتوزع



بها بساتين أشجار الزيتون وأركان، وواحات متفرقة للنخيل، حيث تجري ينابيع الماء منها نحو باقي البلدة، بمركزها مسجد بصومعة لا تتعدى ثلاثة أمتار مجاورة لمكتب البريد، ودكاكين وحوانيت متفرقة، ومحلات للحدادة والنجارة وحرف صناعة الدلاء من سقط عجلات «الكاواتشو» أي المطاط والسلال من الدوم والقصب، وأفران لمواعين الخزف، وعلى ناصيتها نحو طريق أولاد تايمة ينتصب مقهى شعبيّ كراسيه من قصب، وأكثر ما يجلس الزبائن على الحصائر وهي بساط من الدوم، وأكثرهم من أبناء المنطقة لا يأتون إلا ليلاً، حيث يقضون معظم الوقت في لعب الأوراق تحت ضوء شاحب لسراج الكربون ذي الشرارة القوية والمتوهجة. أما نهاراً فيأتي السياح الأجانب الذين يرتشفون الشاي المنعنع أو يطعمون طاجين الخضر ولحم الماعز .

كانت الدار الكبيرة للخليفة في أعلى الجبل، لكن تؤدي إليها طريق مسلكية صالحة لعبور العربات والسيارات، ويسهر على صيانتها شركة للمياه المعدنية مقرها في قمة الجبال

غدت الدار الكبيرة باردة حزينة، بلا أم، غريبة بلا حسها، كئيبة بلا نبرة صوتها، وأبوه منشغل بالعروس الجارية الصغيرة التي أتى بها من «حاحا» وكانت طفلة، لكن الأب جعل لها جناحاً، ووصيفات يرافقنها، دعاه عمه العربي إلى مجلسه، فدخل عليه، ضمّه بشدة وعزّاه وهو يردد بحزن :

- عظم الله أجرك... كلنا لها يا بني... ! ولكل أجل كتاب...

يـرد عليـه سـالم بحـزن طافـح تداعـت لـه العينـان بالدمـع المنهمـر الـذي غلبـه فلـم يقـدر عـلى لجمـه، حتـى انتحـب:

- لا نقول إلا ما يرضي الله... إنّا لله وإنّا إليه راجعون...

- اصـبر يـا بنـي كلنـا لهـا...! دخـل بيتنـا الحـزن مرتـين في سـنة واحـدة، في الصيـف ماتـت أم بحريـة، وقبـل أسـبوع ماتـت أمـك، رحمهـما الله وأحسـن مثواهمـا.

- يـا عمـي لا راد لقـدر الله، والمـوت حـق، ومصيبـة كـما وصـف الخالـق، أعظـم وصيـة في هـذه الرزيـة وهـي الابتـلاء أن تطلـب الرحمـة للميـت والصـبر لذويـه.

يصمـت العـم «العـربي» محرجـاً مـن أمـر مـا يربكـه ولا يظهـره، إلا أن عينيـه فضحتـاه، مـن حـدة وقسـوة النظـر، وفضحتـه تعابـير وجهـه التـي عكسـت مـا يضطـرب في صـدره مـن قلـق، وفضحـه تعـالي أنفاسـه كأنـه يكظـم غضبـاً جارفـاً، وكان يـذرع المـكان جيئـة وذهابـاً بطريقـة مملـة رتيبـة وهـو يلـوي شـفتيه، ويطقطـق أصابعـه، ثـم قـال مسـتجمعاً قـواه:

- لقـد جـن أبـوك... والله جـن... سـمن حتـى كاد ينفجـر في بدنـه القصـير، كرشـه أكـبر مـن بطـن الحامـل، لا يمضـغ الطعـام إلا بطاقـم أضراس، بلـغ السـتين منـذ أعـوام، ومـا بقـي في رأسـه شـعر، حلـق وجهـه الرقيـق حتـى كشـف عـن تجاعيـده الغائـرة الكثـيرة التـي سـترها الشـعر، مـا تـرك فيـه زغبـة واحـدة، وتصابـى... والله تصابـى عـلى كـبر، فتـزوج بطفلـة عمرهـا اثنتـا عشـرة سـنة، أصغـر مـن بحريـة،





وكان المهـر غاليـاً، والله غاليـاً... كـدت أمـوت غيظـاً... و«فقسـة»... تصـور أعطاهـا كيلـو مـن «اللويـز الذهبـي الخالـص»... وثـلاث بقـرات، وناقـة وجملـين، وقطيعـاً مـن الماعـز، والسـمن والعسـل، والشـعير، والأثـواب مـن الحريـر والقطـن والكتـان والمواعـين الفضيـة والنحاسـية...هذا جنـون.! جنـون...! مـن تظـن نفسـها...!؟ أمـيرة...!؟ يـكاد يفضحنـا في البلـدة، فقلـما يغـادر حجرتـه... شـغف بهـا حتـى جـن، جـن والله أبـوك، والله بـه سـحر أو فعـل أنسـاه عملـه وأقعـده.

- هل المشكل في المهر أم في الزواج ؟

- همـا معـاً يـا ابـن أخـي....! لـو تـزوج ممـن تناسـب سـنه، مـا أعطـى كل هـذا العطـاء مـن أجـل طفلـة.... أنـا لمـا ماتـت أم بحريـة، اخـترت مـن تناسـب سـني وأصـلي...

- ألم تكـن أنـت وأبي مـن رعـاة الغنـم عنـد قبائـل بنـي هـلال يـا عمـي...؟

- لا...! أعـوذ بـالله... مـن قـال ذلـك...!؟ أبـداً...! كنـا نشـارك النـاس عـلى الخُمْـس أو الربـع... وكان لنـا قطيـع مـن الغنـم لا يحـده البـصر... وأصلنـا معـروف وشريـف... وكنيتنـا دالـة عـلى أصلنـا... والنبـي كان راعـي غنـم.

- لا تخلـط الأمـور يـا عمـي...! رعـي الغنـم مذمـة لـك، ومكرمـة ومـدح لرسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم، فـلا تتجـوز في الأمـر مـا لا يتجـوز...

عـاد سـالم ينظـر في وجهـه مليـاً، حتـى اضطـرب العـم وارتبـك، فقـال بقلـق:

- ما لك تنظر إليّ بهذه الطريقة !؟

لم يجبـه بـل ظـل يتفـرس في هـذا الوجـه الـذي سـودته أشـعة الشـمس، المنتفـخ الأوداج دون غضـب الأشـدق، الغـارق في التجاعيد المرتخيـة التـي تـدلى لهـا لحـم كثـير، ومـا أخفـى خضـاب الحنـاء شـيب الشـعر الكـث للحيـة التـي غـدت صهبـاء، الجاحـظ العينـين مثـل أبيـه، فناجـى نفسـه قائـلاً: «مـا الفـرق بـين أبي وعمـي؟ كلاهمـا لـه كـرش طافـح، كلاهمـا سـمينان في بطنـة واضحـة، عمـي سـقطت ثنايـاه، ويقطـع في نهـم اللحـم بعظمتـي فكيـه، حتـى اشـتدتا وصلبتـا، كلاهمـا لـه أرداف ممتلئـة، ويسـتران عيـوب وأعطـاب الجسـدين الكثـيرة بجلابيـب وقفاطـين وسراويـل فضفافـة، غـير أن عمـي طويـل، وأبي قصـير، ولـولا أن عمـي صهـر القائـد القـرشي، ومتـزوج مـن أختـه العانـس القبيحـة «إيطـو»، التـي تزوجهـا بعـد مـوت زوجتـه لالـة عائشـة أم بحريـة، لتـزوج أصغـر منهـا... لكنـه خائـف...! هـه...! والله ...! خائـف... وغـار مـن أبي، لمـا رأى الفتـاة الطريـة في حضنـه، وهـو يبيـت مكرهـاً في حضـن تلـك اللعينـة أخـت القائـد القـرشي، الشـتامة السـبابة، السـليطة اللسـان... ».

ثم أشاح عنه بنظره وقال بنبرة عدم اهتمام:

- ومن أين هي...!؟

- من...؟



- زوجة أبي ؟ ما لك...!؟ هل هناك فتاة أخرى!؟

- لا...! الله يحفـظ... فقـط سـهيت وأنـت تنظـر إليّ تلـك النظـرة المريبة...

- فقط كنت أقارن بينك وبين أبي...

يقهقـه العـربي ويـضرب عـلى بطنـه براحـة يـده ويقـول منـشرح الأسـارير:

- هـو أسـن منـي بسـنتين أو أكثـر قليـلاً، أنـا أطـول منـه، هـو عينـاه سـوداوان، أمـا عينـاي أنـا فبنيتـان، هـو حليـق الوجـه، وأنـا كـث اللحيـة، غـير هـذا، فنحـن كالتـوأم، وهـو يحـب العمامـة الصفـراء، وأنـا أفضلهـا بيضـاء...

- مازلت لم تجب... من هي؟

- إنها ابنة الفقيه الحاج «الصرافي» أحد أعيان قبائل «حاحا».

- وكيف يكون فقيهاً ويزوج ابنته الطفلة لأبي؟!

- قـال لا أرى مانعـاً - حـين عـرض عليـه المهـر- مادامـت تسـتطيعه وتحيـض، ولا يجـد في الديـن مـن قـرآن وسـنة ولا في سـيرة السـلف الصالـح والتابعـين مانعـاً لذلـك، وقـال «لا أحـرم حـلالاً حللـه الله، ولم تنكـره القبيلـة ولا العـادات والأعـراف».

- لكنها طفلة.

- طفلـة... نعـم...! قـل لأبيـك هـذا الـكلام وستسـمع مـا

يقتلك واقفاً من الكمد... للأسف هذه أعرافنا وليس في الدين والعرف ما يمنع...

- أي عادة يا عمي... هذه التي تسمح باغتصاب البراءة...؟! الطفلة مازالت تريد اللعب...

- نعم... الغريب في الأمر أني رأيتها سعيدة وتلعب كما قلت.

- قد يكون الأمر عندها مجرد لعب...

- رفضت هذا الزواج واستنكرته حتى هددني أبوك، تعلم أنه عنيد ...

- قل لي يا عمي...! كيف ماتت أمي؟

- «موتة» الله ...مرضت ليلتين فقط... الحمى الغدارة...

- أي حمى!؟

- قال الطبيب حمى «التيفوس» ونصحنا بعدم الشرب من ماء البئر حتى يتم تعقيمه...

- وهل فعلتم؟

- هل نحن حمقى...؟ أي مرض هذا يأتي من ماء بارد عذب زلال طيب المذاق....؟

- ذكرني غدا أعمقه؟

- كيف؟



- الأمر سهل... بالكلور؟

- الكلور!؟

- نعم... وهو مادة سائلة قوية الرائحة، وتقدم مجاناً في القيادة أو في دار الجماعة.... فقط يجب أن تعرف القياس وتترك البئر المعالج مدة أربع وعشرين ساعة قبل الشرب منه.

- وكيف يكون فيه الوباء والمرض وهو صاف زلال؟

- لأن هناك ميكروبات لا نراها بالعين المجردة ...

- ميكروبات؟

- أقصد سموماً، وهي كائنات صغيرة حية، لا نراها بالعين المجردة...

- أكثرت علي يا ابن أخي...

- عذراً أردت فقط أن أشرح لك الأمر، وهناك طريقة أخرى لقتل الميكروبات، وهي تسخين الماء لمدة معينة، ثم تبريده للشرب.

- هذه أحسن وأضمن من «القور...».

- الكلور يا عمي وليس «القور»...

- لا فرق ....قل لي وأنت كيف علمت....؟

- جاءتني.... جا.... جا....

من بعيد ظهرت له ابنة عمه بحرية تلوح له قلقة، وقد

سمعت سؤال أبيها، فاستغرب لهذا الجسد الذي نضج قبل الأوان، ربما تكون في ربيعها السادس عشر، لكنها غدت أنثى تخلب الألباب بجمالها الفطري، سها لحظة وهو يتابع حركاتها، فأومأت من جديد له بيدها أن يصمت، وألا يذكر مصدر البرقية، فعلم مرادها ورد على عمه العربي:

- فقط الصدفة يا عمي العربي، جاءتني الأخبار من صديق....

- نعم...! ولكننا لا نعرف أحد من البلدة في فرنسا...

- يا عمي...! ما لك تحقق كثيراً....!؟ الصديق... ليس بالضرورة أن يكون من البلد، فقد سمع بالخبر في السوق.

- آه...! فهمت الآن...! ممكن....

يلتفت العم وراءه ويصيح:

- بحرية....! بحرية....! الشاي... يا فتاة!!!

ثم يربت على كتف ابن أخيه منشرح الأسارير وهو يقول:

- نرتشف الشاي ثم تدخل على أبيك الخليفة، فقد علم بمجيئك.

- حاضر عمي!

يهم سالم بالنهوض بعدما رشف كأسه الدافئ، فيجلسه عمه قائلاً مبتسماً في وجه زوجته «إيطو»:



- انتظر تريد «إيطو» السلام عليك... تعالي يا إيطو...!

- مرحبا زوجة عمي...!

تبسط زوجة العربي «إيطو» يدها له لتسلم، وهي تقول مصطنعة الضحك وراء حجاب غطت به قمة رأسها، وجزءاً من وجهها إلا العينين، وكان جزءا من ملاءتها التي التحفتها:

- مرحباً...! هوه... ازددت وزناً... هل هذا من الطعام أم من الهواء والراحة.

يشير سالم إلى دماغه بالسبابة وهو يقول مبتسما بمكر:

- من الهناء وراحة البال يا زوجة عمي...

وفي خاطره يتذكر نصيحة صاحبه النورماندي بيير «لا تكثر من الجعة، إني أراك مدمناً عليها، إنها سبب السمنة والكرش، قلل منها، وعليك بالنبيذ... نبيذ بوردو... هو الأفضل» يبتسم ويضيف:

- حتى طعامهم يسمن يا زوجة عمي...!

«إيطو» امرأة في عقدها الخمسين، من النوع من النساء اللواتي لا تستطيع تحديد نهاية ظهورهن وبداية أردافهن، ولا بداية أعناقهن من ظهورهن، كانت كعمود من الإسمنت، طويلة كالنخلة، نحيلة بادية الضعف، لا أثر لخصرها من سموقها المعيب، تعيّر بذات الأنف الطويل، أسنانها متراكبة ومسوسة،

وزغب خفيف، لكن باد ينتشر على شاربها، كانت فعلاً قبيحة الخلق والخلقة.

تدنو من فرشة زوجها، تضع يدها على ظهره، تحسر غطاء وجهها عند جبهتها قائلة وهي تتصنع الحزن والحشمة:

- سالم كأحد أبنائي... لا يصح أن أحتجب في حضوره.

يزكي العربي رأيها ويباركه بشدة وهو يهز رأسه:

- طبعاً... صدقت... نعم...

في خاطره يردد سالم هازئاً «مممممم.... فعلاً يا قبيحة لو نظرنا في وجهك، سنفتتن.... هههههه... فأنت فتنة... لكن من نوع آخر...».

تنظر إليه برحمة مصطنعة وتردف:

- رحم الله أمك، كانت طيبة وكريمة.

استدعى في خلده كل المؤامرات التي تعرضت لها أمه بسبب إيطو، وكل الدسائس والمكائد التي أنهكتها، حتى ربما قضت عليها الحمى لضعف البنية وانكسار القلب والنفس، من كثرة عتاب ولوم الأب الذي لا يتورع أحياناً عن الضرب بالحزام أو الصفع والركل، فيستغرب من ترحم القاتل على القتيل، والجلاد على القتيل، تكاد عيناه تذرفان دمعاً مباغتا، قمعهما بتغيير الموضوع ، ملتفتاً إلى عمه، متسائلاً بفضول وانشغال:





- عمي...! بالمناسبة أين بوشعيب وعزوز وفاطنة...!؟ لم أرهم....

- أخوك عزوز وابني بوشعيب مجندان تجنيداً إجبارياً في الجيش، أما أختك فاطنة فقد تزوجت من ولد الجبلي الزرهوني بائع الأثواب والكتان، وتعيش معه في مدينة «تاونات».

- وهل هي مرتاحة؟

- طبعا لقد ولدت طفلاً جميلاً، وذهبنا جميعاً لرؤيتها هناك، مرتاحة وسعيدة والحمد لله، وأهل زوجها من خيرة الناس ديناً ودنيا، خلقاً وأدباً.

- ولمَ ذهب عزوز وبوشعيب للجيش؟

- قال القائد القرشي، نعطي المثل بأبنائنا نحن الأعيان، حتى لا تتهمنا العامة بالمحاباة والكيل بمكيالين، فأرسلناهما للتجنيد، ورغم ذلك هو لم يرسل ولديه «الضاوي» و هاشماً»... وهذه عمتهم «إيطو» تشهد على ذلك....

- أشهد بالحق، وغير الحق...

من نظراتها برق بريق الافتراء والكذب، وهي تحملق في الوجوه قبل الكلام، فتردف متلعثمة:

- هما لا يصلحان للجيش، أحدهما معيب في بصره أعشى، لا يفرق بين الناقة والبغلة ليلاً، والآخر معيب في قصبة ساقه اليمنى، به عرج خفيف لا يظهر.

ينتفض العربي صارخاً مدحضاً:

- اسكتي يا امرأة....! «الضاوي» نظره أحد من نظر الباز وأما هاشم فما سابق أحداً إلا سبقه... ضحك علينا أخوك... لا يهم الآن.! الجيش يصنع الرجال على كل حال... المهم... انس الأمر وادخل على أبيك...!

- حاضر عمي...

تدبر «إيطو» عائدة إلى غرفتها غاضبة مضطربة، كأنها لم تتقبل ما قيل في ابني أخيها القائد القرشي، فتكاد تكبو في تلابيب قفطانها الفضفاض وهي تغمغم وتهمهم، فيمشي في أثرها عمه العربي، كي يجبر خاطرها وقلبها المنكسرين، فيلاطفها ويداعبها حتى ترضى عنه، فيرضى القائد، فكلما غضبت «إيطو» غضب القائد، ولا أحد يغضب القائد القرشي، الذي إن أرغى وأزبد أحرق الأخضر واليابس، ورضا القائد على العربي من رضا «إيطو».

صعد سالم إلى الطابق العلوي، ووقف أمام حجرة أبيه، ينتظر الإذن للمثول بين يديه، وكان على بابها الحارس الخصي «النمرود»، القصير القامة، الممتلئ لحماً، الصموت لحد العبوس، الأحمر البشرة، الأفطس الأنف، الأهدل الشفة السفلى، لا يرتدي غير جلبابا مرقعا ضيقا، يشده عند الخصر بحزام من قيطان، فينحصر عند ساقيه، مما يسهل حركته، يتدلى خنجره المعقوف على صدره، يلبس خفين من جلد البقر، مازال شعر البقر على وجههما، يقف بلا حراك كالصنم بوجوم ملتبس، لا يكلم أحداً ولا يرد على سؤال،



فقد قطعوا لسانه، منذ سنوات، بعدما حكى ما لا يجب أن يروى من خصوصيات حميمية فاحشة، من حديث الأسرة وهمسات الوسائد، وكشف مازحاً للبعض فواحش الخليفة الزموي، فكان جزاؤه قطع لسانه، وما العمل وهو عبد عنده، بعد لحظات صاح الخليفة: «النمرود.... النمرود... يا بغل ... ! دعه يدخل...!».

فتح النمرود باب الحجرة، بعدما أزاح المزلاج الكبير، وأزاح الأب نفسه من الداخل المغلاق الحديدي، فدخل سالم تحت أنظار الخصي العبوس، وجد أباه يتقلب على سريره، وهو يطعم موزاً، وبجانبه زوجته الطفلة، يطعمها بيده من حين لآخر، لقمة من صحن طعام، أو قطعة من تفاحة، ينظر إليه بشدة ويقول:

- عزاؤنا واحد في المرحومة، كلنا لها، ولا يبقى إلا الله سبحانه وتعالى المهم، هذه «إيناس» أمازيغية من حاحا وهي زوجتي، تربّت أحسن تربية على يد أبيها الفقيه «الصرافي» تحفظ القرآن والمتون، المهم...! لا تعد إلى حالك السابق! واقطع كل صلة لك بالمشاغبين والفوضويين والمخربين الذين يزعمون أنهم وطنيون... إيه... وطنيون....

يفكر ملياً مطرق الجبين، ويقول باستغراب:

- وأنت.. ضعي ثوباً عليك، فهو من محارمك، ألم يعلمك أبوك هذا في زاويته...!؟

تختفي الفتاة في ركن الحجرة وتَخْدُر وراء ستارة تحجب زاوية من الغرفة عن الأعين، فيلتفت إليه أبوه متسائلاً بقلق:

- لكن... قل لي من أخبرك بموت أمك...!؟

- صديق بعيد... سمع الخبر في السوق...

يقشر موزة، ينادي على زوجته الطفلة تخرج من وراء الخدر، تجلس على فراشه، وقد أرخت نقاباً مخملياً شفافاً أبيض على وجهها، يمدها بنصف موزة ويأكل هو النصف الآخر وهو يردد مستغرباً:

- صديق...! صديق!

فيشرق ويغص بقطعة الموز التي بلعها دون مضغ، فيكح كحاً شديداً، تضيق أنفاسه، يتقدم سالم نحو، فيهزه من وراء ظهره، ويضغط بيديه جهة المعدة، ثم يفلته، فتعود إليه أنفاسه الطبيعية:

- أوف... واه....! واه....!كدت أموت... لا بد أنها عينك...

- كيف يكون مصابك من «عيني» وأنا الذي روضت اللقمة كي تمر من حيث يجب أن تمر... بل أنت تسرع في اللقمة وترسلها بلا مضغ.

- لا أريد «صداع الراس»... اذهب الآن....

ينصرف بصمت، يرتفع صوت الفتاة وهي تضحك متسائلة:

- من هذا...؟

- هذا....؟ يا غزالي....! سالم ابني...





- إنه لطيف وطيب...

غاضباً ينهرها مزمجراً:

- اصمتي....! لا تسألي...! إياك...! إياك... أن تقولي مثل هذا الكلام......!

ثم يلطمها حانقاً:

- اخمدي...! نامي....! حمقاء...! لا تتكلمي بدون إذن....!

يعلو صوت بكاء الفتاة، فينهرها مرة أخرى بقوة:

- إن لم تصمتي أخذتك لجلدك في القبو، وأدعك تنامين في الظلام.

صادف سالم في الردهة «بحرية» ابنة عمه وهو يهم بدخول حجرته:

- «على سلامتك».

- «الله يخليك»...!

- يا ويلي...! إنْ أخبرت أحداً بالبرقية...

- وهل أنا أحمق...!؟

- والله خفت أن تكشفني... هل ستعود إلى فرنسا ؟

- طبعاً... لم أنته بعد من الدراسة... وأنت هل مازلت في مدرسة الراهبات...؟

- نعم... وتعلمت الفرنسية... وربما أنطقها أحسن منك...

يضحك ملء فيه وهو يقول:

- لا أشك في ذلك، ففيها درست الابتدائي أنا أيضاً، لكني كنت ملزماً بالاستيقاظ قبل الفجر يومياً للذهاب عند الفقيه سي «الشرفي» لحفظ القرآن الكريم، ومازالت آثار عصاه شاهدة على أخمصي قدمي...

تعلو ضحكة بحرية الأرجاء بغنج فطري وتقول بدلال:

- وأنت...! كنت ماكراً، تصنع له ما يغضبه ويغضب أبوك من مكائد...

- تلك أيام جميلة مرت ولن تعود أبداً....

- اسمع...! إن أردت البقاء في المغرب، وتدبير مشروع ما فأنا ممكن أن أساعدك...

- أنت ....! كيف؟

- قبل موت أمي بأيام، أمدتني «بصرة» كبيرة فيها كل أساورها ودمالجها وقلائدها من الذهب والفضة، وبعض المال... لم أحسبه، لكنها قالت إنه ربما خمسون ألف فرنكاً.

- وأبوك هل صمت، وتقبل الأمر بسهولة!؟

- هيه....!.يصمت...! وهل يشبع البحر؟ هل هو أحمق...!؟



بل حاول معي بكل الوسائل لمعرفة مصير الصرة، فأنكرت حتى ملّ ويئس، فزعم أن خالاتي هن من أخذن حلي أمي.

- من الماكر أنا أم أنت؟ فوجئت حقاً ببرقيتك... قلت تلك الصغيرة تذهب حتى مركز البريد وتفعل هذا...

- رئيس مركز البريد الحاج «مستور» رجل طيب، شرحت له الأمر، ففعل اللازم، لم أكن أعرف.، لا رسالة ولا برقية، وكم ضحك حينما كتبت رسالة لك وأردت الطابع البريدي لإرسالها، فقال «يا ابنة الخليفة، الأخبار المهمة والعاجلة لا تُرسل كما الرسائل، نرسل برقية أحسن، فهي مستعجلة ومضمونة»... وكذلك فعلت....وأوصاني بالتكتم.

- الحاج مستور رجل طيب حقاً... ونعم الرجال الوطنيين...

- ما معنى وطنيين يا ابن عمي؟

- من يفكر في استقلال البلد ويعمل على ذلك سلمياً أولاً ثم بحمل السلاح ضد المحتل إن رفض ورد على مطالب الحرية بالسلاح والتعذيب والقتل.... ما يسمى حرب التحرير...

- أممكن أن أكون وطنية؟

- ما المانع؟

- كوني امرأة..

- يا ابنة عمي، المرأة شقيقة الرجل، وحينما يتعلق الأمر

بالحريـة والانعتـاق مـن العبوديـة، عليهـا أن تتحمـل المسـؤولية كالرجـل..

- صدقت..

- سيأتي يومك يوما ما يا ابنة عمي.. لكن لا أدري متى

- ألم تشتق إلينا؟

- لقد اشتقنا إليكم جميعاً، عدا أبيك وزجته وأبي...

تتدلل بغنج وهي تتهالك في خطاها وتقول مبتسمة:

- أما زلت تراني طفلة....؟

- طفلة...؟ بل عروسة وجميلة يا ابنة عمي...

- جميلة فقط...

- فاتنة يا حمقاء...! متى كبرت؟

- كبرت... وصرت .... ألا ترى يا أعمى ؟

- صرت ماذا... يا بحرية !؟

- أعـرف مـا صرت عليـه مـن نظـرات عيـون الشـباب التـي تتعقبنـي وأنـا أسـير في الأزقـة.

- وهل يقللون أدبهم معك...!؟

- حاشـا... أبـداً... فهـم يخافـون... لـولا خوفهـم لغازلـوني كـما يتغزلـون بفتيـات البلـدة....





يسألها بسخرية وهو يحرك رأسه:

- وكيف عرفت ذلك يا بريئة...!؟

- الفتيات يحكين ولا يسترن شيئاً...

يقهقه ويقول:

- يكذبون إن قالوا إنك جميلة.

- أحقاً.... سأبكي...

- لا... بل أنت أكثر من جميلة...

تسـأله وهـي تـدور دورة كاملـة عـلى أصابـع قدميهـا، ثـم تتوقـف كراقصـة باليـه، وتسـأله بكبريـاء ووجههـا مصـوب نحـو المـدى باعتـداد:

- ألست أجمل من الفرنسيات الشقراوات أنفسهن!؟

دفعته للضحك مرة ثانية حتى بدت نواجذه فقال:

- يا حمقاء...! ابنة عمي هي الأجمل دائما..

- سأكون وطنية

يبتسم في وجهها:

- إن استطعت افعلي، وادخلي التاريخ من بابه الكبير

- هل آتيك بالطعام، طعام العشاء في حجرتك، أم ستنزل...؟

- في حجرتي... يا ابنة عمي...!

- المهم أنا سعيدة جدا بعودتك...

- وأنا أيضاً...

- لا تنس معي حلي أمي رحمة الله عليها والمال إن احتجتني في شيء ما... أرجوك لا تنس...!

يرمي بجسده على السرير متهالكاً، بعدما أشعل السراج الزيتي بصعوبة، حتى كاد أصبعه يحترق بفضلة عود الثقاب، وسرح بنظره في السقف المنقوش الذي كان ذا طبقتين، طبقة من الطين والخشب تشدها أعمدة من جذوع النخل، وطبقة من الجص منقوشة ومزركشة بعدة ألوان وأشكال جميلة، فحضرته صورة أمه بقوة، فضاقت أنفاسه، وأحس بغصة في حلقه، غلبه البكاء من جديد، فانتحب نحيباً شديداً حتى نفس عن نفسه، وغفا.

صحا على طرق شديد على باب حجرته، فتمطط في فراشه، ثم تهالك من تعب وهو يمشي، أزاح الرتاج، فدخلت بحرية وهي تردد:

- إيه... نومك ثقيل ... انهض ...! هذا عشاؤك... «ثرِيدٌ» بالدجاج البلدي... ليس كطعام «الفرنسيات»

- نعم...وهل من طعام أحلى من طعامك.

تذكر دومنيك التي لا تطبخ أبداً، مؤمنة باعتقاد راسخ أن





أشغال المطبخ والكنس والكي من مظاهر عبودية الرجل للامرأة، وتمعن طويلا في علامات الرضا على وجه بحرية وهي تقوم بخدمته.

# ٨

في ليلة دامسة دامجة دالجة، افتقد فيها رمق ضوء ولو من نجم باهت بعيد، لم تنبح الكلاب فيها كعادتها، كأنها ألهيت بقطع اللحم أو ما يشغل غريزتها عن النباح، تسلق رجال أشداء السور العالي لدار الخليفة، وقفزوا عليه، ثم انتشروا في الفناء الأول، فذبحوا رجلين من العسس اعترضا طريقهما، من الوريد إلى الوريد، وفتحوا عنوة البوابة الثانية، وأطلقوا النار على النمرود في ساقه، وكادوا أن يذبحوه لولا أنه أطلق ساقيه للرياح، وهرعوا إلى حجرة سالم، فقيدوه وهو في صدمة وذهول، كمموه بقطعة ثوب في فمه، حالت دون صراخه واستصراخه، فتوقع وهم في هذا الموقف المخيف أنهم سيقتلونه، فحقنوه بحقنة منومة في عنقه، ثم وضعوه في كيس منسوج من قنب، واختطفوه وسط الجلبة والصخب منطلقين في سيارة بوجو ٢٠٣ وبحرية تولول وتنتحب، والنمرود الأبكم يضرب بعصا على الأبواب، فطاردهم وهو ينزف، ثم أطلق عيارين ولم يصب منهم أحداً.

عرف الخليفة الزموري من الضوضاء والصخب أن أمراً ما جللاً يحدث في الدار الكبيرة، فتملكه الرعب، وانتابه الفرق، ظناً منه أنهم قطاع الطرق، أو الفدائيون الوطنيون، فغَلَّق عليه حجرته،





واكتفى باختلاس النظر من شقق الباب، يتابع من خلالها ما يجري ويحدث في صمت رهيب لا يسمع فيه غير أنفاسه ودقات قلبه، وبندقيته خجولة من جبنه معلقة على الجدار، تتابع ضعفه وتخاذله باستياء، حتى سقطت أرضاً، فعلقها من جديد، وهو يتلو اللطيف، والمعوذتين وأذكار التحصين، والصغيرة يعلو صوتها حاداً قوياً بالبكاء خوفاً وفزعاً، فينهرها الخليفة نهراً شديداً ويلطمها «اصمتي يا ابنة العاهرة... سيعرفون مكاني!» ويجرها من شعرها وهي تئن من الألم، فيخرجها من تحت السرير حيث لاذت وهو يزمجر «نامي! اسكتي...!».

يذرع الحجرة جيئة وذهاباً، بينما أخوه «العربي»، نزل متأخراً وهو يتمطط ويتثاءب من كسل النعاس، يشمر قفطانه، وفي يده بندقية، متسائلاً عما وقع، فردت «بحرية» وهي تلطم فخذيها وتولول منتحبة، لقد «خطفوا ابن عمي ... ابن عمي يا بويا... ابن عمي... يا بويا... خطفوه ....» فرد عليها بغضب مزمجراً: «من سولت له نفسه فعل مثل هذا في دار الخليفة الزموري... أين الخليفة....؟ لابد أن نطاردهم...». يطرق باب حجرة الخلفية طرقاً شديداً، فتكوم الخليفة بفزع كبير في ركن مظلم، خذلته مثانته حتى بلل ثيابه، وما فتح حتى أيقن انجلاء الخطر، مرتعشاً ترتجف شفتاه، يدنو من الجميع «خويا العربي...! ماذا وقع؟».

ثم تظهر الخادمة العجوز «مي الغازية» وهي تردد: «كانوا خمسة رجال، والله كانوا ملثمين، ورموا بالكيس الذي وضعوا فيه «سي سالم» في الصندوق الخلفي «للطوموبيل»، وانطلقوا بسرعة

وسط الغبار... ولقد لحق بهم باقي الحراس، أما النمرود فهو جريح وقد أطلق رصاصتين« وطفقت من جديد الفتاة تولول وتنتحب، فنهرتها «مي الغازية» اسكتي ....! أسكتي....!.

استجمع الخليفة الزموري قواه، وتنفس الصعداء، وتضرع للسماء حمداً وشكراً، بعدما علم أن الخاطفين أدبروا هاربين، ولم يهتم لمصير سالم، ولم تهزه عاطفة الأبوة خوفاً وجزعاً على ابنه، ولم يحزن لرجليه المذبوحين، بل تبرم وقال بضجر وقلق: «لا يأتي هذا العاق، وإلا وتأتي معه المصائب... كنا نعيش في راحة وهناء قبل أن يظهر وتظهر معه المشاكل»، فأمر «مي» الغازية أن تخرج الرصاصة من ساق النمرود وتمرضه حتى يشفى، وأمر أخاه العربي أن يسرج الخيول ويطارد الدخلاء رفقة عصبة من الرجال وأهل البلدة.

وعند الفجر عاد العربي والرجال، ولم يهتدوا إلى الدخلاء الذين اختفوا عن الأنظار، ولم يظهر لهم أثر، كأن الأرض ابتلعتهم، حيث لا شهود عيان رأوا السيارة ولا شهود سمع سمعوا هديرها، يترجل العربي عن حصانه والغضب بين على وجهه، لاح من شرارة عينيه، بعدما أسنده أحد الفرسان، نهره نهراً شديداً وهو يطأ الأرض قائلاً:

- من لهم مصلحة في خطف سالم...؟

يرد عليه الخليفة بثقة وهو يداعب زوجته:

- من يزعجهم كالعادة...





تقول أمي «الغازية»:

- أيكون القائد القرشي...؟ أيكون النصارى...!؟ فأعداؤه كثر...

لم يظهر القلق والحزن على وجه الخليفة، اكتفى بالقول وهو يلمّع قادوس بندقيته:

- ولِمَ لا يكون القائد الكبير قائد مراكش والجنوب «الكلاوي» نفسه أو جهة ما تعمل لحساب الفرنسيين...

- وماذا سنفعل.... أنسكت!؟

- طبعا...! سنسكت... وننتظر... ونستر فضيحتنا، ماذا لو علم الناس أن دار الخليفة غير محصنة، ويسهل اقتحامها ليلاً، وفيها ما فيها من الرجال والسلاح...!؟

تقول بحرية وهي تندب وتلطم صدرها:

- قد يقتلونه... قد يذبحونه أولئك المجرمون... والله...! هم سفاحون عتاة لا يرحمون... صدقوني... سيذبحونه كالشاة...

يلوي الخليفة الزموري شفتيه هازئاً مطمئناً كأن الحدث لم يؤثر فيه قيد أنملة ويضحك قائلاً:

- سيكون الأمر قضاء وقدراً... لا تؤخر نفساً أجلها... لكل أجل كتاب... لو قدر له الموت لمات في فراشه، اصمتي الآن...!

تنهرها «مي الغازية» وهي تلوي شفتيها وترفع حاجباً وتنزل آخر:

- اصمتي... تعالي... !

تجرها بقوة نحو حجرتها بعنف وإكراه:

- ادخلي ونامي...! نامي... يا خرقاء...! «اخمدي ...»! هذا حديث الكبار والرجال لا حديث النسوة والصبايا...

ينظر الخليفة الزموري في عين أخيه العربي وهو يعد حبات السبحة ويقول بصوت جهور قاس:

- والآن أريدكم أن تقولوا للناس إنه عاد إلى فرنسا... أسمعتم...؟ لا أريد أن يردد الناس عامتهم وخاصتهم في البلد أن قطاع الطرق دخلوا عنوة لداري، فأصير أضحوكة على الملأ، يتغامزون عليّ وراء ظهري، ويهمزون، فأصير عديم الشأن، والقيمة، فيرد أمري، ولا يحسب لي حساب لا في الجهر ولا في السر.

- وماذا أفعل بالجثتين؟

- أحرقهما وأرسل لأسرتيهما مالاً... يا العربي...!

- لا أعرف لهما أهلاً ولا أصلاً... كانا من المنبوذين.

- إذن أحرق الجثتين كما قلت واصمت....!

- نعم....! والنمرود....!؟





- النمرود قوي وصلب، وسينهض بعد أيام ويعود كما كان أو أحسن، ليس بالشخص الضعيف ولا الرخو الذي تقتله رصاصة. ستقويه الضربة ويصير أكثر شراسة، أنا أدرى به...

صحا سالم وكان قد خدر بحقنة في نحره سريعة المفعول، فوجد نفسه مقيد اليدين بسلسة إلى وتد على حائط دائري مرصوص بحجارة صلبة، رفع عينيه نحو السماء فلم ير غير السحاب في الأعالي يسبح بصمت رهيب، تلمس الجدار، فاذا هو أملس الصخور مبلل بالماء، وبين الشقوق أعشاب وطحالب مائية، وتحت قدميه ماء قليل ينبع من نبع تحته دون تدفق، وهو يتحسس الجدران، وجد غاراً ضيقاً، وكان طول السلسة كافياً للتحرك داخله، فاتخذه ملاذاً. كأن من رموا به هنا، فكروا بالأمر.

وهو يصيخ السمع لنقيق الضفادع، ونعيق الغربان، وعويل الذئاب، أيقن أنه في جب بئر عميقة فوهاء، يكاد الماء فيها ينحسر أو يغيض، فجلس يفكر في أمره، بعد لحظات، رأى ظل أحد على فوهة البئر، رمى له برغيف جاف في وعاء جلدي، وانسحب يجر ظله الذي استأنس به سالم لحظة من الوحدة الرهيبة الوحشة الثقيلة.

ومضت الليالي، تلو الليالي، فأصيب بحمى قاسية، وظل يهذي لأيام، ويبدو أن خاطفيه ظنوا أنه يحتضر، فأخذوه ليلاً ورموه به أمام باب الدار الكبيرة للخليفة، وقد همس أحدهم في أذنه «هذا ثمن السياسة... لم تمت عندنا، لكن سنقتلك إن عدت تتدخل فيما لا يعنيك».

لم يسمع ويتبين ما قالوا، قد أغلق عليه الفهم من جراء الحبس الطويل في البئر المظلمة، كان في منطقة التماس بين العقل والجنون، بل أقرب إلى الجنون، فطفق فقط يضحك ويقهقه....

ظل طريح الفراش أشهراً، تمرضه بحرية، وتنهره وتتبرم منه الشمطاء «مي الغازية» بقسوة وجلافة، ولا يرفق به عمه ولا يحسن له، كأن الكل استثقلوه، وكانوا يتنمون موته ليتخلصوا من وجوده، فتهنأ قلوبهم ويهنأ عقل النصارى، إلا بحرية التي ظلت تتضرع إلى الله أن يشفيه ويذهب عنه الحمى، جاهدت بالأسباب كما اجتهدت في الدعاء، فمرضته بالأعشاب والخلطات الشعبية، واستعانت بدواء النصارى، وخدمة راهبة، وكان الكل يئس من حاله، وظنوا أنه فقد عقله، فقد كان يهذي ليلاً نهاراً، ويرى ما لا يُرى، ويتحدث إلى خيالات، وما الأمر إلا من حمى شديدة، أثرت على الإدراك والإحساس، وبعثرت خرائط العقل، وخلطت العلامات المؤمنة للطريق السيار للذاكرة، ومسخت الصور والذكريات، فغدا لا يتذكر شيئاً، كأنه وضع في هذا العالم لأول مرة، وصار الكل عنده غرباء، لا يجد لهم أثراً في ذاكرته.

بكت «بحرية» أياماً يستوي عندها الليل والنهار ألماً ووجعاً، على حاله، بكاء قطع القلوب، حتى مرضت حزناً وكمداً، وأضربت عن الطعام، فهزلت هزالاً شديداً حتى خيف عليها الموت، فأتوا لسالم بطبيب نصراني من «أولاد تايمة» تحت إلحاحها، ليكشف عليه، فشخص حالته بفقدان الذاكرة المؤقت، من جراء صدمة قوية، ولو علم كم قضى في غور تلك البئر المظلمة، لتفهم



صدمته، فداوته بما نصح به الطبيب من دواء، حتى أصاب الدواء الداء، فتبددت الحمى، أما دواء فقدان الذاكرة المؤقتة، فهو الزمن لا غير والوقت والصبر، قال: «حالات كثيرة تشفى مع الزمن ، ويستعيد أصحابها ذاكرتهم... دعوا الزمن والطبيعة يقوما بوظيفتهما، لكن قولوا لي هل تعرض لصدمة قوية...؟» صمت الجميع، فنحنح عمه العربي وقال « ماتت أمه...» نظر الطبيب إليهم وهو يتفرس فيهم جميعاً وردد وفي نبرته قليل من الشك «نعم .... ممكن...».

وبعد أيام كان الخليفة الزموري وأحد شيوخ الصوفية يتجولان في سوق «أولاد تايمة» وهما تحت حراسة المخازنية والعسس الأشداء، فارتفع صوت عالياً «يحيا الوطن»، فانطلقت رصاصة ملعلعة في الأجواء فأصابت الخليفة بين عينيه فلم تمهله ومات في الحين، وأخرى تصيدت شيخ الزاوية في كتفه، فنجا منها بأعجوبة، حمله مريدوه بسرعة إلى المستشفى، فوقع هرج ومرج في السوق، وصخب وجلبة، وتصايح وتدافع الناس، فتزاحموا أمام جثة الخليفة، وفوتوا على شرطة الاحتلال القبض على مطلقي الرصاص.

لم يعرف أحد من هؤلاء الذين قتلوا الخليفة الزموري ونجا منهم شيخ الزاوية بأعجوبة، فحتى الوطنيون والفدائيون أنكروا ذلك، وما عمموا بلاغاً، على عادتهم حين يتبنون كل عملية تصيب الخونة والمحتل في مقتل، لكن القائد القرشي، ظل يشير بأصابع الاتهام إلى الوطنيين مردداً: «لا أحد يجرؤ على محاولة قتل

شيخ الزاوية إلا أحد يعلم بالخدمات التي قدمها لفرنسا، أما الخليفة فهو خادم فرنسا، ومن يقتله، يريد ضرب مصالح فرنسا، وبقتل رجالها يدخل الرعب في النفوس، الوطنيون الذين طلعوا علينا بعريضة المطالبة بالاستقلال منذ ثمان سنوات هم القتلة السفلة».

في ليلة تنصيب العربي خليفة للقائد المغتال اختلى به القائد القرشي وقال له بحذر لكن بثقة:

- الآن تخلصنا من أخيك، وحصلت على ما تريد، وأنت صهري زوج أختي، أحق بهذا المنصب من أخيك الذي لم يعرف تربية ابنه، فخلصني من سالم، فلو قتلته سينسب الأمر إلي أو إلى القائد الكلاوي... لقد سبق للبوليس الفرنسي أن اختطفوه وأعادوه أحمق لا يتذكر أحداً... خلصني منه.

- ألم يكن في ضيافتك...؟

- طبعا... لا...

- ظننت أنك أنت من اختطفته...

- هل جننت؟ ليست تلك طريقتي... أنا لا أعرف غير القتل للتخلص من أعدائي... ولو خطفته لكان الآن جيفة في حفرة عميقة.

- نعم سيدي القائد ...هو الآن فاقد الذاكرة، من الأحسن أن نرمي به في بلدة العقرب، ويتكلف بقتله أحد رجالنا هناك....





- افعل ما ترى لا أريد أن يعلم أحد بما جرى، توكل على الله....

- غداً أرحله إلى بلدة العقرب، هي بلدة من يدخلها لا يخرج منها أبداً... وإن خرج منها ففي نعش، سأوكل أمره للنمرود حتى يوصله عند الجيلالي العطار.

- العطار أم الجزار؟

يقهقهان معاً ويقول العربي:

- هما معاً.... يا سيدي...

- أرسل معه ما يسد شهية الجيلالي عن المال... متعه...!.

- حاضر سيدي القائد...

- نسيت... تعالَ....!.قل لي....هل شفي النمرود؟

- بدنه كالصخر سيدي القائد... ما تفعل رصاصة بصخرة جلمود يا مولاي... إنه أقوى من البغل...

يقهقهان حتى تدمع عيونهما وتنتاب القائد كحة من غصة، فتناوله «مي الغازية» قدح ماء، فيعبه عبّ البعير، ثم يأخذ أنفاسه ويقول:

- وماذا ستفعل بالصغيرة؟

- الصغيرة من...؟

- إيه... أتمزح...؟ أتضحك علي....؟ زوجة أخيك المرحوم... الصغيرة الحلوة...

- لا رأي لي فيها إلا رأيك... لكن إن سمح لي سيدي القائد تزوجتها، فهي أرملة أخي... وأنا أحق بها...

- وإن أردتها لنفسي أنا.

- توكل على الله، لا أضع نفسي في مقام هو لسيدي... ولا أخطو خطوة إلا خلفه، وأنا لا أمد يدي إلا لما فضل من موائدكم سيدي.

مضطرباً يرد بارتباك يردف الخليفة العربي:

- لكن....!

يزمجر القائد وقد انتفض:

- لكن... ماذا...؟ تكلم...!

- هناك مشكل.

- لا شيء مستحيل على القائد القرشي.... أي مشكل...؟

- طبعا سيدي، لكن.! الناس...! والقبائل!

- الناس!؟ القبائل!؟ ما دخلهم في زواجي...!؟ حلالي... أنا في ذمتي زوجتان فحسب.

- ربما يتقولون ويؤولون ويطعنون في الزواج.





- كيف...؟

- يربطون زواجك بها بموت الخليفة.

- لا أظنهم أذكياء للتفكير في الأمر.

- أخاف أن ينتشر الخبر ويشيع بين الناس «قتل زوجها ليتزوجها»، ولا أرضى لك بهذا....

- وليكن!

- لا سيدي...! لا تنجر وراء نزوة...! في النساء من هن أجمل منها، نزوجك عذراء بكراً أصغر منها، ونلجم ألسنة الناس.

- كم أنت ماكر يا العربي...! أين أجد بكراً أجمل منها وفي سنها...!؟

- في دار ولد المكي...

- المكي الحوذي؟! أجننت؟

- لا تتسرع سيدي.... عنده فتاة تخلب العقول وتسحر القلوب.

- أتريدني أن أصاهر حوذياً....؟ أجننت...؟

- فقط أردت إخبارك...

- لا... لا أصاهر العامة والدهماء.

- أو أقول لك تزوج بنت الشيخ..

- نعـم سـمعت أن لـه بنتـاً جميلـة ، ورفـض تزوجيهـا حتـى تصبـح في الرابعـة عـشرة مـن عمرهـا... أرأيتهـا....؟

- كيـف أراهـا سـيدي وهـي لا تضـع اللثـام إلا مـع المحـارم والنسـاء، لكـن العجـوز «الغازيـة» رأتهـا في الحـمام، وقالـت عنهـا مـا شـاء الله لم تجـد في بلـدة «القراقشـة» أجمـل منهـا، ووصفتهـا حتـى خلبنـي الوصـف قبـل النظـر...

- نخطبها إذن...

- نخطبهـا.... وهـل يـرد لـك الشـيخ طلبـاً، وأنـت مـن منحتـه المشـيخة ولم يكـن غـير راع لا لـه في العـير ولا لـه في النفـير، ضـداً في أولاد «الشريـف».

- نعـم كانـت المشـيخة متوارثـة في أولاد الشريـف أبـاً عـن أب، لكـن فيهـم عـزة نفـس وكبريـاء مـن نسـبهم الشريـف، قلـت أكـسر هيبتهـم وأضعـف شـوكتهم، فأعطيـت المشـيخة لراعـي مواشـيهم القديـم.

يقهقهـان عاليـاً، حتـى تدمـع عيونهـما، فيسـتلقيان عـلى الأرض وهمـا يزحـران ويهتـزان:

- ماكر أنت يا سيدي القائد...!.

- وأنت ذئب....دعني أذهب...! كلامك لا ينتهي.

- انتظر سيدي القائد...!





يصعـد العـربي إلى غرفـة علويـة، ثـم ينـزل الأدراج متثاقـلاً وفي يـده صنـدوق صغـير ويقـول للقائـد منشرحـاً:

- هـذه هديـة بسـيطة مـن عنـدي، لا تليـق بمقامـك لكـن سـنوفيكم بأحسـن منهـا بعـد عـام.

- لا عليك... قمت بالواجب ووفيت...

- لا سيدي هديتك ستكون العام المقبل أزجل وأسخى

- ستضع يدك إذن على مال أخيك وتركتك.

- طبعـا، المـال والتركـة لـن تـوزع، وسـأضع يـدي عليهـا ومـن أراد فرنـكاً أعطينـاه.

- اضرب لي سـهماً ممـا سـلبت مـن تركـة أخيـك، وسـأكلف القـاضي بنسـخ الأمـلاك باسـمك.

- بل أضرب لك سيدي عودين... بل ثلاثة

- يا ماكر.. يا لك من جشع....! ولئيم...!

أمـر القائـد أحـد خدامـه بـأن يحمـل الصنـدوق، ثـم ضرب بعكازه عـلى الأرض بشـدة واسـتقل عربتـه الجميلة.

مـرت شـهور وسـالم عـلى حالـه، تطعمـه بحريـة بيدهـا وتعتنـي بـه في أدق تفاصيـل يومـه، وهـو لا يأنـس إلا لهـا وبهـا، يسـألها فتنعـش ذاكرتـه، وتصحـح شروخ خرائطـه، وتمـلأ الفراغـات، وتمـد لـه

الجسور نحو الماضي، لكن رغم ذلك ظل حبيس السجنين سجن النسيان وسجن الدار.

نهب العربي تركة أخيه نهباً، فوضع يده على كل الأملاك من أراض ودور وضيعات، وغدا خليفة القائد القرشي على عدة قبائل من قبائل أولاد تايمة، فلم يبق له سوى التخلص من سالم، وحين يحين وقت التخلص من الابن الآخر عزوز المجند سيفعل دون تردد ولا رحمة، وناجى نفسه «يا ليته يموت في أية حرب، وانتهي منه هو أيضاً» فقرر أن ينفذ خطته للتخلص من سالم برميه في بلدة العقرب غرة فصل الشتاء، وفيها قاطع طريق سفاح اسمه الجيلالي وهو قاتل مأجور، يتخفى بحرفة العطارة، ويتكفل بقتل الناس بالأجرة، وإخفاء جثثهم.





## ٩

ها أنت يا سالم في «بلدة العقرب»، حيث تركك الخصي الأصم النمرود، تنفست الصعداء وتبدد في صدرك الثقل الذي أنقض ظهرك منذ شغل السائق محرك الحافلة بمفتاح لولبي في مقدمتها، اختفى الخصي فيصمت ساحباً غيمة الوجوم التي غشتك وأنت معه.

تعقبته وهو يعود إلى مقعده بجلافة، بعدما زجر قروياً، لم يصدر عنه أي تصرف مسيء، سوى أنه جلس قربه صدفة، كان في الزمن والمكان غير المناسبين، فأسقطه أرضاً وهو يزمجر في كتيت كقدر تغلي، وتلتقط عيناك باستغراب هذا التدافع على هذا الحافلات التي حلت محل العربات والبغال والخيول والجمال، فغزت القرى والمدن، ويسرت الرحلات الطويلة والأسفار الشاقة، وزاحمت الوسائل البدائية التي رغم ذلك مازالت هي السائدة، وتشعر أنه سبق لك أن رأيت هذه الكائنات الحديدية، تمعن البحث في ذاكرتك، فتظهر لك آلة يركبها الناس وتنساب على سكة من خطين، تضحك وتقول: «ما أغرب لعب العقل...!» كيف يمكن لحافلة أن تجوب الدنيا على قطعتي حديد.

ترى هؤلاء الركاب القرويين والقرويات في هزال واضح، ذوي السحنات السمراء الداكنة الحزينة والمتعبة، والنظرات المحملقة والثاقبة أو الخائفة والقاسية، وتسمع الزحير في أنفاس الشيوخ والعجائز وهم يرتقون سطح الحافلة المهترئة بمشقة، واللهاث في صدور النساء وهن يصعدن بمشقة واضطراب، تفضحهن الأنفاس المتعبة، وتربك حركتهن الملاءات وقد تأزرن بمآزر بيضاء قد غدت متربة من النقع والغبار.

ويحزنك المشهد المأساوي الحزين لعذاب أمة من بلدك، فهؤلاء القرويون والقرويات يجلسون القرفصاء بعذاب على سقف الحافلة وهم ينظرون يميناً ويساراً حذرين من اللصوص والسراق، ويربطون الأمتعة والرزم والدواجن بحبال بأجسادهم، وأياديهم تتحسس السطح على الحواف والقضبان بحثاً عن قضيب أو نتوء حديدي يصلحان مقبضين عند انطلاق الحصان الحديدي، يوزعون النظرات الشاردة الخائفة، على الفضاء ولكنهم يبتسمون.

ترى أنهم قلما يتكلمون، بل أكثر حديثهم مناجاة، فإن تحدثوا في أمر جلل، علت الأصوات وتصايحوا وما هم في خصام ولا شجار، بعضهم يسوون جلابيبهم الثقيلة والعمائم الباهتة الملفوفة دون اتساق ولا نظام، ينزعون نعالهم المتربة، ويدسونها في جيوب الجلابيب. ترمق «النمرود» يعاني من فواق شديد، فترى جسده يهتز اهتزازاً، فتتمنى أن تكون ضمة الموت قد عصرته عصراً أليماً، وترجو في خاطرك أن يتسلل الموت في غفلة إلى الظالم الفظ بغتة.



تراه يعبّ الماء عبّ البعير، تكاد تسمع له صفقاً، كأنه يصب في إناء، يحدجك بقسوة ووعيد بنظرات حاقدة وغاضبة، فتشيح بوجهك عنه، وترخي عنان التوجس لترى بوضوح ما حولك من حياة بصخب جارف وبؤس وإملاق مدقعين.

تشعر كأن الله في هذه اللحظة ربط على قلبك، فينشرح صدرك لكنك تشعر بالغبن العميق والضغينة الدفينة، وأنت تستحضر استحضار الحانق الحاقد، صورة الشمطاء «مي الغازية»، وهي تطعمك قهراً أرزاً فاسداً، وخبزاً ناشفاً، وتسقيك ماء قذراً، كأنها تستعجل موتك، وتأكل هي اللحم والفاكهة، وتلعنك وتلعن أباك وأسرتك، وتبصق في وجهك، لا تعرف السبب لكل هذا الحقد، رغم أن عمك هو الذي أتى بها يوم تزوج حسب ما علمت من إيطو، وكانت من خدم القائد القرشي، صهر عمك.

بحرية الوحيدة التي ملأت الفراغات في عقلك، هي من غدوت تثق فيها كل الثقة، هي من ربطت حاضرك بماضيك، هذا الماضي الذي هرب منك في لحظة، ولم يعد لك من تاريخ غير ما عشته بعد رميك أمام بوابة الدار الكبيرة.

مازلت مشوشاً مكتفياً بالانتظار هنا، هنا... منتظراً في إعصار الأفكار القاتمة، وجحيم المشاهد التي آلمتك وأنت تشهد عذاب الناس وعوزهم وضعفهم.

قبل أن يغيب النمرود لوح بإشارة بيديه لك، واعتصر وجهه حتى جحظت عيناه، ما فهمت منه أنه تهديد ووعيد لك، ألا

تتحرك أبداً من هنا، تسترضيه بصمتك طوال الطريق وفي لحظة الوداع البارد، تودعه بالاستجابة بحركة من رأسك، وتذكر أنه نظر إليك قبل الخروج من بلدة «القراقشة» فجراً، وجرك بعنف، وهو يلوي رأس ديك ثم يقطعه، ويركل كلباً ركلة قوية كسرت قائمة من قوائمه، فهرب يعوي عواء حاداً ويجرها، فهمت الرسالة، سيفعل بك ما فعل بالديك والكلب إن لم تطعه.

حقيبة سفرك حزينة لحزنك، ضائعة مثلك، بلا صاحب يعرفها ولا روح تهفو لأثوابها، تتلمس أثر الدبرتين على المعصمين، فتتلمس أثر الحبل الذي كبلوك به بقوة وقسوة، قبل أن يروض تمردك النمرود.

ها أنت معلق بين الرجاء والضجر، تنتظر الذي سيأتي أو لا يأتي... وحيداً... فريداً... في قرية «**بلدة العقرب**» كالهارب من ثأر أو دم ساخن حام، في قلوب مفجوعة وصدور تجيش غضباً جارفاً، تستطلع الفضاء والكائنات والأشياء والوجوه، وترصد تجلي الأهواء والبلاء في العيون والأجساد، وشبح الشهوة يمرق كالظلال في الخفاء أو في الظلام بين الحشائش والشجيرات.

ترهف السمع للحركات والسكنات... تنتظر...! تنتظر...! الذي سيأتي ولا يأتي، معلقاً بين رجاء بدأ يخبو، أو ضجر طفقت جرعته تعلو، عيناك تدوران في رأسك الذي لم يتخلص بعد من أثر الرحلة الشاقة، ومن غثيان يعصر معدتك.

رابط الجأش، في عقلك دهشة النسيان، وفي قلبك نعمة البداية



المرتجلة، عقلك الآن، منشغل بالتفاصيل ودقائق الحياة المحيطة بك، لا يشله خوف ولا توجس، وسبيلك إلى ذلك خائنة عين، حتى لا تثير الانتباه إليك والشكوك المريبة، يسترعي انتباهك هذا الشيخ الحافي القدمين، الشاردة نظراته والهارب خطوه، يذرع الساحة ذهاباً وإياباً متمتماً لا يبين أحياناً، يتوقف لحظة قربك وينظر إليك بقلق ويقول شعراً زجلاً عامياً:

**يا حسرة صْحاب الْعْقُول فْ غمامة**

**ولُحَّاق بغاو يَقَسْمُ بالموس السوق**

**يا حسرة صحاب الفهامة في الندامة**

**وصار يفهم الحجام في حليب النوق**

ترتفع نبضات قلبك وأنت تسمع باهتمام وعمق إحساس ما يدفئ صدرك، فتشعر أنك أمام شيخ حنكته الأيام، خبرته الأعوام وعجنته صروف الزمان، فخبر الأهوال والأحوال، حتى غدا لا ينطق إلا حكمة بلا رياء، أو دعوة لا يخشى فيها بطش بلاء.

وكل موقف عنده وإن بدا دون أهمية، يستدعي مثلاً مربياً أو حكمة جارية، أو رثاء من مأساة بادية، أو تحذيراً من ظلم غاشم من الأقوياء والغرباء، من الأهل والدخلاء، أو تحسراً مبكياً من استكانة الضعفاء للهوان وتهالكهم على الأهواء.

ويشغلك تفرسه فيك لحظة، وتتساءل هل هو الذي بيده

شفاؤك؟ لا تعرف لمَ يشعرك وجهه بالسكينة والانشراح، وتمنيت لو كان هو المجير والقائم على شؤونك في زمن نفيك والضياع.

شغلك هذا الشيخ الزجال، الذي كان حافي الأقدام، وسخ الثياب، بئيس المظهر، مثل البقية من الأنباذ والغوغاء والرعاع والمتسولين، والمرضى والمجانين، المتوزعين كل في شأن، فرادى أو في جماعات في الساحة المتربة العفنة، لكنه خلافاً لهم كان لسانه مطمئناً فيه حلاوة وحكمة، غير سفيه ولا بذيء، ولباسه خشن وفضفاض من صوف ثقيل خلق ورث، به رقع، ورأسه معصوب بعصابة خضراء.

وتستغرب وأنت تنتظر من رتابة حياة وبؤس الناس هنا. فأكثرهم حفاة، شبه عراة، والشيخ حاف نفسه وإن لطف لسانه واتزن منطق كلامه، فبؤسه يدل عليه مشطا قدميه اللتان تصلبتا وخشنتا وتشققتا، وأظافره التي طالت واتسخت، ووجهه الأغبر مع لحية كثاء هوجاء.

وتشتاق أن تسمع شعراً زجلاً منه وهو يذرع الساحة وبعض المتسولين و«الهبل» في عقبه، وراءه كحوارييه يمشون بصمت، وحين يتوقفون، فيصيح بصوت مبحوح بين الناس مردداً بعمق صوفي:

**رد البال رد البال قرب السؤال**

**ما ينفع جاه ولا بّاه ولا مال**

**رد البال لا تقل محال تدك لجبال**

**صاح راه هزة وحدة تصيرو رمال**





ترهف السمع له، تفهم الكلام وتعي المعنى، ولا تدرك من المقصود في هذا الزمان والمكان، تنزعج انزعاجاً قوياً وتشعر بالغيظ وأنت تلمح أطفالاً شبه عراة حفاة، متسخين هائمين في الساحة، يتحرشون به، وهم يحاكون حركاته بسخرية متعقبين أثره، يجرونه من تلابيبه ويركضون في صخب وضحك، بعد أن يشتد غضبه ويتلاشى حلمه وصبره، فيحرد عليهم، ويرميهم بالحجارة غاضبا ملوحاً بعكازه الذي ربط حوله أكثر من عقدة من خرق ملونة، وهو يردد:

**الرجاء ف الله وحده العاطي الستار**

**والعبد غير سباب تجري به لْقدار**

**لا تغيرك كلمة هنا وهناك ولا تحزن**

**ولا تهز هم وتزيد ف سعد المشرار**

تصغي بشبه خشوع ورهبة لحكمة هذا الشيخ التي صاغها زجلاً عامياً، فتشعر برغبة جامحة في البكاء، من إحساس دافق عارم بالغربة وشعور جارف قاس بالحنين لـ«بحرية»، نعم تفتقد بحرية، فينفطر قلبك، وتحس بغصة في حلقك، فيسيل الدمع رقراقاً ساخناً على خديك... اِبك...! اِبك ...! يا سالم...! لا عيب في ذلك... حتى الرجال يبكون، وإن اختفوا أو تواروا عن الأنظار، يبكون بحرارة وينتحبون كالأطفال الصغار، نعم...! تحن لرائحة يدها، لنظراتها، بل لمجرد عبورها، لعطرها الوردي، لعبق نحرها من الخزامى، لرائحة شعرها القرنفلية، فمن عينيها كنت

ترى العالم، ومن سمعها كنت تسمع الكون، والآن أنت معزول في مسافة تافهة من التاريخ، وفي مساحة هزيلة من الذكريات والأحداث، وبحرية هي القلب والجوارح، ثم تهرب بعقلك بعيداً وأنت تنحط من الألم.

أول ما شغلك وهمك وبَصَرُك يلتقط بحزن وحسرة، هذا البؤس المهمين على الوجوه والأجساد والأطعمة والأرجاء، كأنهم [ضربت عليهم الذلة والمسكنة] وكأن هذه البلدة ليس فيها إلا المتسولون والفقراء والمساكين وذوو الفاقة والعوز والمرضى والمعاقون والحمقى والصعاليك، وترغب في البكاء فتحذر ضعفاً يستغله فيك اللصوص والغوغاء، لا استحياء من البكاء، وتقول: «الرجال لا يبكون مرتين في اليوم»، لا تعرف من أين جئت بهذه المقولة، وبدت لك غير منطقية ولكنها مريحة تغسل الصدر من الجبن والتوجس.

ترهف السمع جيداً، يثيرك حديث وهمس الناس، وعلمت من كلامهم أن المكان اسمه «رباط المزاوگين»... فتتمعن في تفاصيله بفضول كبير، ولم يكن غير ساحة مترية بمساطب متفرقة، واسعة ممتدة الأطراف في مدخل بلدة العقرب، على الجانب الأيسر من الطريق الرئيسة، تتوزع على أحوافها وجنباتها أكواخ بدائية مشيدة من سقط المتاع، ومن قصب وقش وقصدير وأعواد، جعلت محلات للبيع والتجارة المتواضعة، من توابل وسكر وشاي وخضر غير طازجة وبيض وأرغفة ولحوم فسدت بالهواء حتى صارت عطينة، وفرشات لألبسة رخيصة، ولملابس قديمة



مستعملة، ومواعين وأوانٍ من خزف وطين، وأخرى بها صناديق يجلس عليها القرويون لشرب حساء «الحريرة» بالحمص والعدس والطماطم والكرفس، وحساء الفول.

تمتد بلدة العقرب على منحدر هضبة «الزَّطَّاطين» كحزام سكني، في بادية «سهل عبدة»، وهي جافة غير خصبة التربة مرداء، ناشفة الهواء كثيرة الحصباء، بها بعض الأشجار والحشائش التي تتحمل العطش والصهد، وكثيرة نبات الصبار وشجيرات الدوم، وأكثر زراعتهم الشعير والذرة ، وزراعات أخرى معاشية من خضر تسقى بالدلاء والشقاء، كاللفت والجزر، وتعتمد على ما تجود به السماء من أمطار غير منتظمة وقليلة لا تكفي.

في مركز «رباط المزاوگين» ينتصب مقهى شعبيّ بئيس عفن، متسخ الطاولات، مسود المواعين التي تقهي النفوس الطيبة عن الطعام، وانتشرت على عتبته الأزبال وأعقاب السجائر، ويطن ذباب كثيف في أجوائه، لا عنوان هنا للواقع والحياة، غير البؤس الشديد والمسكنة الصارخة، حتى الكلاب تبدو واهنة وجائعة هزيلة عارية الضلوع، تنظر بعيون سقيمة زائغة من الضعف، تمشي في دونما اتزان متهالكة كالسكرى، من وهن باد وأثر زمهرير نافذ.

توجه بصرك نحو جهة صاخبة شرق «رباط المزاوگين» حيث الصهيل يختلط والنهيق والشحاج والهمهمات، وزقع البهائم يضحك البعض ضحكاً غريباً حتى يستلقوا على أقفائهم، وتشهد

عيناك على مآسٍ أخرى، هناك تربض عربات بأحصنة هزيلة، ضامرة أو بغال وحمير لا تقل عنها هزالاً وسقماً، عربات لنقل الركاب إلى حيث لا تدري أنت، وكل حوذي يروض الزمن في انتظار راكب محتمل بتدخين الكيف أو لعب القمار أو النرد، ومن حين لآخر تتوقف حافلة فيضج المكان بهدير محركها المتعب، فينزل أناس ويركب آخرون، ويرتقي من لا مقعد له نحو سطحها والعيون على سراق القفف والدجاج والنشالين من الصغار والكبار، وأطفال يتزاحمون على أمتعة الركاب لحملها، وآخرون يعرضون بجلبة وصخب وتصايح البيض المسلوق والرغيف اليابس، والحوذيون يرفعون أصواتهم عالياً كلما حلت حافلة، معلنين عن وجهة رحلتهم في جلبة وتنافس يصل أحياناً إلى درجة الشجار والتشابك بالأيدي، لا يفضهما غير إشهار السكاكين والأمواس. فما إن يحصل حوذي على زبون أو أكثر حتى يستحث دابته على السير بضربة سوط ونخس وصياح لجوج، طمعاً في العودة سريعاً للحصول على زبون جديد.

فقط أنت هنا... تنتظر... تنتظر... قيل لك ألا تغادر المكان حتى يأتي الجيلالي، وإن تمردت وعدلت عن الانتظار فما الوجهة والمسار...؟! عليك أن تستوعب ما يقع هنا بصبر وأناة، لتفهم وتحدد خطوتك الآتية، تتساءل باضطراب داخلي «لمَ أطلقوا على هذا الفضاء الكئيب «رباط المزاوگين» فهو فعلاً مكان لا يجمع غير المملقين ومن لا بيت يأويهم واللصوص والمرضى والمعاقين والهبل!؟»، وأنت تعلم أن هذا التعبير قوي في الوجدان المجتمعي،





غزير بمعاني الحدب والعطف والرحمة والاستغاثة، وطلب الحماية. «المزاوگين» فئة من الناس، ظلموا فجاؤوا طلباً للعدل، أو مطلوبون في دم، قاصدين شريفاً من الشرفاء أو ولياً من الأولياء رحيماً في حياته وفي مماته، من الصالحين فاعتصموا بحرمه أو بقبته بين جدران ضريحه، فاستجيروا في عزة ومناعة من هدر دم أو قصاص، إلا مطلوباً في خيانة أو غدر أو اغتصاب، لايجيره لا ميت ولا حي، وهناك فئة أخرى وهم الطرداء في عوز، وما هربوا إلا من قحط أو مسغبة داهمة، وفقراء في إملاق، فئة جاءت مستجيرة عارية، دقها الفقر والمرض، فتعيش على موائد الجوار وصدقات وعطاء الشرفاء وزكاة «العشور» والصدقات الجارية للأحباس، وسخاء الوجهاء وندى الكرماء.

تعلم هذا لأن عقلك لا ينسى ما تعلمته ودرسته، وخبرته في تناقض مع نفيه للوجوه والهويات والقرابات، وقطيعته المؤقتة كما قالوا لك مع صيرورة الحياة، للأسف قد تسترجع الماضي وتفقد وهج هذا الحاضر الغني بالمعلومات، فحين تزول عنك اللوثة، ويلتئم الزمن في ذاكرتك المشروخة المتشظية، تعود من حيث بدأت وتتبدد المساحة الفاصلة بكل أحداثها.

جيء بك هنا قهراً وغصباً، إكراها وكرهاً، تنفيذاً لأمر الرجل الذي قيل لك إنه عمك المسمى الخليفة العربي، وقيل لك إن أباك كان خليفة ومات برصاصة بين العينين، قتله الوطنيون، لأنه من خدام فرنسا، ويعذب الوطنيين، ويسخّر العباد في خدمة النصارى في ضياعهم وحقولهم، وبحرية الجميلة التي قالت لك

إنها ابنة العربي كانت أطيبهم، وأرحم بك منهم، رعتك وأنت معلق بين الجنون والتعقل، حتى اطمأن قلبك، وسكن هاجسك، بحرية هي الشمس التي كانت تشرق عليك كل يوم، وحين تغيب لتنام، كنت تشعر بالظلمة تلفك لفا تنزف قوى روحك، وبالحزن الثقيل يزحف نحو صدرك، حيث يبيت عنوة في عالمك حتى تشرق شمسها على حجرتك.

وها أنت هنا، ما زلت تنتظر، تنتظر في «رباط المزاوگين»، وما انفك الشيخ الذي دون شك هو «أهبل» من المجاذيب يذرع ساحة «رباط المزاوگين»، ويلقي بالكلام الموزون، والحوذيون عادوا إلى خلافاتهم التي لا تنتهي بصخب وجلبة، وعجوز تحلقت حولها نساء في ملاءات بيضاء، في زاوية بعيدة غرب الساحة، وهي تقرأ لهن الطالع من أوراق اللعب الخرقاء، وتعلم أنت يقينا أن الأمر دجل، فتقول في نفسك «كم هن غبيات!».. من أين لك هذا اليقين؟

تحاول عبثاً أن تبحث عن طريق ولو بعيد، أو ضيق في العقل يؤدي بك إلى الماضي لربطه بالحاضر، تجاهد حتى تنهك، لفتح كوة في الذاكرة نحو الماضي، لكن كل المنافذ مغلقة، وصار تاريخك من أيام فقط، تذكر أحداثها، ووجوهها وشخوصها، وقبلها السديم والعتمة، تبوء محاولتك بالفشل فتشعر باعتصار اللواعج، فيرحمك الشيخ بصوته وهو يردد زجله المغربي:

**كيف يرتاح القلب وتصفى السريرة**

**ولبلاد صبحات سبية وغنيمة ضريرة**





ترهف السمع لهذا الزجال حتى تغمرك نشوة الحكمة ولذة الصورة، وبهجة الإيقاع، فظننته حكيماً من زمن غابر، أعجبك وفتن قلبك في فطرة نقية وطيبة غير مشوبة بدر ولا عفن، فكلامه لم يكن إلا حكمة عميقة أو أمثال فائدتها عميمة، وأقفال مفاتيحها الفهم الناصع، والقلب المخموم.

تتعقب خطو الشيخ الزجال بنظراتك، يناديه أحد الرجال، وقد مده بسلة من قصب بها تمر ورطب وأرغفة، ويلح عليه أن يدعو له الله ويتوسط له عند السماء متعللاً بالعجز وهو عليل، وضاقت به الدنيا بما رحبت «الله يخليك، آسي عبد الباقي... ادع لي... إني مريض».

علمت الآن أن اسمه عبد الباقي، وأن الناس هنا تجله وتتوسل به في الدعاء، وإن تحرش به الصغار وتعقب خطوه الحمقى من الكبار، فهذا لا ينقص من ورع وقيمة الشيخ الذي كنس الجمع المتفرق ببصره ثاقب، ينظر في وجه من مده بالسلة، ترى أن الشيخ الزجال عبد الباقي أخذ فقط حفنة تمرات من السلة وبعض الأرغفة. وهو يقول فيحزن اليائس من قومه، عكسته نبرات صوته وعيناه اللتان اغرورقتا دمعاً ساخناً وهو يجفف مجرى الدمع بطرف كمه:

**ندعي معاك ولا ندعي مع راسي**

**شكون اضمن لسفينتو فين تراسي**

**آجي نوصيك ربك اسامح ويواسي**

**لكن ف دم الناس كل يصيح آراسي**

طـال انتظـارك حتـى كـدت تغـدو واحـداً مـن أهـل «**ربـاط المزاوگّيـن**» ، وعـلى حـين غـرة، جـيء بطعـام في قصعـة كبـيرة، مـن دار مـا، تسـابق الـكل إلى القصعـة، حتـى الحوذيـون والباعـة، إلا الشـيخ المجـذوب عبـد الباقـي، نظـر إلى الجمـع نظـرة مشـفقة شـفافة مشرقـة، ثـم جلـس عـلى مسـطبة بعيـداً، وطفـق يبكـي، ويلطـم صـدره بكفيـه، ويتمتـم كلـمات مهموسـة غـير مفهومـة.

هـل سـتغدو هـذه السـاحة منفـاك، ومقامـك مثـل كل هـؤلاء البائسـين....!؟ هـل صرت واحـداً مـن فئـة مـا مـن طـرداء الجـوع والقحـط، أم طـرداء الـدم والثـأر، أم طـرداء الحمـق والجنـون!؟

وتنتظـر هنـا... هنـا تنتظـر... في يـدك حقيبـة حزينـة لحزنـك، وفي عقلـك سـؤال البدايـات، وفي قلبـك حسـرة الخيبـات، وحسـرة الشـيخ الزجـال زادت مـن حزنـك وكآبتـك، والمنبـوذون تفرقـوا في الفضـاء مـن جديـد يتحرشـون بحكيـم «**ربـاط المزاوگّيـن**»... وهـو منشـغل عنهـم بهـم جاثـم عميـق، ويعالـج بصمـت صـوفي ألمـاً لا تطالـه العيـون، ولكـن تكشـفه القلـوب الصافيـة.

هـل شـمتك الخـداع النمـرود؟ طـال انتظـارك ولم يـأت أحـد يسـأل عنـك؟ فهـل سـيغتالك أحـد هنـا... ويمـضي في خفـاء....؟ هـل سـيندس غـادر بـين النـاس ... ثـم يطعنـك ويختفـي؟

هنـا... يبـدو أن الحيـاة والمـوت يسـتويان، وليكـن....! تجـد في قلبـك شـجاعة راسـخة، مألوفـة، لا تتصنعهـا بـل اسـترجعتها في أجـواء مـا تـرى وتسـمع، وأنـت مسـتعد بجسـارة وثبـات لمواجهـة





المـوت بكرامـة وكبريـاء. وحـز في قلبـك أنـك تركـت النمـرود الأبكـم الخـصي، يروضـك في رحلـة نفيـك، ويشـد عنـان تمـردك ويلجـم لسـانك، حتـى ضاقـت بـك الأرض وأنـت تسـترجع جبنـك أمامـه، لكنـه قاتـل بـلا رحمـة، ومشـهد الديـك مقطـوع الـرأس المترنـح في الهـواء، تنهـش لحمـه الـكلاب، ومشـهد الكلـب الـذي كـسرت قائمتـه وربـما حتـى ضلعـه، مـازالا راسـخين في عقلـك، وتشـفعان لـك الحـذر لا الجبـن، فهنـاك بـون شاسـع بـين الطيـش والشـجاعة، فالنديـة في الوسـائل والعتـاد والسـلاح أسـاس في قيـاس الهمـم والعزائـم وشـدة البـأس.

جئـت إلى هنـا بـدون سـبب وجيـه، ولا هويـة ولا قضيـة، أيقظـوك في الغبـش ثـم اقتـادوك إلى القـدر المنتظـر، مـا إن لمسـت قدمـاك هـذه الأرض الغريبـة رغـم البـؤس الشـديد وتنافـر الطبـاع والعقـول واختـلاط الجنـون والفقـر، والشـقاق مـع الأشـواق، حتـى صـارت لـك هويـة واحـد مـن «**ربـاط المزاوگّيـن**»، فقـط في لحظـة التيـه والفـراغ والانتظـار تحـاول بعقلـك الحائـر، الخائـف ترميـم أحـداث ووقائـع باهتـة تتشـظى في ذهنـك، ولا يلتقـط خاطـرك المضطـرب منهـا إلا شـظية مـن هنـا وهنـاك، وتغيـب باقـي الأجـزاء المهمـة في البنـاء والترميـم، فتصـير الصـورة مسـخاً مخيفـاً.

أنـت هنـا.... والآن... فهـل غـدوت مـن أهـل «**ربـاط المزاوگّيـن**»....؟ الطعـام متوفـر، والأنـس والتعاضـد متوفـران، لأن لا أحـد ينـام هنـا بـدون طعـام، لكـن كيـف ينامـون في العـراء والـبرد زمهريـر شـديد!؟

تتذكر أنهم يريدونك بعيداً ومنفياً، بعدما عجزوا عن قتلك جوعاً وسقماً، يريدونك أن تضل طريق العودة، أن تموت هنا أو تصير نسياً منسياً لا يعرف لك أصل ولا فصل، ويتساءل عقلك بسخرية من هم... ؟ ولمَ... ؟ لا تعرف سوى أنك وجدت نفسك ممدداً على عتبة الدار الكبيرة تنزف دماً وضلعك الأيسر مكسر، فتاة تبكي وتلطم الخدود وتطلب الغوث، علمت فيما بعد أنها بحرية ابنة عمك، والعجوز تجرها وتمنعها زجراً من تمريضك، ورأيت النمرود والشمطاء ليلتها يتبادلان الحوار، ففهمت من إشارات الأبكم أن عمك العربي يريدك ميتاً من المرض والجوع، لكن وحدها بحرية أفشلت خطتهم، وأجهضت ما دبروه من مكر، إذ تكفلت بك في خفاء، فغسلت جرحك العميق في مؤخرة رأسك، وداوت جراحك، وكانت جسرك المؤقت الجميل الذي يربط حاضرك بالماضي، أطعمتك ونظفتك، على أمل إنعاش الذاكرة، وتعبئة مواردها وحشدها في نظام يؤسس للعلائق والروابط... آه...! بدون ذاكرة تختفي الحياة وراء ظلال الوجود، الذاكرة هي مفاتيحنا في خرائط الوجود المبعثر، هي بوصلتنا في محيط التيه والضياع المضطرب، الذاكرة سلاح آخر للمقاومة.

استحضرت ساعة استقللت حافلة مهترئة مضطراً ومكرهاً، بين بكاء وضجيج الأطفال في ذاك العجب الحديدي، الذي تشعر أنه ليس بغريب عنك رغم ذهول القرويين، نعم... !كم أرهق روحك وعقلك وقلبك البكاء الشديد واللحوح لذاك الرضيع...! وكم تمنيت أن يصمت... كم قطع كبدك ألمه...



بكاؤه لم يكن من جوع ولا قر وصر، فأمه لم تحرمه من ثديها طول الطريق، ودثرته ليدفأ وينعم بالحضن الدافئ، وهي تهرب من العيون المتهمة والنظرات المريبة، لكنه ظل يبكي ويلح في البكاء وهو يتمدد ويتقلص، كأن به مغص أو وجع، فاسترقت النظر إلى الأم الحائرة بين رضيع يبكي وعيون ركاب تدين، فلم تجد غير ألم آخر وحزن قاتل يعتصر الروع والروح في عيني امرأة خائرة القوى حائرة لبكاء الرضيع الذي انفطر له قلبها الجريح. ما أشد تعاستها ووحدتها...! ربما نضب ثدياها، أو ألّمت بالجسد الصغير علة استجاب لها الجسد ألماً ووجعاً.

اكتفيت عذاباً بألم بكاء الرضيع، وهربت من وقع الوجع الأليم على قلبك، بالتفكير بعيداً عن أجواء الحافلة وعلى سطحها ركاب وراكبات في جحيم واهتزاز، وتجنباً لخسائر عميقة روحية جديدة، سرحت في تفاصيل صورة «بحرية».

تنتظر...! تنتظر... !حقيبتك متعطشة للمبيت في ركن آمن، وملابسك تهفو إلى رفوف دولاب دافئ، تغتبط وأنت ترى قصعة أخرى من الكسكس حطت في «رباط المزاوگين» حملتها امرأة فوق رأسها، وتصدت للكل بيديها وحالت دونهم والطعام، فامتثلوا لهيبة فيها أو لهيبة الدار المطعمة، فدعت المجذوب الشيخ عبد الباقي «سي عبد الباقي... وا المجذوب... قرب... هذا طعامك من دار الشريف ...».

يبدو أنه لا يأكل أي طعام حتى يعرف الموقد وشجرة حطبه،

واليدين اللتين عجنتا الرغيف، وهيأتا الطعام، والسواعد التي عرقت من أجل اللقمة والشربة.

اسم سي «الشريف» وقع في قلب عبد الباقي موقعاً طيباً، فانشرحت أساريره، وابتسم واقترب، فغسل اليدين بماء في برميل، وجلس القرفصاء ثم سمى وأكل حتى شبع غير متعجل ولا مفترس، وأخذ من اللحم ما يراه حصته وترك ما يكفي للباقين، ثم حمد ونهض ودعا للكريم المتصدق.

وهبّ الجمع إلى «القصعة» هبوب الكلاب الجائعة، بلا بسملة ولا غسل، رأتك المرأة فدعتك وهي ترصد حيرتك وغربتك العارية، وقد حدست أنك في عزلة موشحة، لتأكل من الطعام، شعرت بانشراح، فاعتذرت بإشارة وابتسامة، ومضت متثاقلة وهي تلتفت جهتك، ولا ترى منها شيئاً وقد غطى جسمها الإزار الأبيض وجزء منه مسدل كخمار يغطي الوجه، فقط سمعت صرير خلخال، فشعرت بالأنثى الجميلة دون أن ترى الوجه والقوام والساق.

مازلت تنتظر... تراقب حقيبتك... تبدو لك حزينة بلا رحلة حقيقية، تبتسم في وجهها، تخال أنها ابتسمت لها، يقشعر بدنك، خوفاً على حال عقلك، وحذراً من الجنون، فتقول في نفسك: «لا...! هذا جنون... الحقائب لا تبتسم إلا في قلب القصائد مجازاً وخيالاً جميلاً... من يدري ربما أنا في حياتي العادية شاعر...» وحده الشعر لا يقتات منه النسيان.



تمد يدك إلى الحقيبة تجدها باردة، فيرق قلبك لها، فتحضنها، ثم تضعها أرضاً خوفاً من عيون قد تترصدك، قد تحسبك مجنوناً، ويغدو لك مقام محسوم في «رباط المزاوگين» وقدرك ربما أن تصير من جماعة الشيخ الزجال، أن تتبعه وتصير من رهطه، من يدري ربما هذا هو هدف الرحلة، أن تختلط والأنباذ والحمقى والمجرمين والمتسولين، فتأكل من صدقات جارية، أو موائد فائضة، أو فدية صوم أو حنث وليكن! فأنت قادر على التحمل، تشعر بأن لك هذه القدرة، تشعر بأن لك ملكة التكيف، من أين أتتك!؟ لا جواب ..لا بدّ أنك شخص متميز، تستطيع فهم لغة الأشياء، فقل للحقيبة أن تغفو لحظة، ستحرسها أنت، فأنت تنام وعيناك مفتوحتان، وسمعك يرصد كل حركة ولو كانت همسة غامضة. يدنو منك الشيخ عبد الباقي، يحدق فيك ملياً، يخرج تمرات ورغيف من «قب» جلبابه، يحضك على الأكل بإيماءة وحركة، ثم يلح حاثاً مبتسماً، تستحيي وتستجيب، ينظر إليك برحمة وقلق وشفقة، عينا الشيخ تفضحانه، بريقهما رسالة صادقة للروح والقلب، كما لسانه رسالة صارخة للعقل والهموم، ينتظر ولا ينصرف، تأكلها وكانت سبعاً شهيات، فتنفرج أساريره من جديد ثم يعود إلى مسطبته.

تمنيت لو كان بإمكانك أن تطعم حقيبتك، لكن شهيةَ الحقائب في الترحال والسفر، لا في المدر والحضر، وارتواءَها من عرق الطريق والمطر، لذا فهي جائعة حزينة، تنتظر بحرقة ولوعة، هذا المسمى الجيلالي الذي ربما هو مجرد وهم أو سراب.

# ١٠

استحضرت الطريق والوجوه، وأنت متسمر في الساحة الغريبة، ترصدك عشرات العيون من مقيمي «رباط المزاوگين»، وتفرح فرحاً طفولياً لما وقع بينك والشيخ عبد الباقي، وتغلبك ضحكة عارمة ثم تصير قهقهة، فيتوقف الأطفال عن اللعب والشغب الطفولي، يبدو أن جود الشيخ من القليل أربكهم، كما أثار حفيظة الكبار، ربما القهقهة أنهت فترة الترقب والتوقير، وتقول بحسرة «يا ليتني.!. قمعت الرغبة في الضحك...!» تتابعهم بخائنة العين، التي لم تعد تنطلي عليهم، فكشفوا فضولك الناعم وغربتك الجلية وحيرتك التي فضحتها ضحكتك العالية غير المتزنة، وضياعك الذي عرته سبع تمرات شهيات، يتفرسون فيك، ويتهامسون، هل يستعدون لأمر ما ؟

لم تحدد لحد الآن بعد أين الوجهة إن لم يأت الجيلالي، تجهل نقطة الانطلاقة المحتملة ونقطة الوصول الآمنة، ومصيرك الآن معلق بالذي سيأتي، وقد لا يأتي، فيغدو هؤلاء هم أهلك ورهطك.

صعلوك أجلف ركل فتى هزيلاً حتى انتحب ألماً، أوشكت





أن تنقض عليه بغيظ وحنق، جاشا بهما صدرك كالنار المستعرة، فاستحضرت الذي عاد دونك بلا وداع ولا سلام، «النمرود» الذي سميته في خاطرك وأنت إلى جانبه في الحافلة وبخوف أن يسمع نجواك «وجه الكلب». تكرر العبارة في خاطرك مرات ومرات لتنتشي بها وتشعر بلذة نطقها وهي تحقنك بجرعة متعة تحت جلدك، فتنفرج أساريرك وتنتابك الغبطة، ثم تعود إلى رشدك وتستحضر تعابير وجهه الغارق في القسوة، وتذكر قسوته وعدم تبدل ملامحه لحدث أو قول ما، فلم ترصد من نظراته سوى الخوف والوعيد والتهديد، وتساءلت «هل هو من بلدة القراقشة؟» ثم تكتشف أن طبعه ليس كطباعهم، فهم وإن قست قلوبهم حنت روحهم، وإن عاقبوا عدلوا واعتدلوا، وإن طغا جلادوهم بكوا في خلواتهم، وتكتشف أيضاً أن سحنته متغيرة عن سحنات رجال بلدة القراقشة، فتتأكد أنه غريب، ليس من دمهم وأصلابهم، فتتساءل بحيرة «من أين أتى ؟».

مازلت هنا... تنتظر... تنتظر... الذي سيأتي أو لا يأتي... وأحداث الرحلة هي دفء الغربة الساعة، تحطب منها في ذاكرتك ما يبدد ثقل الفراغ والانتظار... الانتظار عقاب أليم وجحيم غير رحيم.

تذكر أنك كنت كلما هممت بالنزول أو الوقوف شدك الخصي النمرود بقوة وقسوة من حزام سروالك، حتى شعرت بأثر تؤلمك على خاصرتك، فغدوت تخشى غضبه، وتتجنب قسوته، فكم حاولت بيأس أن تنهض، فتنتصب قائماً، بقوة جارفة من داخلك

لسبب لا تعرفه، فيعيدك إلى مكانك بشدة وقساوة ويلطمك على خدك، لمَ لم ترد لطمته؟ ترى الغضب في عينيه والاستياء في عيني السائق، ولا تفهم لمَ السائق مستاء. كان النمرود طيلة الطريق يطعمك ويسقيك، إذا اشتد بك الجوع والعطش، يريدك حياً إلى أن يصعد بك منصة الإعدام. لا تعرفه حق المعرفة وأنت مشوش، لكنك تعرف أنه السفاح وخادم عمك العربي الذي صار الخليفة مكان أبيك المغدور حسب ما روت لك «بحرية» ، في الدار الكبيرة، الباردة العواطف الجامحة الأهواء، رغم أن الماضي يهرب منك في لوثة نسيان، ربما تعرف أكثر...

كانت «بحرية» تقضي لحظات كثيرة معك في الغرفة الباردة بالطابق السطحي، تنظر إليك وتنظر إليها، تجدها جميلة، ساحرة، وتشعر بها تميل مشاعرها إليك ولا تعرف هل شفقة أم حباً، وأنت تقمع أي ميل نحوها، وتقاومه وترفض أن تكون لك رابطة وجدانية في ظل النسيان، فينكرها العقل عند التئام الذاكرة، والحقيقة أنك تتحاشاها حتى يصحو عقلك، تخاف أن تصير عندك بمنزلة «مي الغازية» أو المخصي النمرود، فذاكرتك لا تضع لك حدوداً واضحة بين الأصدقاء والأعداء، من الخصم ...؟ من الحليف...؟ لا تعرف الحقيقة إلا من فم بحرية، وماذا لو كانت هي نفسها مزيفة، كاذبة، ممثلة، ألم تقل له الشمطاء «مي الغازية» في الغبش، بعدما أيقظوك كمحكوم بالإعدام بشدة ورجة وهلع، قبل أن يفكوا وثاقك «اسمع جيداً... يا النمرود...! لا تنتظر حتى يأتي الجيلالي إن لم يكن في الموعد... اتركه هناك... في ساحة «رباط



المزاوگين» ، لن يضل عنه الجيلالي، وعد تواً، لا تثر الشبهات حولك، ولا تثق فيه، فهو مجنون ولكن ذكي وداهية...؟» ولأنهم قطعوا لسانه وهو أبكم وليس أصم، رد عليك صراخاً يستنكر موقع اتخذته مي الغازية لا يليق بها، فضربها ثم جرها من زغب شعرها القليل.

حينها علمت أن الجلاد اسمه النمرود والسياف ربما هو الجيلالي وتذكرت، وأنت تهم بركوب الحافلة أمس، آخر وجهين نسائيين، وجه العجوز الشمطاء القبيحة المنظر والروح ، والسفيهة اللسان النتنة الإبطين، البخراء الفم، والتي نادتها بحرية بـ«مي الغازية»، التي لم تغط شعرها يومذاك فبدا منه صلع زاحف، وكان متفرق الزغب الأحمر من خضاب الحناء، وأبيض في مفارق عدة، لم ينفع معها الخضاب، وتلحفت بإزار شدته إلى خصرها، وكانت بطيئة الخطو قاسية النبر، غاصت عيناها في رأس صغير، تظهر من خلالهما نظرات مخيفة و قاسية.

وتردد في عقلك صدى جزء من حوارها الهامس في الغبش مع الخليفة العربي وأنت تنزل الأدراج دون أن ينتبهوا إليك «مي الغازية تقول بصوت خفيض: بلدة العقرب. لا يعرفنا أحد فيها، وهناك سيقوم الجيلالي بالمهمة، لكن أخاف أن يرتكب النمرود خطأ ما»، وازددت معرفة بمدى قسوة قلب النمرود ومكانته في الدار الكبيرة ومدى تسلطه وجبروته وأنت تراه يصفع «مي الغازية» بعدما نطقت بالعبارة الأخيرة وشككت في قدراته وكفاياته.

من هي«مي الغازية» .. هذه التي جاءت رفقة «بحرية» لتودعاك في «القامرة» بمحطة السفر، بمركز «هوارة»، وعادت بصفعة قوية على الخد، أسكتتها ولم يجر في عينيها دمع، ولا بدت عليها حسرة، بل حثت الخيول على الركض بضربات سوط وهي تقود العربة بنفسها عائدة رفقة بحرية إلى قرية القراقشة..؟

الجيلالي ربما هو قاتلك، ودافنك في غياهب «بلدة العقرب» صرت لا تدري للوجود هنا لا قبلة ولا دبر، تنتظر هذا المسمى الجيلالي، في يدك حقيبة حزينة لغربتك، وعوالم غامضة تزيد اضطرابك وحيرتك.

عيون قاسية في رؤوس مخيفة ترصد سكناتك وحركاتك، ولم يتلاش الوجه الآخر الجميل، مازال طرياً بهياً، ومشعاً ببريق دافئ من عينين واسعتين ساحرتين، تجد بحرية بانتشاء قوي بين ثنايا القلب وبفرح غامر، عقلك يجمع تفاصيل صورتها، أتكون مغرماً بـ«بحرية» أم لشدة عطفها عليك تعلق قلبك بها اعترافاً بالجميل لا حباً جارفاً!؟ تكاد تشتم رائحتها في ذاكرتك، وأنت تسترجع بنشوة وفرح غامرين وجهها وهي تلوح لك بيدها قبل انطلاق الحافلة، المحيا المضيء... آه....! كم كانت عيناها الجميلتان حزينتين وهما يشيعانك، ولمعت دموع ساخنة في زوايا المدمعين، نعم.!. دموع على الوجنتين المتوردتين لتلك الفتاة الجميلة... الهيفاء، وتذكر أن معصمي «بحرية» تزينا بسوارين ودملجين من فضة وذهب، وتزين الصدر الناهد بقلادة ثقيلة تدلت ببهاء تلثم درب الغواية بين ربوتين منتصبتين على النحر، ريحك تهب الآن





جهة وجه بحرية وسمعك وقلبك وروحك ومسامك يستعيدون بانشراح وحبور صلصة الخلخال ويقظه، وتعقبت بنظراتك الساقين المكشوفتين، فهيجاك وأيقظا رغبة جارفة في جسدك، فتعود بفرح طفولي لتكتشف وهجك وقد ظننت أنه خبا منذ زمن وأنت في ريعان الشباب.

لمَ تلاشت وتبددت على حين غرة في طريق حياتك علامات المرور والإشارات والمرجعيات للهويات والعلاقات؟ ما هذا الشيء العاصف والمباغت الذي أنهى علاقتك بالناس، وبالواقع والهويات، والغريب أنك لأول مرة تساءلت «لمَ لا أدون هذا البياض وأترك أثراً، أعيه من خلال التوثيق حين أسترجع ذاكرتي!؟».

والحقيقة أنهم لن يتركوك تدون، سيحرقون هذا التاريخ الفاصل بين الصحو وزمن النسيان، لا يريدون إلا تاريخاً يكتبونه هم في الظلام، يملونه على مؤرخ يطعم من موائدهم، ويصنعون منه علماً من أعلامهم، تاريخ تدونه أقلام «المداحين» والحطابين والجزارين، كل حدث بلا قائد أو باشا أو سلطان لا يؤرخ، ولا قيمة له، قيمة الحدث مستمدة من قيمة الحكام والزعماء لا الشعوب، تاريخ يخلد أبطالاً من وهم، ويدفن الأبطال الحقيقيين من الشعوب، وسكان العالم السفلي في وحل النسيان والجحود والنكران، أو يحولهم المؤرخ إلى مجرمين أو حمقى أو لصوص وفي ألطف التعابير إلى متمردين مارقين خارجين عن الجماعة، شاقين لعصا الطاعة.

واليوم أنت متحرر من الأغلال والقيود التي تشل الأنفاس، وتحرق اليراع، وتبدد أوراق الأحداث، أو تزيفها، خوفاً من الذاكرة الموشومة بالألم، فالذاكرة تقض مضاجع المستبدين وتخيف الطغاة والجلادين.

صدى الصوت الأجش اللئيم لـ«مي الغازية» مازال قوياً في ذاكرتك، وعتمة الغبش تلفها بالغموض والرهبة...«لا تنس... يا النمرود....! خذه إلى حيث لا يعود أحد... لو صادفت الجيلالي فلا تشرح له، سيعرف ما هو المطلوب منه وإن لم تصادفه... عد... تواً... واترك سالماً في ساحة «رباط المزاوگين» وتستحضر رده الغريب المتطرف بالإشارة والإيماءة ما يعني «لو شاء سي العربي لنحرته هنا... ودفنته في الجحيم...».

أي جحيم يا لئيم أكثر من رفقتك، ووجهك الفظ، وغلظة طبعك، ونتانة تفوح من بدنك ولسانك!؟

وتتساءل بحيرة واضطراب عما هي مهمة الجيلالي الذي تعول عليه الشمطاء في إنهاء المهمة حين أردفت «قلت... لم يحن الوقت بعد... خذه إلى حيث يضل طريق العودة.... والجيلالي يعرف ما هو المطلوب منه...».

قررت أن تدون كل شيء من الآن... القلم طوق نجاتك من النسيان، القلم جسر عبور في الزمن، من الحاضر إلى الماضي، ومن الماضي إلى الحاضر، وشرفة رجاء تطل على المستقبل.

تنظر إلى الحقيبة التي لم تعد خجولة، قد ألفت ساحة «رباط



المزاوگين» كما ألفت أنت الوجوه والفضاء، لألفتك تصير حية، منذ منحتك بهجة الرفقة، شعرت أنها تحمل سراً مبهجاً، ألم تقل لك «بحرية» همساً «نجاتك في الحقيبة»، تفتش بين الثياب، فتجد ورقة معبقة بعطر «بحرية» فتشعر بخدر في الجسم والقلب يسري دفئاً وتقرأ والفرح يغمرك كنسيم الصباح، وأنت غير مصدق.

« حبيبي...

رجائي أن تتذكرني عندما تستعيد ذاكرتك، لتستعيد بحرية التي تعرفها في رحلة هروب الذاكرة، لا بحرية العادية ابنة عمك في الأيام الخوالي، ليلين قلبك لعشقي، وعقلك للوعتي. أحببتك وأنت تتجاهلني في الدار الكبيرة، غير أن فقدانك للذاكرة قربنا، لقد لمستني، نعم... لمست خدي، ونحري، وداعبت شعري الذي حررته من المنديل من أجلك، وسرقنا قبلات حالمة في غفلة من العيون، وبحت وأنت تهيج عنقي بشفتي جمرتين «بأنك تحبني».. كما أخاف من عودة ذاكرتك بحدودها القديمة، وبوجدانها السابق، ها أنت مرحل إلى بلدة العقرب، وما رحل إليها أحد وعاد أبداً حياً، أو رجع إلا في نعش، أو صار خبراً من الماضي، هذا ما سمعته من تقاة. لا تستغرب..! من لغتي.. فأنا أكاد أكون عصامية، ولا تبخل علي الرهبات بالكتب فرنسية وعربية.. الكتاب أنقذني من الموت، الكتاب رسخ في أفقي الرجاء والأمل، وفتح عيني على عالم كنت أجهله، سنتحدث في هذا حين تعود، عليك أن تعلم أن مهمة الجيلالي على بساطتها خطرة وسرية، والعطارون هم أعين النصارى و القواد، ومنهم قطاع طرق يختبئون في عباءة

العطار، للقتل والاغتيال بأمر من أسيادهم، والجيلالي بينه وبين أعيان المنطقة من البغاة والظالمين صفقات كثيرة في القتل والنفي وأخبار جارية، وأسرار قديمة، كان سيستقبلك في بيته كضيف من عائلة بعيدة، ثم يسقيك السم جرعة جرعة، حتى يذبل الجسم، ويصير عليلاً، فتموت، والناس لا علم لهم في بلدة العقرب، سوى أنك جئت مريضاً، فاشتدت عليك العلة حتى هلكت، فتدفن هناك وينتهي أمرك...

حبيبي ونور عيني...

لقد خبأت لك قلم حبر أصيل وكراس صحائف، سجل ما تعيشه واحتفظ برسالتي علها تشفع لي عندك، وتتفهم يوماً أنني أسيرة العقل والقلب في دار الظلم والجور، لكني عاجزة، وقد قطعت الطريق على الجيلالي الملقب هناك «بالشيطان»، فرشوت القائد المسمى العبري، ذهباً وفضة وعنده حل لك إلى أن تستعيد زمن الحقيقة، واشتريت وفاء «المرسول» إلى الجيلالي بمال كثير حتى ركبه الطمع، فأعماه ولم يعد يسمع غير رنين النقود، فاستغنى عن المهمة بالصرة، فلن تصل الرسالة أبداً، إلى الجيلالي، فما أغدقت عليه به، يكفيه ليرحل عن بلدة القراقشة ويغنيه عن مد يده لأحد.

أحبك... تذكر هذا... دوّنه في الكراسة وابدأ به في أول سطر... رجاء... فلا أمل عندي ولا رجاء سوى أن ترضى وتجد في عقلك ذكرى جميلة لي وتذكر عهدي، وإن لم يَمِلْ قلبك لي، فلست أكرهك على عاطفة لا تؤتى بالإكراه والإغراء والترهيب، فالحب إما جارف صادق، أو عازف مفارق مارق. أذكرني في ثنايا كراستك، على وجه صحائفك، علني أجد نفسي في حقيقة عالمك، فلست على ملة أبي في السطوة والجشع، كما لم تكن أنت على ملة أبيك فيما كان فيك، ولو استحيائي من ذكر ميت بشر، لقلت فيه ما قلت عن أبي ويزيد، أنا فقط مكرهة لا خيار عندي.. أنتظر الخروج للحياة».

ولأنك مشوش، استغربت من الرسالة ومن صاحبتها. أتحبك لدرجة أن تخون أباها الذي رعاها وأغناها!؟ أعشقها يدفعها لتغامر بحياتها فتغير خطط الخليفة العربي ومن معه!؟

أهو الحب أم المكيدة؟ أفعلاً ما تقول صحيح؟ هل يرفع عقلك الآن المتاريس نحوها، هل يطفئ الأضواء الحمراء ويترك عاطفتك الحقيقة تمر نحو طيفها؟ لا.. بحرية هي طوق النجاة في الماضي والحاضر والغد، أسيكون لنا غد!؟

وتستعيد لحظة توديعها لك، كانت تبكي بحرقة، وتساءلت حينذاك «ترى لمَ تبكي....؟» ورأيت العجوز «مي الغازية» تنهرها بقسوة وتلكمها بقبضة كفها على ظهرها، وتجرها بعيداً... وددت لو تمكنت يداك من عنق الشمطاء لتدقه دقاً وتسحقه سحقاً، كحجر من جير وتحوله أجزاء بل غباراً طحيناً، واستحضرت الوجوه والعيون حين امتلأ المكان بحشد من الناس، قبل أن تنطلق الحافلة، كان الكل ينظر إليك، واختلفت النظرات بين

مشفق ومستغرب، عقلك هاله كل هذا الفضول والحشد، تنحط «مي الغازية» بزيف وتقول «أنا من ربته... سنأخذه عند الولي الصالح» سيدي الرقاء «علّه يشفى من مس ألم به...».

كدت تفر من بين قبضتي النمرود، وتصرخ: «لا....لا....هم يريدون قتلي... دفني حياً... لقد أمرهم عمي الخليفة بأخذي إلى مكان لا يعود منه الناس،... وهذه المرأة مدعية متواطئة» لكنك صمت، خوفاً من أن يعودوا فيكبلوك بقيد من حبال خشنة، تجرح معصميك.

تسترجع وأنت تنتظر هنا ما سيحدث... هذا المسمى الجيلالي هل فعلاً لم يتوصل بالرسالة؟ ما الخطة البديلة للقائد العبري الذي رشته «بحرية»؟

تسقط الحقيبة من يدك أرضاً... كل وتعب ساعدك... واستشعرت البرد القارس، يدب في جسدك، يؤازره الجوع والانتظار المر والعبث المؤلم... فعلاً لم يأت الجيلالي... هناك منعطف في حياتك حدث، الآن لم تعد تنتظر الجيلالي، صدقت «بحرية»، وابتسمت للحقيبة، فغمزت لك، فخشيت الجنون، فعدت تزكي ما رأيت منها بالخيال الجميل لا بالخيال المريض، نعم ومن الخيال ما يعد جنوناً وهو بهاء وجمال، فحين تصير الأشياء حية في روح قصيدة ملتهبة، تضحك الحقيبة والغيمة والفراشات، وفي انتظار ما سيقع تسترجع أجواء الرحلة، يرشدك فرحاً عبق «بحرية» ورسالتها في جيب سترتك الأقرب إلى قلبك.



من نافذة الحافلة، أكملت المشهد، تزداد بإصرار ضربات «مي الغالية» البخراء، على ظهر «بحرية»، تشعر الآن برغبة في قتل نتنة الإبطين، وبحرية تسمعها في عقلك تنتحب وتبكي... وكنت مشدوهاً هي تلوح لك بيدها الصغيرة الجميلة.

وتعود للبدايات...

من محطة النقل بمركز «هوارة»...

هدير المحرك يعلو ويعلو...

تهتز الحافلة اهتزازاً.

وغثيان يلوح في الأفق

تبدأ الرحلة الموحشة نحو المجهول، ويتبدد الحشد كضباب الصبح في جو تملؤه همهمات وأحاديث خافتة، إلا دموع «بحرية» لم تتبدد رغم قسوة وجلافة البخراء.

وطوت الحافلة الطريق في يوم وليلة...

تتذكر أنك أتيت من بلدة «القراقشة»، عليك ألا تنسى هذا الاسم ووجه بحرية المضيء وغلظة العجوز الشمطاء، لمَ قرروا ترحيلك إلى حيث تضل؟ لم تجد الجواب في عقلك ولا في ذاكرتك، لكن ذاكرتك تخيف، لمَ النمرود اقترح أخذك إلى الآخرة ... ؟

وطوت الحافلة الطريق طياً...

ومع كل منعطف على الطريق

تطوي ذاكرتك الأحداث والأخبار

وتخاف أن تنسى وتضيع معالم العودة، لكنك تعلم أن نقطة البداية في ذاكرتك الآن ذاك اليوم الذي ألمت بك فيه لوثة النسيان، ونقطة النهاية يوم تصحو من سكرة النسيان... يوم تبعث «كالفينيق» من الرماد.

تسترجع هرير النمرود وهو يفك وثاقك، وينظر في عينيك نظرة صارمة ويقول بالإشارة «إن تحركت بدون إذني، أشبعتك ضرباً مثل هذا الكلب» ويركل كلباً كان رابضاً قربه، ركلة قوية، فيعوي ويئن وهو يركض بعرج بين، وأضاف معبراً بالإشارة والحركات بغضب وقد تدفق بقوة الدم في عروقه حتى كاد يقطع أوداجه وهو يقلع رأس ديك بيده ويرمي به بعيداً فيهتز اهتزازاً والكلاب تنهش لحمه وعظامه نهشاً حياً، «وإن تماديت، قطعت رأسك ورأس «بحرية»...مثله...».

ضرب على صدرك بقوة وجمع العبارة بمشقة، فمقطوع اللسان يريد أن يعبر، فتبعثر حرف السين بلا لسان وغدا شيناً مشبعة، والتاء خرجت عارية بلا صفة غير صفير جنوني ورذاذ لعاب:

- «أسمعت؟».

قد تقبل أن يركلك ويقطع عنقك، لكن لمَ هددك بقتل «بحرية»!؟ من أجلها لن تغضبه أبداً... ولأنك لا تريد أن تركض من الألم مثل ذاك الكلب، ولا أن يقطع رأسك أو رأس بحرية مثل ذاك الديك وتنهش الكلاب لحمكما حيين... خضعت مكرهاً وحذراً لا جبناً، وغدا هو الآمر المطاع وأنت المطيع وإن في جفاء،



وكلما فكرت في الهرب، تذكرت عويل الكلب... ورأس الديك... وخفت على «بحرية».

سمعت والخوف يتربص بنفسيتك ما دار بين السائق والنمرود من حوار البكم الغريب البارد بلا معنى، لكن أدركت أنه كجلاد محترف، لا يحب الفضول ولا الأسئلة الطائشة.

لم يقل السائق الفضولي غير:

- شفاه الله... رغم أنه لا يبدو عليه أي مرض... ربما لو لم تكن معه لهاج، «يضرب لك ألف حساب...».

كلمات خرجت من فم السائق وهو يعالج مغير السرعة، وانتظر رد النمرود لكنه ظل صامتاً. فأردف وهو ينقل نظراته بين وجه الكلب النمرود والطريق:

- أتأخذه إلى «سيدي الرقاء» فتلك زاوية ما زارها مريض إلا شفي...؟

تنظر في وجه النمرود، تراه كالصنم الغارق في وجوم ملتبس، يرسل إشارات لا تحتاج من السائق إلى كبير مجهود لفك شفراتها، النمرود يكتفي بجواب مختصر ولا يزيد، لا يريد أن يترك أثراً ولا شهوداً....نعم....يختصر الجواب ضجرا متبرما، ويغلق باب الحوار قائلاً سلاحه القسوة وافتعال الغضب بإشارة معبرة وحركات واضحة: «اهتم بشؤونك...!».

- هل أنت أبكم؟ عذرا إن تجاسرت.

انتابت النمرود نوبة غضب جارفة، فبدأ يهتز ويضرب الأرضية بقدميه الغليظتين، ويصدر أصواتاً حادة، أخافت الأطفال الذين طفقوا ينتحبون ويصرخون، فعمت جلبة الحافلة، هذا النمرود، ما كنت لتعرف نقطة ضعفه، اللمز له «بالأبكم» لولا تجرؤ سائق طائش بحسن نية.

وخاف السائق من النظرات، ومن القسوة، فهرب بعينيه من الوجه الذي يعلن عن روح شريرة لا ترحم، وقلب من حجر، ويد رعناء لا تؤجل حسم الأمور، وتساءلت لحظتها «أيكون السائق رأى الكلب الذي كسرت قائمته الخلفية بركلة واحدة؟ أيكون تابع مشهد الديك المقطوع رأسه الذي نهشت لحمه الكلاب، وتسابقت نحو رأسه القطط؟».

مريض إذن أنت، هكذا يروجون قبل أن يقتلوك، تتلمس جسدك، تجد فيه قوة وعنفواناً، تجس بسمعك الرهيف دقات قلبك، تسمع صدى مضخة قوية، لا علة فيها... لا تشعر بألم ولا وجع... بصرك حاد... سمعك قوي... لسانك لين طلق... شمك سليم، والسائق نفسه قال أنْ لا عرض من أعراض الجنون بادية عليك... تعلم فقط أنك في صدمة من حدث لم تطقه فلذت بالنسيان كما قال الطبيب، هرباً من صدمة كبيرة هزتك من الداخل، ويوم تقبل بها، ستلتئم ذاكرتك، حينها لن يخذلك العقل، وستجد ذاك الضوء الذي ينير لك الوجود، وتلك الخرائط ستترتب وتنتظم في عقلك حتى ترسم لك العبور نحو حقيقة الوجوه والأشياء.





تمنيت لو كان بإمكانك أن تسأل السائق لمَ حسبك تحسب ألف حساب للنمرود، وأنت قوي البنية سليم الجسد. ولأنك لا تجرؤ، وقد ينهرك الخصي أو يصفعك على خدك، وأنين الكلب مازال عالقاً بسمعك، وصورة الديك المترنح بألم شديد من حر الموت ما زالت طرية في الذاكرة، لذت بالصمت.

وتستحضر بقية الأحداث، النمرود يلتزم الصمت والوجوم، السائق يخرج من الحوار بخفي حنين ويشعل سيجارة حنقاً وتبديداً لخوف ما، هذا ما بدا لك من نظراته وهو يعصر السيجارة عصراً، سحابة دخانها تهب عليك خانقة، فتبتلعه مع الهواء تكح كحاً شديداً، أوشك أن يقطع أنفاسك، ينظر إليك بعبوس وغلظة وقساوة، بإشارات منه، تفهم أنه يتمنى لك الموت حتى يستريح منك ويستريح الآخرون، النمرود يريدك ميتاً... في موتك راحة وهناء له ولآخرين....لا تعرف لمَ يريدك ميتاً....ومن هم الآخرون.

ومازلت في تداع لأحداث الرحلة، والعقل ينبش ليتلهى عن الفراغ، ويخفف وطأة الانتظار، فالجيلالي صار في خبر كان، لكن الخطة البديلة للقائد العبري لم تشهر بعد أول ورقة، ولم يرفع بعد ستار الجديد من الأحداث...

وتطوي الحافلة الطريق طياً....

مع كل طية ودورة...

تدوّن في عقلك ذكرى مرة...

ترسخ آهة عبرة...

وتصير بلدة القراقشة من حيث خرجت نقطة في بحر، ثم تختفي معالمها مع اختفاء الثلوج من القمم وعلى الطرقات وتكاد تنسى كل شيء إلا وجه «بحرية» البهي.

مازلت هناك تنتظر، هنا في ساحة «رباط المزاوگين»... أتكون الخطة البديلة أن تعيش هنا...؟

الانتظار انتحار بحبل الفراغ

سمه الذعاف الهواجس والأهواء

الانتظار موت موقوف التنفيذ

الانتظار أنعم طريقة للإعدام....

لن تجعل الانتظار يلف حبله حول عنقك، ستقاومه.. تتحسس بلذة واغتباط رسالة بحرية في جيب سترتك، وتخرجها لتشم العبق الساحر، وتستحضر القلب الطاهر الذي ظلمته كثيراً، والروح التي عذبتها جوراً وتسرعاً، فتقول في خاطرك والندم يعصرك عصرا بين رحى الحسرة، والحقيبة شاهدة، والشيخ الزجال ينظر إليك، وأهل الرباط يسمعون البوح :«سامحيني يا ذات الخلخال» وتقر أخيراً بلا تردد ولا توجس أن بحرية هي الحقيقة الوحيدة حاليا، وأن تسكن رغما عنك في منطقة ساخنة في الصدر، بل تقيم خيامها في القلب والروح، وتشعر بارتياح غريب، فما عدت تعقد الصفقات مع العقل، وتؤجل الحسم في قضايا الروح، اعترافك فتح لها بشكل غريب وعجائبي نافذة على فرح منتش.



أتذكر؟ وحدها بكت لرحيلك...

وحدها لوّحت لك بيد صغيرة.

رقصت روحك الحائرة...

مع رجع صلصة الخلخال...

بحرية من البحر والشجر...

هي مجاز راق لأناشيد الغجر...

بحرية كناية عن الفرح

في رتابة عبورك اليومي

نحو مرافئ القهر والترح...

وانتبهت أنك تفكر شعراً، وكيف تعرف أنه الشعر؟ لا تدري... تدبج الكلمات في خلدك راقصة... وتظل هي الكلمات نفسها أقدم من الشعر واللحن.

اتخذت قراراً بحبور غامر، ففتحت جزيرة الأعراس، فقط كان يلزمك سيف اليقين لترتاح وتنزاح عنك الغمة، وها هي بحرية ترتقي في سماء مشاعرك، تغدو مصدر أمن وسكينة، تغدو الصلاة الأخيرة لك لو كان لابد من العبور إلى المجهول، فتناجي روحك منتشيا بفتحك الجديد لكوكب اليقين «لو كان لا بد من الموت، سأستدعي طيفها ليساعدني على العبور في سكينة ورباطة جأش»...

وعـادت بحريـة طيفـاً إلى مدنـك الداخليـة، تشـعل الأضـواء في المعابـر المظلمـة، وتسـقي شـجرة الأمـل في حدائقـك المتواريـة، وحفـرت بعيـدا في ذاكـرة الشـم واللمـس، فاهتديـت إلى أريـج حدائقهـا، ونعومـة جسـدها.





## ١١

وبـدأت التدويـن، وعـلى ديـدن القدمـاء أردت أن تـدون موجهـاً الخطـاب إلى شـخص مـا، حتـى تغـدو اللغـة سلسـة، والعبـارات غـير عصيـة، ولأن «بحريـة» غـدت بوصلـة القلـب والـروح، اخترتهـا المخاطـب حتـى تنعـم بطيفهـا فتبـدد بـه وحشـة بيـاض الأوراق، وتحسـم تـردد العبـارات عـلى عتبـات البـوح، وحتـى تضمـن أن أوراقـك لـن تضيـع، سـتوصي أحـداً مـا أن يرسـلها لهـا إن مـت أو اختفيـت...

وأردت بصبابـة لم تشـعرها قبـل أن تشـاركك «بحريـة» كل لحظـة، بخيالهـا وصورهـا، فتقـدم الاسـتهلال الجميـل، بنـداء الحبيـب البعيد:

«حبيبتي «بحرية»...

طالـت أصابعـي الـيراع برعشـة، فبددتهـا بجـذوة مـن طيفـك، وابتهـج القلـم وفيـه عبـق مـن مـداد اختلـط برائحـة أصابعـك، أشـم فيـه أريـج نحـرك الزهـري، فأسـترجع لمسـاتك الدافئـة التـي أفتقدهـا في هـذه البلـدة القاسـية الوجـوه والأجـواء، لا أعـرف مـن أي تـأتي روائـح الجبـل الصامـد، هـل مـن رواسـب الحقيبـة، أو مـن أثـر الهـواء

العليل على الأشياء... هكذا شعرت، حبرت الصحيفة وقد عانت تجعداً من أثر الرحلة الشاقة، رغم حنو الحقيبة الحالمة...

رجعت الدواة رجاً، فلم تبد استياء ولا قلقاً، حتى كدت أسمع أنين حبرها همساً، كأنه يخرج من بيات شتوي بصخب، وما عذب الدواة الرج الشديد، ولا الخلط العنيد، فحبرها متشوق لأحضان البياض منذ زمن مديد فاحتمل بنشوة هزات البدايات كمخاض أم متشوقة رغم الوجع الشديد لوجه الوليد.

حبيبتي....

قد تكون لوثة نسياني تحول بيني وبين شعاب ذاكرتي، لكنها لم تقدر على الخيال والمجاز والبهاء والشعور بالجمال... اليوم فهمت لمَ الإبداع في حاجة إلى جرعة جنون... أأكون شاعراً في واقعي المعتاد؟ ففي نشوة عارمة ولذة جارفة، أسمع الأشياء كالأحياء تخاطبني في الخفاء، وأشعر بفرحها وأساها، بقلقها وحبورها، فأفك شفرات تعابيرها بنظرة أو لمسة، كأنها تحاورني، ألم تغمز لي الحقيبة!؟ ربما ستضحكين يوم تقرئين ما دوّنت، أو يركبك اليقين أني مجنون...

افترشت دون ضجر الأرض، ما همني خمامة محيطة ولا قمامة قريبة... وطفق رأس القلم ، يغتسل بفرح من حبر الدواة منتشياً، حالماً، لا أجد هنا غير موسم العشق، يراع هائم في دواة، وحبر صب عاشق لقرطاس.

الشيخ الزجال عبد الباقي، ينظر إليّ منشرح الأسارير،





جذلان، كأن القلم والكراسة أسكراه، فاستقام واقفاً وتقدم نحوي، ثم ربت على كتفي مبتسماً، وقال وهو ينظر إلى السماء:

**من النبع الصافي، يا مداد الحكمه**

**واسي القلوب المفجوعه من الغمه**

**وغسل النفوس الخايفه من الرعشه**

**بكلمة حره تحشد العزيمه والهمه**

**الكراس، يخلد الحكمه والدهشه**

**والراس يسهى وينسى في الظلمه**

تسكرني الكلمات والأمثال والحكمة، يغمرني وجه الشيخ الزجال سي عبد الباقي بالأمل والسكينة، وعبقك البهي يحفزنني على الرحيل بذاكرتي والسفر بعيداً، علني أبدد وجوم هذا الانتظار، ألم تقولي إن الجيلالي لم يتوصل برسالة اعتماد «قتلي»؟ سأستمر في التدوين... لن يضيع شيء من الألم، سأحاصر ألم الانتظار، وجحيم الفراغ والرتابة بالعبارة والكلمة طوق نجاتي في محنتي، الكتابة، صدقيني الكتابة تنقذني من الانتحار.

أستحضر من جديد أجواء رحلة النفي الرغيم..

تطوي الحافلة الطريق طياً....

تطوى خرائط لتحل محلها خرائط بتضاريس وضوضاء حياة جديدتين، بوجوه وأنشطة وأشجار وطيور وحيوانات مختلفة....

كانت عيناي تلتقطان يا حبيبتي بدهشة هذا التحول الذي يمسخ مسخاً الطبيعة والوجوه والأشكال والأنواع والروائح فتتحول الحياة رويداً رويداً من خضرة إلى الشحوب فالصفرة، كأن مصيرها بأصابع رسام مزاجي، يضيف الضوء على الألوان وينشر الظلال، كان أديم البسيطة طين يبهت في شحوب وأنا أقطع المسافات في قلب تلك الحافلة الضاجة محركها وهيكلها، ليغدو أصفر مختلطاً بالحجارة وعقلي يعد الأشجار المسافرة على شاكلتي الطريق....

تطوي الحافلة الطريق طياً...

تتابعت أمام عيني أشكال جديدة بعدما اختفت أشجار الأركان والزيتون وواحات النخيل، فاختفت معها معالم الأصل، أين الصنوبر والسنديان؟ هنا يوجد النخيل السامق لكن بلا تمار، وشجر كثيف بلا اسم ولا تمرة لا أعرفه، وأخيراً فراغ... عدا شجيرات متفرقة هنا وهناك...

أريد أن أشاركك اضطرابي في هذه اللحظة، لا أفهم فعلاً أصل وعمق هذا النسيان، هذا الشرخ في الذاكرة الذي لم يطل الروح، صدقيني للروح ذاكرة احتياطية، إنني أنسى الهويات والوجوه والروابط والعلاقات، ولا أنسى الجغرافيا والتضاريس وعبق الأرض، ورائحة التراب المبلل بالطل أو الندى.

حبيبتي «بحرية»... أشاركك هذا الشعور... الأرض أحق بالذاكرة من الوجوه التي تتلف مع الزمن، فقد لاحظت أن



الأرض تغير جلدها كثعبان، فتتغير لذلك الوجوه والتعابير، والألبسة والنظرات واللكنات والسحنات والانشغالات والحيوانات والطيور و حتى الحشرات....

تذكري أن هذا استرجاع واستدعاء لأحداث قريبة....

والحافلة تطوي الطريق طياً...

توارى الجبل، لا أعرف أين اختفى وراء الأفق، وحلت مكانه الهضاب بوجهها الترابي القاتم، ثم منخفضات بلون الجير، حيث لا نبات غير حشائش الحلفاء والدوم وشجيرات الحنظل، ولكني حملت في قلبي إلى هنا بلدة القراقشة، فالوطن هو الذاكرة الأم.

هل تصدقيني لو قلت لك إن للماء بصمة؟

تغير طعم الماء، وأنفي يلتقط رائحة غير عبقه المعتاد، مازال ذوقي وبصري وشمي وسمعي بوصلة للنبع والأصل، يرشدونني إلى من حيث أتيت، تنام بلدتي الأصل مشجاة على فراش أبيض إلى أن يحل الربيع، فيغدو السرير أخضر بهياً، نعم، تلك قوة جنوني إن كان جنوناً... لا أنسى الأصول والفصول.

صدق الشيخ الزجال، فقط «القلم يهزم النسيان والأوراق تبني الجسور بين الأزمان».

وتطوي الحافلة الطريق طي الدهر للأيام...

تذكري أنني في «رباط المزاوگين» مفترشاً الأرض، في يدي يراع متشوق للاغتسال في حبر الدواة، وحولي البؤس والجنون

والخـوف، وعينـا الشـيخ الزجـال ترقبـان هـذا الإنجـاز بشـوق وحبـور، أنـا في حالـة اسـترجاع، أدون عالمـاً أخـاف أن يغـدو بعدئـذ بـلا خرائـط...

لا أنسـى رائحـة الـتراب والمـاء وشـجر الأرز، ووجـه السـماء وشـكل الجبـل، وطعـم المـاء وبريـق النجـوم في السـماء، وصمـت الجبـل وضحكـة السـنديانة... هـم خريطـة العـودة مـن المنفـى... هـم الهويـة قبـل الـدار وشـهادة الجـوار... فالأجسـاد بالعقـول والصـدور والقلـوب تتعفـن وتصـير غبـاراً وعدمـاً... والأسر تتبـدد... تتفـكك وتتهـاوى حتـى تغـدو بـلا أصـل واضـح بـين، والعقـول تشـيخ وتجـن، والحكمـة كـما قـال الشـيخ الزجـال قـد تصـير نقمـة وتهمـة، والشريـف نبـذاً منبـوذاً، والفكـر شـبهة وخوفـاً مـردوداً، والذكريـات مهـما ترسـخت، تتلاشـى وتتبـدد مـع الزمـن وتصـير أحيانـاً عرضـة لسـقم وقهـر وألم، والأقربـاء أصـولاً وفروعـاً، قـد يجحـدون حـد الإنـكار، وقـد يختفـون سـاعة الإشـهاد... والقبـور تنبـش نبشـاً لإخفـاء الهويـات الأولى، والمقابـر تبعثـر لتغيـير التاريـخ والمعـالم، والشـواهد تـزور لصناعـة هويـات جديـدة للتيـه والضيـاع، والتاريـخ يدلـس ويلفـق، والملامـح والأمجـاد تشـترى وتبـاع في المتاحـف، وكثـير مـن الزيـف والشـهادات الباهتـة تغلـف بهـا قضايـا حاسـمة وتـدس بـين الحفريـات لعنـات وضغائـن، فتصـير بقايـا مزيفـة لتزويـر الوجـود والجـذور.

وحدهـا الأرض لا تنسـى أهلهـا ورائحـة عـرق سـواعد رجالهـا، ونظـرات نسـائها، وبصمـة ضحـكات أطفالهـا، بسـمائها ونجومهـا وشمسـها وأشـجارها وحقولهـا وجبالهـا، ستتعـرف عـلي يقينـاً، ومعي





أنـت شـعلة الرجـاء ودثـار العـزاء، وحدهـا الأرض غـير جاحـدة، ولا تنسـى أبناءهـا مهـما طـال بهـم السـفر والتيـه والنفـي والشـتات.

مـن يسـتطيع أن يـزور الشـمس والقمـر والـتراب والحجـر ولوعـة الغـاب!؟ مـن يسـتطيع أن يزيـف قلـب النجـوم الغارقـة في عشـق الرعـاة، وفـرح المـاء العاشـق للضفـاف ولوعـة الغيـوم مـن حنـين للقمـم والمحيطـات، وأعـراس الجبـال ورقصـة المهـاد وصخـب البهـاء في السـهول!؟

تلـك هـي الهويـة، لا تمنحهـا قـراراً وحكـماً جماعـة عـلى منصـة، ولا وثيقـة مـن تاريـخ يزيفـه مـداح أو سـفاح، الوطـن هـو الذاكـرة الأم.

الـيراع خصـم عنيـد للنسـيان، والعتـاة يخافـون الذاكـرة، لهـذا يقـض مضاجعهـم صريـر القلـم المتمـرد، الكراسـة أجـراس صاخبـة في الذاكـرة المنهكـة، نواقيـس ترشـد قطعـان الأفـكار إلى مـروج الحريـة والانطـلاق...

وعبقـك مـدادي ودواتي، وبسـمتك صـارت سر أناقـة الورقـة في غمـرة البـوح... هـل أنـا شـاعر...؟

وتطوي الحافلة الطريق طياً...

تذكـري هـذا اسـترجاع لذكـرى قريبـة، وليـس وصفـاً لراهـن مريـب...

جـلاد الرحلـة يـا حبيبتـي... تفـرّس في وجهـي لحظـة، تمنيـت لـو اسـتطعت أن أسـأله مـن أيـن أتـى ومـا قصتـه، لا أدري لم كل هـذه

الفظاظة في قلبه، والقسوة في روحه، لم أسأله... وتذكرت الكلب المسكين فمازال يئن في ذاكرتي، والديك بلا رأس مازال يترنح في عقلي.

حبيبتي ... الحبر يتجمد وعلي رجّه من حين لآخر، فهو أصيل كما قلت وليس من رماد صوف متخثر...

مازلت واقفاً في هذه الساحة، أنتظر الخطة البديلة، وكما قلت... صدقت فالجيلالي لم يحضر... الأطفال ينظرون إليّ، ويتناوبون عليّ، يتقدم فتى ضعيف البنية، آه...! لو أمكنني أن أصف لك حجم البؤس هنا والعوز، الفتى يطلب خبزاً... صدقة....رغيفاً...

الكبار شيوخاً وشباباً ونساء يتابعونني بعيون خائفة في هذه الساحة المسماة رباط المستصرخين، أشعر بوزر الفراغ في حياتهم، ألمس عمق ووزر الرتابة في وجودهم، تجرأت إحدى النسوة وهي تترنح شبه عارية، زائغة البصر، ربما سكرانة، أرى شراهتها الجارفة في الارتواء من قنينة كحول، تجرأت وقالت والسكر يغلب محاولة انتصابها «اشتر لي رغيفاً....رحم الله والديك...».

لا أرد، ليس لي الوقت للإجابة أو الاستجابة، مازلت صائماً عن الكلام، تخطو بعيداً عني، كما ابتعد الأطفال وعادوا يركضون قطعة من بقية عجلة جعلوها كرة، تتقاذفها وتركلها الأقدام والضجيج سيد الفضاء و الجلبة لا تخفت ولو لحظة.

سؤال يا حبيبتي لم ألق له جواباً... لمَ ألبسوني بَدلة عصرية،





وهم ينفذون قرار النفي؟ هل أرادوا خداع الناس؟ هل أرادوا إظهاري بمنظر يليق بكذبهم، ليخفوا الجريمة، جريمة الإبعاد ؟ يا لخداعهم..!

حبيبتي! سأتوقف عن الاسترجاع، وأنقل لك أحاسيس طافحة في الراهن القاتم بلا أمل لولا رسالتك. واحة العزاء والرجاء.

أشعر بإعياء وتسري قشعريرة باردة في جسدي، أكنس الفضاء يلفني اللغز والصمت، في زاوية هناك قرب دكان مغلق مصطبة، أقف منتصباً، أحمل الدواة في يد والقلم في جيب السترة، قد يلطخها، لا يهم، شرف لها أن يبصمها بحبر مداد عاشق غير متزلف للأهواء، برودة الأرضية وصر الأجواء دفعاني لاختيار مصطبة، فأتهالك عليها، الشيخ يتعقبني، يمدني بمزيد من الخبز والتمر، هنا مصاطب كثيرة، والكل قابع ينتظر، وجوه كئيبة كأنها في خيمة عزاء، وأجساد مترنحة من خمر أو تعب وهزال، وكائنات قلقة يقتلها الفراغ والضجر.

أنتظر، ماذا أنتظر؟ لا أدري، ربما القائد العبري نسي موضوعي، ليس لي من حل سوى الحفر في الذاكرة، والشيخ الزجال يقاسمني الآن المصطبة، ويضع على ظهري غطاء، ويبتسم في وجهي، كأنه عاشق للتدوين، ومبجل مقدس للذاكرة، وحدهم الحكماء لا تخيفهم الذاكرة، الذاكرة لا تخيف غير الجبابرة.

«بحرية»! الآن أحفر من جديد في الذاكرة القريبة، وأنا مستلق

في راحة، وسبع تمرات شهيات أخرى من يد الشيخ الزجال سي عبد الباقي أنعشت جسدي، ولا أكتمك سراً، أتضور جوعاً، لولا تمرات الشيخ، وأشعر بالغربة، لولا قربه مني، أشعر بالقر النافذ لولا الغطاء الذي رماه بعطف على ظهري، كم صرت أحبه، وأتشوق لشعره، لوعيده و بشاراته...

وتطوي الحافلة الطريق طياً...

صمت عن الكلام طوال الطريق، خلال الرحلة أقرأ فقط الوجود من علامات التوجيه والتشوير على الطريق، وتعلمت خريطة سفري من قراءة الإشارات، وأدركت أني قارئ جيد وفاهم في علم لا فطنة فحسب، وعلمت أني وصلت إلى بلدة اسمها بلدة العقرب، والحافلة تنحدر نحو مركزها ببطء شديد، وأصدقك القول صدمت حين اختفت الحافلة في البداية، لكني ارتحت لاختفاء النمرود، فتسمرت حينذاك في مكاني.

ستقرئين باقي التفاصيل، لكن من زاوية أخرى، لا تنسي إن توصلت بهذه الأوراق من جهة ما، فاعلمي أنك صرت وصية على الذاكرة والألم الجماعي.





## ١٢

تميل الشمس إلى الغروب على البلدة الغابرة المغبرة، ويلف الأجواء الواجمة في عبوس زمهرير قوي ترتعش له الصدور والقلوب، وترتجف له الأبدان، ولا يرحم لا صغيراً ولا شيخاً عاجزاً، فيستعين الناس هنا كلما حل شهر يناير بقسوة برودته وشدة زمهريره في ساحة «رباط المزاوگين» بالحطب على قلته والحشائش الجافة من الدوم والحلفاء والأغصان اليابسة والخشب ومتلاشيات متنوعة ليطردوا سطوة البرد الشديد عن أجسادهم....

هنا وهناك، توزعوا فرقاً وجماعات غير متجانسة، الكبير مع الصبي والمرأة حول النار المترنحة ذات اللهب المتصاعد في السماء، وتختلط أصوات النار في المواقد، بين أجيج يغدو بسرعة هجيجاً، أو كصيص ينتهي فرقعة للحطب في حفر أو قصع من قاعدة براميل حديدية مهملة، فأسمالهم لن تقيهم حتماً خرقها برودة هذا المساء.

تمنى سالم لو كان بإمكانه أن يتحلق مع جماعة منهم حول اللهب، ليدفأ قلبه قبل جسده، وليأنس بهم من وحشة المساء، فبرد البلدة هنا يطاق، مقارنة مع قر بلدته الأطلسية، حيث عاش

ونشأ منذ نعومة أظافره بين الجبال المشجاة دوماً في هذا الشهر بالثلوج، لهذا بالنسبة إليه هذا الجو البارد هنا يطاق ويحتمل أكثر من البؤس والوحشة.

على سفح الهضبة الرمداء، انتشر أطفال «رباط المزاوگين» يجمعون كل ما تطاله أياديهم وكل ما هو قابل للاشتعال، وبعض المعوزين أشعلوا النار في عجلة مطاطية، فتحلق حولها من لا حطب ولا خشب له، تصاعد دخانها الأسود الخانق، ورغم ذلك ظلوا قريبين من اللهب، وصارت جذوة النار تنتقل من موقد مشتعل إلى آخر ينتظر دوره.

يرغب سالم في الهروب بعيداً، كاد يطلق ساقيه للريح، وقد تأخر وعد «بحرية» وضجر وتسرب لقلبه الشك قوياً، ولم يظهر للقائد العبري ولا لأعوانه أثر، فعزف عن التدوين، وجلس متأملاً فيما حوله وقد بدأت العتمة تغير السلوك والحركات والسكنات والأفعال، لكن إلى أين اللجوء، والليل بهيم مخيف في بلدة العقرب وخارج البلدة لا شيء غير الفيافي والوحشة؟

ماذا ينتظر؟ معجزة ما ربما من السماء أو الصبح ليغير بوصلة الاتجاه في وضح النهار حيث تتراءى له الكائنات والأشياء بلا حجب ولا غطاء، هل خذله القائد العبري؟

لا تنفك الأعين في الأجساد الهزيلة على المصاطب المترية تراقبه وتتفرس في وجهه، عدا من انشغلوا بالقمار والضجيج وشرب الكحول وتدخين الكيف.



عاد عقله ليحفر، سيدفئ عقله بالسفر في الزمن، يعلم أنها لعبته المريحة، لا تخيفه الوجوه القاتمة بل تشعره بالسأم، لكن يزعجه ضوضاء هؤلاء المقامرين على ضوء اللهب الذين كلما مال الحظ بالصدفة إلى غالب إلا وتعالت الأصوات وارتفعت الأمواس.

لم يكن يريبه أو يخيفه ذلك، فقط كان ينظر ويوزع النظرات هنا وهناك مظهرا تعابير التحدي و مظاهر رباطة الجأش، منذ رحل الخصي النمرود، هم أنفسهم مرتابون منه وفي عيونهم الخوف والحذر، بعض اللصوص كانوا أيضاً هنا، لا يعرف كيف ميزهم من نظراتهم وتربصهم وسكونهم المشبوه، لكنه موقن أنهم لصوص، كانوا كالضباع ينتظرون أن تخور قواه ليجهزوا على حقيبته، وربما قد يفتشونه تفتيشاً قبل ضربه، لكنه وجد في قلبه شدة وفي عقله رغم حيرته عزما قويا على ردعهم والتصدي لهم، أينتظرن غفوته، نومه على المصطبة؟

عادت الصورتان المتنافرتان تضجان في عقله، صورة تنضح بالأمل والبهاء ل «**بحرية**» صاحبة الخلخال، وصورة قاتمة ببؤس للبخراء «مي الغازية». خشي الموت شنقاً أو غيلة، فهل اختاروا له الموت البطيء في الغربة، بلا هوية ولا رفيق؟ هل يعود للشك والريبة.. **أبحرية**.. صادقة..؟ أين الخبر اليقين؟ ألم يحسم في الأمر؟ قرر ألا يموت موتاً من اختيارهم، وهو يردد بعزم وحزم «لا يختار الموت إلا من اختاره، أو انتظره... لن أنتظره بجبن..».

لـن ينتظـره. إذن... سـيدون الأسـماء والوقائـع قبـل أن تـبرد وتخبـو ثـم تتلاشـى وتندثـر مـع النسـيان... لكنـه خـشي مـن ذكـر شـكه في «بحريـة» في هـذه اللحظـة التـي تكالـب فيهـا عـلى جسـده الـصر والقـر، وعـلى عقلـه الريبـة مـن اللصـوص، والتوجـس مـن شر مـا، وحـده الشـيخ الزجـال عبـد الباقـي، مـا زال قربـه عـلى المصطبـة، ينتظـر أن يعـود إلى التدويـن، وقـد توقـف حـذراً أن يـدوّن مشـاعر الريبـة في «بحريـة».

تغـرب الشـمس وتندحـر بضربـة قاضيـة داجيـة، فترحـل عـن أرض الحلفـاء والشـيح -بلـدة العقـرب- وتنتشـر الظـلال القاتمـة عـلى البيـوت في قعـر الـوادي الجـاف، حيـث لا مـاء ولا شـجر غـير الأتربـة والصفـواء، وتومـض أضـواء فوانيـس في الأزقـة، شـاحبة زادت مـن وحشـة الفضـاءات والأجـواء.

بعـض الـدور هنـا وهنـاك معزولـة عـلى منحـدر عـلى الهضبـة العاليـة، وبيـت قديـم ينبعـث منـه ضـوء ضعيـف لقنديـل يتيـم متأرجـح، و مـن بعيـد تظهـر قبـة خربـة عـلى القمـة بـين أطـلال وأنقـاض متاخمـة لمقـبرة مـن زمـن مـا.

تدثـر سـالم جيـداً بالغطـاء الـذي رمـاه عليـه الشـيخ الزجـال، وأفـاض بجـزء منـه عـلى رأسـه، هـل سـيمضي الليـل مـع اللصـوص والحشاشـين و«المهابيـل»؟ عينـاه عـلى الحقيبـة، والضبـاع والمقامـرون الذيـن مازالـوا يمنـون النفـس بـلي عنـق الحـظ ليـاً وترويـض الصدفـة التي تظـل خرقـاء لا عهـد لهـا ولا ميثـاق، لكنهـم يسـلكون في التحكـم



فيهـا طرقـاً فيهـا مـن الغـش والتدليـس مـا قـد يفجـر شـجارات داميـة، وخلافـات صاخبـة.

صـوت أشـج، ينتشـله مـن أجمـة التداعـي ومراقبـة المسـاطب والعيـون المتحرشـة بالسـكينة.

- مساء الخير.. هل أنت سي سالم؟

فكر ملياً، تفحص الرجل وقال رابط الجأش:

- نعم ...! وهل أنت سيدي القائد العبري!...؟

- لا يـا بنـي...! لسـت القائـد... أنـا الشـيخ «الزَطَّـاط»... لا تعجـب مـن الاسـم، فأنـا مـن قبيلـة «الزَّطَّاطـة»، وظيفتهـا منـذ غابـر الأزمـان، مرافقـة وحمايـة القوافـل التجاريـة، وتأمينهـا مـن اللصـوص وقطـاع الطـرق، ومـازال أخـي الصغـير بوشـعيب «زَطَّاطَّـاً» يتكفـل بتأمـين القوافـل في أرض عبـدة، إلى أن يسـلمها آمنـة لزطـاط آخـر في أراضي الحـوز، أو الشـياظمة، أو الرحامنـة، أو السراغنـة، وهـو أشـهر «زطـاط» في البلـد، يحسـب لـه قطـاع الطـرق ولصـوص القوافـل ألـف حسـاب، مـا «كايـن» غـير «الكميـة» أي الخنجـر و«المكحلـة» «مـولات» الحبـة والبـارود... أي «البندقيـة».

لم يمهلـه الرجـل الوقـت ليفهمـه أنـه انتظـره طويـلاً، ولم يجـد معنـى لـكل هـذا التأخـر، يأمـر الشـيخ أحـد «اَلمزَالِيـط» مـن «ربـاط ٱلمزاوگيـن» بنـبرة قويـة:

- تعال...! إلى هنا....يا مربوح.... ! احمل حقيبة سي سالم...!

ينفض الضباع ويتفرقون في الساحة، يلتحق فريق بلعبة الحظ بالأوراق، وفريق بقدح الليل، وآخرون اختفوا كالأشباح يجرون ذيول الخيبة، لكنهم أيقنوا أنهم كانوا محظوظين وأنقذوا من ورطة في آخر لحظة، وتجنبوا غضب «القائد» العبري، والحبس في جب مركز القيادة البارد المظلم، والجلد على أخمص الأقدام، فالصيد الثمين كان من دار «المخزن»، وها هو مربوح يحمل حقائبه، ولحق مهرولاً بهم الشيخ سي عبد الباقي، ربت على كتف سالم الذي التفت إليه ثم شد على يده بحنو وقال بصوت خفيض:

- اكتب! لا تتوقف حتى لا تموت وأنت حي... الكتابة تؤجل الأقدار، بل قد تغيرها، غير قدر الله بقدر الله، فكلها أقدار الخالق المدبر للأكوان..

تنفرج أسارير الشيخ «الزطاط»، ويقول باشا وقد برقت عيناه:

- نعم...! سيدي ولد سيدي... كلامك حلو كالعسل دائما.

ثم يدنو من سالم، ملتفتا يمينا ويسارا، ويسر إليه هامسا:

- هذا يا سي «سالم» هو الفقيه سي عبد الباقي... حفيد العالم الشرقي الحجازي، هو عالم وشاعر، ولكنه ساح وخرج من داره الكبيرة، إيه.. سبحان مبدل الأحوال، كانت له مواش وحظائر وزارئب وضياع، منذ مات ولده المهدي في ظروف غامضة.. نعم.. وجد ميتاً، قرر سي عبد الباقي ترك الدنيا ومتاعها والعيش في «رباط المزاوگين»، فتركته زوجته وعادت إلى أهلها في دكالة،



وها هو هنا، لا نعرف أجن الرجل أم ازداد حكمة، لكن الكل يعتقدون أن له بركة وكرامة، ودعوة لا ترد.

يخطو وراءهم سي عبد الباقي، يمد سالماً من جديد بثلاث تمرات، ويقول:

**راهْ المعنى موجود والسباك مفقود**

**وحكمة المنطوق من اللفظ المنشود**

يمشي سالم متثاقلا، يخطو وراء الشيخ «الزطاط»، حتى لا يسبقه وقد كان بطيئا متعبا الجسد، في الطريق تحل عقدة لسان الشيخ الزطاط، فيثرثر كثيراً حد التضجر، يسهب دون ضرورة في التفاصيل ويطنب دون حاجة في التفصيل حتى يشعر بملل سالم فيقول في اعتداد زهو بارزين:

- أنا شيخ بلدة العقرب....أنا رأس السلطة هنا... من خدام سيدي القائد «العبري»، اسمع! جاء «المخزني» هذا الصباح من مقر القيادة بأرض عبدة ونقل أوامره المطاعة، واضحة وضوح الشمس، أن نوفر لك ظروف الإقامة لتؤدي مهمتك في أحسن الأحوال والظروف.

يتوقف عن الكلام يستخرج من جيب جلبابه الفضفاض الداخلي ورقة يرطب طرفاً منها بلعاب لسانه حتى يتمكن من ضبطها بين أصابعه ويقول وهو يسوي تلابيبه:

- اسمع يا بني...! أرسلك الرجال الكرام الذين تسير

بأخبار ملاحمهم الركبان، عند الرجل الذي له حظ من أمجادهم بخدمتهم، ولا يرسل الرجال إلا الرجال، حللت سهلاً وقصدت أهلاً، اسمع! يقول جناب «القايد» حفظه الله في «البرقية» المستعجلة التي حملها المخزني:

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على خاتم المرسلين المصطفى النبي الأمين.

سيحل ببلدتكم شاب من أخايرنا، ورجل من رجالنا، وعلم من أعلام الدولة، ونسبه متواتر إلى الدوحة الشريفة، المسمى مولاي سالم الزموري، وهو ابن حسب ونسب، وعلم وأدب، ومن أوفياء خدام دار المخزن، وخادم من خدام السلطان الأوفياء البلغاء، جاء لغاية سرية، ولمهمة كبيرة، بأمر من البلاط الملكي بالمشور السعيد بالرباط، فأحسنوا وفادته، وأكرموا رفادته، ونعموا مقامه، وسهلوا مهامه، ويسيروا أعماله، أن شق عليه شيء هونوه، ومن أغلق عليه باباً من الأبواب افتحوه، لا يرد له طلب، ولا يطول له مسعى، ولا يتأخر له مرمى، وتوقره الخاصة قبل العامة لنسبه ومهمته ومقامه عند مولانا السلطان أدام الله ملكه، وحفظه بما حفظ الذكر المبين.

قائد «**النواعرة**» والنواحي

**العبري سيدي أحمد**

وقع بقيادة «**النواعر**» أرض عبدة

يوم الاثنين العاشر من ربيع الثاني١٣٧١من الهجرة

الموافق السابع من يناير١٩٥٢من الميلاد



ينهي قراءة البرقية، ويقول وهو يلثمها: «حفظ الله مولانا السلطان المؤيد بالله دام عزه ونصره... وسيدي القايد أعزه الله...».

الشيخ «**الزطاط**» هو أحد أعوان القائد **العبري**، قصير القامة بكرش بارز لا يستره غير جلبابه وسرواله الفضفاضين، صغير الرأس أصلع، يستره بطربوش أحمر، من حين لآخر يسويه على رأسه دون حاجة تحت ضغط وسواس قهري، تمر امرأة تغمز بعينها وتتهالك بتهتك، لا يرى من وجهها غير عينين، ومن جسدها غير ساقين ممتلئتين، إحداهما مزينة بخلخال يصل صليلاً وهي تتمايل بمجون، يتعقبها بنظراته الشبقة، ثم يسعل سعالا مفتعلا منحنحا ، ويرفع صوته وكان ليناً رقيقاً غير منسجم مع فظاظة وثخونة جثته:

- تعالي...! تعالي...! يا خرقاء....! تعالي... ! فاطنة... «يا هجالة»...!

تدنو منه وهي تلوك العلك متثاقلة متهالكة الخطو، تتفرس فيهما معاً، بنظرات زائغة وتقول وهي تلوي خصرها وما انفك غنجها يغوي:

- «هجالة» و«امْحزمة براسي»، ومن لم يعجبه حالي «يعفني» من القفة، ويكون «زماني» ورجلي، وها «وجهي» إن حَزَّمني رجل وتجاوزت عتبة داري... «أش... حب لخاطر» سيدي الشيخ... !؟ أنا «طوع يديك»...

- سليطة اللسان كالعادة لحد الوجع يا «هجالة»...! لو

تصمتين مرة واحدة في حياتك وتلجمي لسانك، لكان لك شأن آخر، أوف...! منك...! ترفعين ضغط دمي بلسانك السام.

غمزت ومادت وهي ترد هازئة مقهقهة:

- أي ضغط التحتاني أم الفوقاني، يا شيخ الضغط...؟!

- إن لم تصمتي ضيقت عليك في رزقك الوسخ...

تلوي شفتيها، ترفع حاجباً وتخفض آخر، وقد كشفت عن وجهها وتقول ودأبها التهتك والتهالك، والقهقهة تخلطها خلطا وكل عبارة تخرج من شفتيها:

- «هجالة» لا زوج ولا سند لي، وهذا حال «الهجلات» في البلد، سي الشيخ، لولا لساني السليط، لأكلتني الذئاب على «الريق»... وأنت أعلم بذئاب البلدة وضباعها.

يغلبه الضجر والتبرم منها، يضرب الشيخ بقبضة يده على الطاولة، وقد انتفخت أوداجه، من أثر الاستفزاز حتى اعتصر الدم في وجهه، يرد عليها مضطربا غاضبا، وهو يلوح بيده معبرا عن سأمه ونفاد صبره:

- كفى...! شو...! شو! اصمتي..!. «تفو» منك يا «صعلوكة»...! «الله يعطيك شي مصيبة» وأرتاح من وجهك في البلدة، والله طال لسانك وأصبحت شدقاء علي وعلى أهل بلدة العقرب وأنا في «دار غفلون»... أنا لا أعلم.

- «برا ولا باس علي»... يا لطيف...! يا لطيف...! ربك





هو القدير... وما بيد العبد لا نفير ولا غفير، غير العيش وانتظار الموت المرير والحساب العسير.

ثم تَتُفُّ بين نهديها تطيراً وتردد: «تفو...! تفو...! دعاؤك يرده السماء، ولا تفتح له الأبواب، وما يصل لرب الأرباب.... يا شيخ ال...!».

- ماذا يا فاجرة؟!

- لا شيء.

- والله صرت كما قلت شدقاء، اصمتي يا حمقاء...!. وإلا أمرت بجلدك وسحلك ككلبة مسعورة...

- هيه...!صمتنا، وماذا بعد... ؟!

ترمق فاطنة الهجالة سالماً رمقة عابرة، ثم تمعن النظر متفرسة فيه مليا، فتدنو أكثر من الطاولة، وتمرر يدها تحت ذقنه، وتقول متهتكة والقهقهة استهلال وإسدال لكل عبارة:

- من الشاب المليح الذي معك...؟ مر زمن بعيد لم نر الملاح في بلدة الشيح والرياح.

- شو...! ستعرفين فيما بعد... اذهبي عند «ولد الغرار» صاحب الطاحونة وقولي له الشيخ ينتظرك في مقهى «رباط المزاوگين» يريدك حالاً... عاجلاً...

- - ولِمَ لا ترسل أحدا آخر؟

- أعرف أنك الوحيدة في البلدة القادرة على جرّه من فراش زوجته، ومن دفء سريره....

- آه...! سأذهب...

تغمز له و ما تحرر الجسد من عادته في التهتك والتهالك خطوا وانحناء بلا مناسبة، فترمق سالماً بزاوية نظرها، يكاد العلك يئن بين شدقيها وتقول وقد عجنت الكلام بما دأبت عليه من غواية واستفزاز للنزوات: «لا تترك القفص مفتوحاً، فيهرب البلبل الجميل...!».

- اذهبي يا خرقاء....! أسرعي....!

ترد عليه وعيناها على سالم، تغمز بعين، وتميد بخصر وإن لم يعد ليناً كل اللين، فقد سمن منها الجسد وارتخى البطن وتهدل وإن شدته بحزام، من كهولة تزحف بها نحو الخمسين، وأسقام خفية تعين الدهر على إنهاك العمر:

- حاضر...! يا سي الشيخ...! إن أكلت الطيب دعنا نذق منه... لا تنس «مول الكرش الكبيرة الله يعطيه التفرگيع».

تنعطف فاطنة «الهجالة» يساراً، وتختفي في زقاق ضيق، وعينا الشيخ مازالتا تتعقبان الجسد المتمايل، والعجيزة السمينة التي تهتز فتهتز لها شهوته، ثم عاد مما كان فيه من شرود وطفق يرحب بسالم، وهو يربت على كتفه مردداً كلمات مملة تصلح لكل مقام، ويهل في وجهه منفرج الأسارير باشا، محتفياً بشدة حتى بالغ وما





أفحم، وجاوز وما أمتع، وابتدع وما أبدع، وما كفت منه ابتسامة محنطة لتبديد ارتباك خفي في صدر سالم وإن لم يبديه، فقد كان يرد الشاب المبعثر الأحاسيس على ترحيب الشيخ بما يليق بالموقف من انفراج للأسارير وافتعال لتعابير الامتنان، وإن غلبه التوتر والاضطراب، تلهى الشيخ «الزطاط» عنه لحظة وهو ينقل نظراته بين وجوه الناس والعابرين ويرد التحايا الكثيرة، ويمنح هذا أذنه لحديث سري، وذاك سمعه ليسر له بخبر أو وشاية ، ثم يقول وهو يسوي الطربوش:

- انتظرناك منذ الصبح حتى أصابنا اليأس، وقلنا لن يأتي أبداً، فقدنا الأمل، حتى جاءت الأخبار، أن شاباً غريباً نزل في ساحة «رباط المزاوگين».

يردف الشيخ الزطاط، وهو يأمر النادل النحيف من علة بادية من شحوب ووهن، الطويل القامة، الضيق الجبهة، الغليظ الشفتين، الضيق المنكبين، الكثير السعال والنخامة، دأبه المقزز نش الذباب بمنشة من الدوم والبصق مرارا:

- بيض مقلي بلدي بزيت الزيتون، وكثير من الكمون... «حَيِّره» فقط لا أريده ناشفاً... اتركه «حياً»... رطباً... مائعاً...

يهز النادل رأسه في إشارة منه على الفهم، وهو يطرد الذباب عن وجهه، ويتفرس في سالم من زاوية في المقهى، متجسسا متحسسا يشبع فضوله القاهر، وقد علم أنه غريب في ضيافة الشيخ، وكان الزبائن ينادون النادل باسم غريب «النفحة» حتما

هي كنية، فالنفحة تبغ دقيق أو عطاس، يتم استنشاقه للإحساس بالنشوة، ربما استمد الكنية الساخرة من كثرة استعماله للنفحة، تبدد الشك، وجاءه اليقين حين ولج المقهى أحد المقامرين وخطا نحو النفحة ودون تحفظ، وصاح وهو ينظف منخاره بأصبعه:

- خمس «قرصات نفحة»... من النوع الجيد... لا باردة، ولا «غاملة» ولا مغشوشة بالرماد، وبأوراق التين اليابسة... إياك....! وإياك أن تغشني! سلعتك بالأمس كانت مخلوطة برماد أوراق «التين»، لا تحاول غشي... يا ابن الكلب...! لست مبتدئاً ولا جديداً على «العطاس»، أنفي يميز الجيد من المغشوش من الشمة الأولى...

يرتبك النادل، ويفلت كأس الشاي من يده المرتعشة، فيسقط أرضاً وتتطاير شظاياها، فيصرخ الشيخ في وجهه وقد تقلصت عضلات وجهه واحمر:

- يا وجه الويل...! قلت لك دائماً انتبه أين تضع قدمك... هيا...! اجمع هذا الزجاج، قد يتسبب في أذية الناس، أسرع يا مسخوط...!

تسمر النادل وهو يحملق في المقامر، صده بنظرات حادة قوية حتى شلّ حركته وصدمه حتى سقط في يده، وهو لا يدري ما يقع، تلاهى الشيخ وتغاضى عن المشهد، منشغلا بقرص قرصة بإبهامه وسبابته، من تبغ «العطاس» في صرة أخرجها من جيب





جلبابه الأيسر، واستنشقها ثم عطس بقوة حتى ضج المكان ودمعت عيناه، وقال هو يغالب الرغبة الملحة في العطس:

- والله... تحرجونا... أتشووووووووووم.

قبل أن ينهي جملته، تغلبه الرغبة تلو الرغبة الجامحة في العطس، فيعطس عطساً شديداً قوياً مضجاً، اهتزت له المقهى اهتزازاً، ضحكاً وقهقهة، وسمعه من كان في قلب الساحة، فتصايح أهلها: هذا عطس الشيخ، والله لا يأخذ من العطاس إلا الشهد، والجيد منه، ونحن نقنع بالمخلوطة «المغشوشة»، يمسح الشيخ مخاطه بكم جلبابه ويردف وهو يتحسس بأصابعه المخاط على نحره:

اسمع يا سالم....! ما يقول الأغبياء الحقراء، حتى تبغ «العطاس» نحن محسودون عليه، رغم أنه ضر وشر ومرض ووسخ، إنهم لا يحترمون أحداً... أسبق لك أن رأيت قوماً يتحاسدون على الشر والضر؟! هم هؤلاء في هذه البلدة ...

ثم يلتفت جهة النادل ويصرخ مزمجرا غاضبا :»أعط الكلب ابن الكلب ما يريد...! فليس بيننا أغراب، السيد سالم منا، لا علينا...»

ويربت على كتف سالم الذي اكتفى بابتسامة عابرة، ويقول ضاحكا: «يا جماعة...! هذا... «سي سالم»... ولد «دار المخزن»، وهو منا... ونحن منه، وليس غريباً... ما يضرنا يضره، وما يضره يضرنا... ولا «يدخل بين الظفر واللحم إلا الوسخ».

تعود فاطنة «الهجالة» المهووسة بالغمز والتهالك ولوك العلك، رفقة رجل خمسيني، أشعث الشعر، كث اللحية، رقيق الوجه والمنخر، قصير القامة، يرتدي بذلة عسكرية من سقط متاع الجنود الفرنسيين وتقول وهي على طبعها:

- ها هو «ولد الغرار» بلحمه وشحمه... جئت به من بين أحضان خدوج، حتى كادت أن ترميني بصحن من الشرفة... المسكينة لم تهنأ به الليلة...

- وهل بقي في ولد الغرار ما يفرح النساء؟

ينتفض ولد الغرار ويقول مغتاظاً:

- عيب... عيب...! يا سيدي الشيخ، لا تقل هذا...! وأنت أعلم بمن مازال يطلع العقبة جرياً وينزل منها دون أن تنقطع أنفاسه.

- تقصد إيه...؟

- أقصد ما تعلم وأعلم...

يشعر الشيخ بالحرج، تدور عيناه في رأسه، يحملق في «فاطنة» الهجالة، ويقول لها ناهرا زاجرا:

- أما أنت فاذهبي...! لا تكثري الكلام...! عندنا ضيوف....

- ضيوفكم ضيوفي، وبيتي مفتوح لهم لينسوا تعب الطريق.

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ....قلت اذهبي يا امرأة !





تتلوى الهجالة، وتميد بخصرها وهو تعض شفتها السفلى، وتغمز بنظراتها الزائغة وهي تردد صاخبة:

- بلا صراخ ولا صياح... آ...آ... أخفتني يا شيخ....! لست بعبعاً، ولا غولاً لأخاف، خدمتك خدمة أستحق عليها الشكر لا النهر، لكن هذا هو «المخزن» «السلطة» تأخذ ولا تعطي... وصدق من قال لا ثقة في البحر ولا «المخزن» ولا النار.

منتفضا وقد ركبه الغضب، وتلاشى حِلمه، يصرخ في وجهها:

- لسانك الوقح هذا يوماً ما سأقطعه، اذهبي قبل أن يجرك «المخازنية» جر الكلب الأجرب إلى حيث تمضين الليلة مع الجرذان أمثالك.

ينتفض واقفاً، محاولاً ركلها، يفقد توازنه من ثقل جثته، تنفلت فردة من نعليه، طارت بعيداً، تقهقه «فاطنة» الهجالة بتهتك متعمدة إغاظته، وهي تنفخ في العلك فيستحيل دوائر تفرقعها، فيضج المكان، يضجر الشيخ الزطاط من جديد وهو ينتظر النادل «النفحة» الذي خرج مهرولاً لإحضار الفردة ، بينما «ولد الغرار»، يشيع فاطنة الهجالة بنظرات عابثة وعيناه على ردفيها وهو مشدوه.

تتوقف عند الناصية، ترمق قبل أن تختفي سالماً رمقة زائغة مثيرة ماجنة، ثم تسحب إزارها على رأسها، وتنعطف شمال «رباط المزاوگين» وما فارقها تهتكها الفاضح.

يجلس «ولد الغرار» وقد بدا مضطربا وقلقا، ينهره الشيخ:

- يا ولـد الغـرار...! أمـا شـبعت مـن هـذا؟ متـى تتوقـف عـن التفـرس في عجيـزة كل عابـرة ؟

يلتفـت وراءه، يشـمر عـن سـاقيه، يفـرك ذقنـه ويقـول متلعثـما كمـن بـه عـي، تتنافـر وتهـرب مـن لسـانه الكلـمات، فيجمعهـا بمشـقة وجهـد لم يمنعـا قهقهتـه التـي دأب أن يـداري بهـا اضطرابـه وتوتـره:

- نعم...يوم... لا أستطيع... طلوع العقبة.. هههه..

- استحْيِ يا عجوز... !

ينتفـض ولـد الغـرار كالمصعـوق، وهـو يمسـح جبهتـه مـن عـرق طافـح بكمـه رغـم القـر، ويقـول:

- لسـت عجـوزاً...! وأنـت تعـرف... عـلى كل حـال طلبتنـي وجئـت مسرعـاً، هـل مـن «بـأس» سـتر الله الجميـع، أرسـلتم إليّ ففزعـت، والله فزعـت حتـى وجدتكـم جالسـين آمنـين مرتاحـين، أووو....! أمـن طعـام يـا شـيخ...! بطنـي «تصفـر فيهـا الفـراخ...»

- سـبحان الله، لا يهمـك سـوى بطنـك ومـا بـين فخذيـك، اسـمع...! هـذا السـيد سـالم الزمـوري.

- من أزمور..نعم الناس.. الخير والكرم... مرحبا؟

- اصمـت يـا حمـار...! ذاك اسـمه العائـلي... ولم نسـأل عـن أصلـه... ولا يهمنـي، ونعلـم أنـه كبـير ولـد كبـير...





ثم يلتفت جهة سالم:

- بالمناسبة يا بني أنت من أي بلد ...!؟

يرتبـك سـالم فيجـد لنفسـه مخرجاً سريعاً مـن ورطـة لم يفكـر فيهـا ولم يعـد لهـا العـدة:

- أنـا.. أنـا من...عذرا..عنـدي أوامـر صارمـة، لا أجيـب عـن أي سـؤال...

يفـرك الشـيخ الزطـاط ذقنـه، ينـزع طربوشـه، ثـم يحـك مؤخـرة رأسـه يتملكـه القلـق يـؤازره ارتبـاكاً توجـس طافـح، عكسـه ارتفـاع إيقـاع رمشـاته السريعـة والمتواتـرة

- نعم... عذراً... عذراً...

ثم يتوجه بالحديث نحو ولد الغرار هاربا من نظرات سالم:

- هذا سي سالم ولد «دار المخزن» جاء من العاصمة.

- تشرفنـا... ونعـم النـاس... ومرحبـاً بنـاس العاصمـة، نحـن في خدمـة العاصمـة ومـن فيهـا، نحـن خـدام دار المخـزن، بأولادنـا وأسرنـا، طلباتـك سي الشيخ، لا تتحـرج ...! قـل....! قل .... !هـات مـا عنـدك....! لا والله....! لا تتحـرج...! أنـت تعـرف قيمـة نـاس العاصمـة عندنـا....

- لا تكثـر مـن الـكلام، تعرفنـي أحـب المختـصر المفيـد، فـلا تكـن ثرثـاراً ثقيـلا، ومعنـا الضيـوف مـن العاصمـة يـا أحمـق..!

- حاضر سيدي الشيخ، فقط أردت....

- اصمت... ألا تستطيع أن تضع لفمك لجاماً...؟!

- أستطيع سيدي ولكن من لا تجعله العاصمة ورجالها يثرثر....!؟

- اسمع...! جاء سي سالم إلى البلدة في مهمة هامة وخاصة... تذكر...! قلت خاصة جدا... وعليك أن تجهز له دارك الموجودة في زقاق «المهابيل»، منذ هذه الليلة... سيقيم فيها ضيفنا الكبير، مقابل خمسة فرنكات في الشهر.

ينظر «ولد الغرار» يميناً وشمالاً، يسعل ثم ينحنح ويقول بصوت خافت مبدياً حرجه وارتباكه:

- أوه... للأسف...!

- ماذا...!؟

- مرحبا به، على «راسي وعيني»، لكني التزمت مع أحدهم مقابل أجرة شهرية مقدارها عشرة فرنكات، وأخذت العربون، وها هو مازال دافئاً في جيبي، والكلمة كلمة، والعهد عهد، ولا يرجع في كلمته إلا «الكلب» ابن الكلب.

- اسمع يا ولد الجرار...! كم تريد ثمنا كي تصير كلباً...؟

- ماذا تقول سي الشيخ .. كفى إحراجا؟

- سنرى غيرك إذن .





- لا.. أنا في الخدمة.. خمسة عشر فرنكا.

- سنعطيك عشرين فرنكاً ...ارتحت الآن... !؟

- نعم أنا كلب و«نص»، هذا هو كلام المخزن وإلا فلا، في الحقيقة، «سي سالم» أولى، والعربون سنرده لصاحبه، ماذا يريد مني...؟ أن أرد كلمة الشيخ، أن أتخاصم مع المخزن... مع السلطة... مع ناس «ديال العاصمة» !؟ لا... لا... أنا في خدمة المخزن وضيوف المخزن.

- اتفقنا...!

يطمع ولد الغرار أكثر ويقول وهو يدنو برأسه من أذن الشيخ الزطاط:

- من سيغسل ملابسه؟ وينظف بيته؟ «خدوج» ممكن أن تؤدي هذا العمل بمقابل هزيل.

- سنرى الأمر فيها بعد...

يسوي الشيخ الزطاط طربوشه، ثم ينتصب واقفاً وهو يقول وعيناه على النساء العابرات:

- أراك في الغد «سي سالم»... ارتح الليلة...!

يضع النادل صحن البيض، يمد سالم يده للأكل، وبدون استئذان يمد ولد الغرار ذاته يده أيضاً، مبسملاً وهو يردد «نتشارك الطعام، فهو من أشد العهود...»، تصل يده بسرعة

إلى الرغيف، ويقرص قرصة كبيرة، يحولها إلى لقمة وقد خلطها بالبيض، حتى امتلأ فمه، يردف وقد تقطع نفسه:

- الطعام والملح كعهد بالدم...

أكل «صاحب الطاحونة» ولد الغرار، أكثر ما أكل سالم، ومص أصابعه ولعقها وهو يحمد الله، فمسح يده بثيابه، ثم استقام واقفاً وهو يتجشأ بقوة تباعاً:

- انتظرني هنا! سأعود بعد ترتيب وكنس الدار... سأعود بعد قليل... انتظرني هنا... لا تغادر...!





## ١٣

لم يسبق لبلدة «العقرب» أن استقبلت غريباً أو عابر سبيل أو حتى مجنوناً، تم التخلص منه برميه بها، وقد كانت مرتعاً لهم، دون أن يكون الأمر بحذافيره وتفاصيله المملة في علم «سي الغالي».. خبره وأصله وفصله ومراده، إلى أن حل سالم هذا الشاب الوسيم المليح الطويل القامة، كان على «فاطنة» «الهجالة» أن تنقل الخبر إلى «سي الغالي»، قبل غيرها وإلا طالها العقاب والحرمان والمنع من عملها كأقدم مومس في البلدة.

- سي الغالي.... في البلدة غريب....والشيخ أمر صاحب الطاحونة ولد الغرار بأن يكتري له داره في زقاق «المهابيل».

تقرفص عند قدميه وهي مطرقة الجبين، تنتابها رعشة تهز جسدها هزاً، ثم تحكم عقالها فتهدأ، يتأملها لحظة، يبرم شاربيه، يسوي برنسه الأسود وقد كان حليق الذقن، ممتلئ الحنكين، يعيد لف عمامته الصفراء، يساعده في ذلك خادمه الزنجي سليمان، وهو مستو على الكرسي العالي، كعرش قديم، ويسمونه في السر «بالنفناف» بسبب صوته الذي يعاني من إخناف، فتخرج الكلمات من أنفه خنيناً متعبة، يقول وهو يتأمل في وجهها:

- أحسـنت.... والله يـا فاطنـة الهجالـة!... تسـتحقين وزنـك ذهبـاً... هكـذا أريدكـم أن تكونـوا... عيـوني وآذاني عـلى البلـدة...

تلوي شفتيها، وتقول مغمغمة دون أن تبين:

- لا أريد غير الأمان والستر.

- ماذا تقولين يا خرقاء؟

لاحـت بـوادر غضـب عاصـف عـلى وجـه الرجـل، ولم تمنعـه نفنفتـه مـن إظهـار شـدته وبأسـه تعابـير صارمـة عـلى جبهتـه التـي تجعـدت، اضطربـت فاطنـة، وكادت أن تتبـول في ملابسـها، فارتجـف جسـدها، وزحفـت رعشـة إلى شـفتيها وهـي تنتظـر مـا لا تعلـم، لكنهـا أدرى بغضبـات هـذا الكائـن الـذي قـد يحـرق الأخضـر واليابـس، قـد يجلدهـا بـلا رحمـة، قـد يكتفـي بركلهـا أو صفعهـا، وهـذا أخـف الـضرر الـذي تطيقـه وألفتـه، صمتـه لحظـة وبرمـه لشـاربه، ونظراتـه القاسـية زاداهـا رعبـا وفرقـا، تخلصـت مـن ترددهـا وقالـت وهـي لا تـدري أتقـف أو تظـل جالسـة:

- أقول يا سيدي....

- تكلمي يا عاهرة...!

- أنـا في الخدمـة سي الغـالي... أنـا عينـاك اللتـان لا تنامـان... وأذنانـك اللتـان تلتقطـان كل صغـيرة وكبـيرة...

- تكلمي.. أتردين أن تري وجه سليمان وسوطه





- لا سـيدي.. فقـط.. ذاك الغريـب مـن دار المخـزن.. ويظهـر أنـه مـن أهـل الجـاه والمـال، وإلا مـا اهتـم بـه الشـيخ الزطـاط وتكفـل بـكل شيء..

- سأعرف التفاصيل فيما بعد.. انصرفي الآن..

وهي تهم الانصراف، تعود وتسر إليه في أذنه:

- عندي فتاة جديدة... صغيرة السن... و...

- وهل هذا وقته يا فاحشة...! اغربي عن وجهي....!

تربكهـا ردة فعلـه الطائشـة، وهـو يركلهـا بعيـدا، تهـرول جريـاً إلى الخـارج، ثـم يشـل حركتهـا صياحـه الـذي يخذلـه إخنافـه الشـديد، فتتسـمر في مكانهـا.

- انتظري يا حمقاء....!

تتراجـع القهقـرى وهـي منحنيـة وقـد انتابتهـا مشـاعر الهلـع والتوجـس مـن جديـد حتـى خشـيت أن ينـادي عـلى سـليمان لجلدهـا، فيصيـح في وجههـا ومـا انفـك يـبرم شـاربيه، ويرمقهـا بنظـرات قاسـية:

- من أين هذه الفتاة الجديدة....؟

- من مكان في السهل الأخضر.

ينهـض بغطرسـة، يشـيح بصـره عنهـا بـازدراء واسـتصغار، وينظـر بعيـداً في المـدى، ثـم يقـترب منهـا يشـدها بقـوة وعنـف مـن شـعرها

ويضع قدمه على رقبتها، وهي تئن وتتألم فتتوسل رحمته وشفقته، فيقول وقد زاد من ضغط قدمه على القفا:

- نعم ....تكلمي...! هل هي نقية...؟ اسمعي يا عاهرة...! لو كذبت قطعت لسانك وذبحتك ورميت بلحمك العفن للكلاب...

بتلعثم جارف وخوف شديد، وتقطع أنفاس، تنطق بصعوبة بهسيس وجلجة:

- والله سيدي...! مازالت عذراء... وقد كشفت عنها.

يركلها مزمجرا حتى تتدحرج وتتلوى ألما وهو يصرخ:

- لم أفهم من لجلجتك شيئاً، وضحي قولك يا عاهرة...!

فترد عليه بعدما رفع قدمه عن رقبتها، مسترجعة أنفاسها، مجاهدة أن تستبين قولها حتى شرقت من لعابها، وقلة الهواء في صدرها واضطرابها من الهلع:

- مازالت عذراء ...والله...

- وجميلة...!

- نعم جداً... جداً....

- وكيف حصلت عليها...؟

- جاءت عندي... تريد تعلم الحرفة... فقلت «سي الغالي» من سيعلمها قبلي...





- أحسنت... لا تدعيها تذهب حتى أرسل في طلبك... عيناك عليها دائماً...فهمت أم أعيد العبارة يا عاهرة!؟ اذهبي الآن... اغربي عن وجهي...!

تعدو خارجة فتتعثر بتلابيب إزارها من شدة الخوف والارتباك والإجهاد النفسي والجسدي، فقد يغضب سي الغالي ويأمر سليمان بجلدها أو حبسها، تنهض بتثاقل واضطراب، يشيعها بقهقهة عالية وهو يقول بسخرية واستهزاء:

- يا كلبة...!

تصادف عند الباب وهي مرتبكة «ولد الغرار»، تصطدم به فيسقط ثم ينهض فزعاً من رؤيتها، يلعنها ويقول بحنق وغيظ:

- جئت بالخبر قبلي يا هجالة...! يا ملعونة...!

- جاءت به النساء... في غياب الرجال الحقيقيين... يا وجه الشؤم...!

- اصمتي... وإلا ...!

- وإلا ماذا... ؟ أجب يا كلب الأسياد..! يا عرة الرجال.. أجب...!

- يا ماكرة...! لو أجلت الخبر ليلة، لغدوت ضيفاً على «رباط المزاوگين» أو حبيساً في بئر لا تطلع عليها الشمس.

يقف «ولد الغرار»، على باب «سي الغالي» بخشوع ورهبة،

مستأذناً الدخول عليه، منتظراً سليمان ليأذن له، يُؤْذن له، فيدخل منحنياً يكاد يزحف وهو يردد مرتبكا بكلتا يديه:

- السلام على سيد الأسياد والرجال...

- ما الذي أتى بك، ودفعك أن تؤخر صلاتي ؟

- أمر جلل سيدي... لا يحتمل التأجيل، ولا التأخير.

- هل الأمر يتعلق بالغريب؟

- نعم... سيدي... يريدون إسكانه في دار زقاق «المهابيل».

- و ما الشكل...! ؟

- أواه.... !هي دار أنسك ولياليك يا سيدي.

- سنجد غيرها.

- أمرك مطاع سيدي لكن...

- لكن ماذا يا طماع !؟

- ما طمعنا إلا في جود البيوت الكبيرة، فإن طمعنا فيك ما عيرنا بالطمع ولو على شبع.

يشعر «سي الغالي» بنشوة الإطراء، وكان يحب المديح وإن جاء مخالفاً للواقع والطباع والأخبار، فيقول وهو منشرح الأسارير، وما انفك يعذب شاربيه:

- ماذا تريد الآن؟





- امنحني البركة والإذن إذن...

يشمر سي الغالي كمي قفطانه، تتطلع كرشه من فوق الحزام فتتدلى لضخامة جثه، ثم يقول:

- من الساكن الجديد؟ هل نعرفه؟ أصله...!؟ فصله...!؟ بلده...!؟ حرفته...!؟

- أعرف فقط أن اسمه هو «سالم الزموري»، جاء بتوصية من جهات عليا.

يلطمه على قفاه ويقول هازئاً:

- أريد اسمه الكامل لا اسم بلدته...

- الزموري هذه كنيته...

- كنيته...!؟

- نعم ...!كنيته... والله...

يضع الزنجي سليمان صينية نحاسية أمامه، فيها «ثريد» و«رفيسة» من رغيف «المسمن اللين» وثلاث دجاجات، فينزل بمشقة سي الغالي عن الكرسي العالي، ويجلس أرضاً وقد عذبه كرشه، ثم يمد رجليه بألم وهو يتأوه بمشقة، يطفق يأكل بشراهة ونهم بافتراس غريب، أمام عيني «ولد الغرار» الذي اشتهى اللحم والمرق حتى سال لعابه، دون أن يدعوه للطعام، ثم يردف:

- مممممم.... أكمل....! ثم... ماذا....؟ لا تنظر إلي هكذا

كالأحمق...! وددت لو شاركتني الطعام، لكنني أعرف يقيناً وبلا شك أنك قبل أن تأتي أكلت حتى أصابتك التخمة، فخدوج طباخة ماهرة، ولا «نفس» لك في الطعام، ولا أريدك أن تأكل على شبع فتتخم وتمرض، ويقال أمرضه طعام «سي الغالي» وما علتك غير التخمة والبطنة...

متطلعاً إلى اللقمات تتدحرج بين شدقي فم «سي الغالي» واحدة تلو الأخرى، وهو ينهش لحم الدجاج نهشاً يردد مشتهياً وهو يمص شفتيه من شهوة الطعام اللذيذ:

- صدقت ... !نعم...! سيدي....يا ولد الدار الكبيرة....! تخاف عليّ من التخمة...

ثم يغمغم: «والله هذا الطعام لا تمنعه تخمة ولا حمية».

- ماذا تقول...!؟

- لا شيء سيدي...

- قل لي ما عمل سالم الزموري هذا؟

- لم يقل الشيخ الزطاط شيئاً...

- قطعت شهيتي يا ولد «الخراء»...! لا تعرفون أصله ولا سبب مجيئه، إذن هو سقط من السماء وسنتلقفه نحن الأغبياء...

- وما العمل والأمر والحسم بيد المخزن والسلطان، والعقد والحل بيد القائد العبري؟





ينتفض غاضباً، يبعد الصينية بقدمه، ويصرخ بحنق:

- سليمان....! تعال....! احمل هذا الطعام بعيداً عني....!

يهرول نحوه سليمان بخفة ورشاقة، وقد كان بشوشاً، جميل الوجه، كبير الشفتين، رقيق الأنف، وقيل إن أمه كانت أمة حبشية اسمها «رقية» في دار الحاج الكبير والد سي الغالي، وأنه «تسرى» بها فحبلت بسليمان، ولم يعترف الحاج به إلا وهو على فراش الموت، لكن «سي الغالي» أنكر الوصية والاعتراف، وجعل من أخيه خادماً عنده، رغم أن شهوداً من البلدة يعلمون ويؤكدون ذلك في مجالسهم الخاصة بعيداً عن عيون وجواسيس سي الغالي.

يتابع ولد الغرار بعينيه «الصينية» وهي تتأرجح بين يدي سليمان محملقاً باشتهاء جارف حتى سال لعابه ويقول:

- «بالصحة» سيدي....

- أي صحة هذه تتمنى لي وأنت تقول إن سالماً هذا لا تعرف السبب الذي من أجله هو هنا...

يذرع المكان جيئة وذهاب، وهو يفرك حلمة أذنه، ثم يشبك أصابع يديه وراء ظهره، يتوقف لحظة، يرفع السبابة في وجه «ولد الغرار» آمراً بحنق وغضب:

- أسرع ولا تعد إلا ومعك الشيخ الزطاط، لنعطيك الإذن والبركة وحتى أعرف سره... لن يعرف النوم طريقه إلى جفني وأنا لا أعرف شيئاً عن هذا الغريب.

في الظلام الدامس، يتلمس «ولد الغرار» طريقه حذرا

إلى دار الشيخ الزطاط وقد كانت في سهب تكثر فيه الحشائش والحلفاء على المنحدر، تطل عليها دار الجيلالي المكنى بالشيطان، يتسلق المنحدر منهكاً وهو يلهث ويشتم في سره «سي الغالي» ويصفه سراً بـ«النفناف»، ملتفتا وراءه من شدة الجبن حذر أن تصل نجواه إلى سمع أحدهم، يسرح بعينيه نحو قمة التل، يسمع صراخاً وعويلاً، يتوقف، من بعيد يظهر له الجيلالي يرفس زوجته، يحس بالخوف من هذا المحيط الموحش، يلعن حتى الشيخ الزطاط وسالماً، ويهفو إلى فراش خدوج، يدق الباب، يخرج الشيخ:

- واو...! أوف...! تعبت... يا رب...!

ينظر في وجهه الشيخ الزطاط، ويقول ساخراً هامزاً:

- ألم تقل إنك مازلت قادراً على طلوع ونزول العقبة ؟

يرد عليه «ولد الغرار» وهو يلهث بزحير شديد:

- هذه ليست عقبة... هذا جبل....

- جبل أو عقبة... ماذا تريد؟

- سي الغالي يطلبك...

- قل له، سأراه غداً صباحاً...

- لا...! لا...! أقسم بالله «سي الغالي» ألا أعود إلا وأنت



معي... وهو في قمة الغضب، تركته يرغي ويزبد، يكاد الدم ينفجر من عينيه.

- يا لطيف... ! ما الأمر ؟ لن تقوم القيامة الليلة...

- «عافاك» لا تحرجني معه... فهو غاضب جداً.

- أوف...! انتظر أنا آت معك...

لم يشف الشيخ الزطاط نفسه، غليل «سي الغالي» المتعطش إلى المعلومة لحد الهوس، ولم يقدم له الأجوبة الكافية، وإن قرأ له برقية القائد العبري، فانشغل واهتم بهذا الغريب الغامض، حتى كاد يجن، فأصابه الصداع وهو يذرع قاعة الضيوف، يردد «من يكون هذا الغريب...؟سأجن... والله سأجن...! لا استطيع أن أتنفس بدون معلومات عنه، إني أختنق...».

ولم يستطع سي الغالي منع ولد الغرار من إكراء داره للغريب ولد دار المخزن الذي أوصى به القائد، وقال فيه كلاماً لا يقال إلا عن ذوي الجاه والنفوذ، فعاد كل إلى داره على أمل أن يجد الشيخ في الزمن القريب ما يبدد به من أخبار قلق «سي الغالي».

والحقيقة أن قلة المعلومات أو انعدامها هي المرض الذي يهد ويكاد يقتل كمداً سي الغالي، فهو يتنفس خبراً، ويأكل خبراً، وحين تنعدم الأخبار، يغلق عليه باب داره خوفاً وتوجساً، ولا يخرج إلا في حراسة مشددة، ولا يدخل عليه أحد إلا بعد تفتيش دقيق، فيشك في أولاده وزوجته، ويعيش أزمة نفسية حادة، يرى

فيها الآخرين كيفما كانوا، يتهامسون وراء ظهره، ويدبرون مكيدة لقتله، يتآمرون عليه، لذا كان يجعل العيون على العيون، وفوقهم عين سليمان تتجسس وتتحسس، وفوق سليمان وضع راعي أغنامه جاسوساً يأتيه بخبره، وجعل لراعي الأغنام عيناً من بيته، وهي زوجته التي كان تقنع بالقليل من السمن والحليب مقابل الوشاية بزوجها، كما جعل عيوناً من الخادمات على زوجتيه، وكاد يجعل عيناً على نفسه.

سكن سالم الدار في زنقة «البهاليل»، ولم يخرج منها مدة من الزمن، والعيون مشتاقة إلى خبر تثلج به صدر السيد، وينعم به على صاحبه بالنعم والرضا والآذان في أمس الحاجة إلى أدنى همسة، تبدد بها هوس سي الغالي بهذا الغريب، الذي ولج دوامة الشك، وغدا يرى في كل حركة أو نظرة مؤامرة خفية لقتله غيلة، فغَلَّق أبواب ونوافذ داره، ووزع العيون والعسس على البوابات، وغيّر عادته في الطعام، فصار لا يأكل مما يطبخ حتى يأكل منه الطباخ أو مساعدوه، وينتظر ساعة كاملة، ليضع يده في الطعام، وقل نومه، وحبس نفسه عن شهوة النساء، خوفاً وفتوراً للرغبة بتأثير الرهبة، حتى شك في سليمان نفسه، فجعل عليه عيناً من العسس، وجعل على العسس عيناً منهم، بينما انهمك سالم وغاص في بحر التدوين، وكان الشيخ الزطاط يبعث إليه بالطعام والشراب، ويسأل عن كل صغيرة وكبيرة، وتكفلت فاطنة «الهجالة»، التي أرْسِلت له وعليه، بتنظيف الدار وغسل ماعونه وملابسه وجمع الأخبار.

استعانة سي الغالي «بفاطنة الهجالة» ليست من باب العبث،



فهي مومس ووسيطة جنس، قد تعلم فيجسدها أكثر شباب ويافعو البلدة أبجديات الجنس، وكانت هي طريقهم الأول في دنيا المتعة، أول ما تنتفخ حلماتهم وتؤلمهم، ويؤرقهم الشبق، وتبدأ استهاماتهم في تعذيبهم وقض مضاجعهم، يقصدون دارها، كانت تقبل منهم القليل ولا ترد من طرق بابها، فهي امرأة «هجالة» كما تقول، وليس لها من دخل ولا عمل، طلقها زوجها منذ سنوات عدة، لأنها عاقر، ولم ينفع مع عقمها لا طبيب ولا خلطات ولا أعشاب ولا وصفات، وتزوج «العرقوس» زوجها السابق امرأة من عبدة، لكنه ظل يردد حينما يسكر «و لله ما وجدت فراشاً أمتع من فراش «فاطنة» ولا جسداً ألهب من جسدها، الشيطانة تشعلني بحركات لا أعرف أين تعلمتها» العرقوس هو «طراح» البلدة، يدير فرناً شعبياً، وينضج خبز الناس الذي يحمله الصغار على «وصلات» فوق رؤوسهم.

أرسل سي الغالي، «طامو» العمشاء إلى فاطنة «الهجالة»، وقد طال غيابها وتأخرت عنه الأخبار، دقت العمشاء باب الدار المعزولة، في زقاق «الجلود» في شبه ضاحية البلدة، عند مدخلها من طريق مراكش، لم تفتح فاطنة الباب إلا بعد لحظات، ثم سمع أطيط الباب الثقيل المتهالك من الخشب القديم، يفتح على فرجة ضيقة، طلت منها فاطنة:

- من؟ شكون؟

- أنا... يا فاطنة...!

- شكون ...؟

- «طامو العمشاء»... يا حمقاء...!

بتهتك وفُحْش ترد عليها ساخرة تضحك بتثاقل وهي تلوك العلك:

- سامحيني حبيبتي...! لا يوجد في بيتنا رجال لك، من يريد عمشاء في سريره إلا إذا كان أعمى، حتى لو كان أعمى رائحتك تدل عليك يا «معفونة» .

تتلوى طامو العمشاء وهي تشد خصرها، فيسقط الإزار الذي شدته من وسطها، وتقهقه وهي ترد:

- ودعنا عشق الرجال، والقلب يهوى البنات...

- يا لئيمة...! ما فينا هذا ولا يليق بنا، نحن على ما فيه من فاحشة والله لو ضمنا الخبز ولقمة العيش ما سرنا في هذا المسلك، نتوب كل ليلة ونصلي وأحياناً نتكاسل، ونصوم مع الناس، وظننا في الله حسن أن يغفر لنا، طريقتنا في الحصول على الخبز المر....

تشرع فاطنة «الهجالة» الباب، تنتشر رائحة عفونة وغمولة مع مرور تيار الهواء، فالدار خربة، قليلة النوافذ، ونوافذها تفتح على زقاق غير مشمس، تلج العمشاء وهي تتهالك مرددة:

- وحدك....؟

- وحدي....؟ هل أنا حمقاء مثلك.





يجلسان على فراش من أغطية متسخة على حصيرة من الدوم، أمام مائدة طعام قصيرة، تبادرها العمشاء بالحديث:

- لا طعام عندك يا لئيمة...!

- كل شيء موجود إلا الرجل الذي يقبل بك...

تضحكان بفجور، تبدو اثنتان من ثنايا الفك العلوي للهجالة تلمعان من فضة، تشعل سيجارة... تلطم صدر العمشاء وتقول بتهتك:

- قولي...! طلباتك يا عمشاء!؟

- لست صاحبة الطلب.

- من؟ هل أصبحت قوادة؟

- لا... لست متمرسة مثلك... «خلينا لك الجمل وما حمل».

تبصق تطيراً بين نهديها وتقول:

- سي الغالي يريدك حالاً.

يتملك المرأة الذعر والارتباك تستقيم واقفة:

- أنا....؟ في هذا الوقت... هل من بأس... ؟

- لم أسأل... أنفذ فقط.

تلتحف بلحاف أسود، وتضرب الخمار المخملي على وجهها، وتغطي شعرها بمشد أخضر مزركش بهدب، وتصيح:

- العرقوس... سأخرج وأعود....

يخرج من الغرفة، كهل قد تغطى بملاءة على عري، وهو ثمل وفي يده قدح نبيذ يتأرجح، زائغ البصر، مترنحاً يكاد يسقط من تثاقل:

- نعم... نعم... تخرجين وتعودين!؟ هل أنا مجنون حتى أتركك تخرجين في هذا الليل؟

يفطن إلى وجود العمشاء، لا يضطرب، يصافحها، منحنياً يكاد يسقط:

- العمشاء....!

تنظر إليه وتلوي شفتيها وتقول متهكمة ساخرة:

- أنت هنا يا منحوس...!.

- منحوس!؟ بل أنا السعد والخير.....

- يا العرقوس...! ألم تطلقها...؟ ماذا تفعل في حضنها...؟ كبر أبناؤك... وزهور بنتك عروسة على عتبة الزواج، وعائشة زوجتك المسكينة... قهرتها يا «طراح» الشؤم...!

- عائشة صارت جسدا بلا روح، تستلقي كالخشبة، وتشكو من كل عظم وعضلة، أما فراش فاطنة فلا مثيل له... دافئ، حي وممتع...



- أخذت حقك وكفاية.... أكلتها لحماً ورميتها عظماً، وأنت هل مازال فيك ناب ينهش يا وجه القرد...؟

- طبعاً...

يضرب بطنه بقبضة يده، ويضرب صدره، فيكح ويسعل سعالاً حاداً ويستطرد:

انظري ...!مازلت قوياً كالثور ....سلي فاطنة...

تحدجه فاطنة الهجالة بنظرة ساخرة، وتقول:

- كح ...! كح.... !المسكين... لا نفس في صدره.

ترد عليها العمشاء:

- لقد طلقك الكلب... وهو سبب ما أنت فيه...

ترد عليها فاطنة الهجالة وهي تغمز بعينها وتهز رأسها:

- أنقذني الله من وسخه...

ينتفض العرقوس حانقا، يرمي بالكأس في جوفه، يتهالك على الحصير وهو يردد:

- كنت أريد الذرية... هل هذا حرام... ما طلقتك إلا لأنك رفضت الضرة، وفراش زوجتي الآن بارد... والله بارد... ما وضعت يدي في قطعة من جسدها إلا واشتكت ألماً... ما ذنبي أنا ؟

تضربـه «فاطنـة الهجالـة» بقبضـة يدهـا بقـوة عـلى ظهـره، حتـى يئـن، وتقـول لـه سـاخرة متهتكـة:

- وفراشي دافئ يا وجه الكلب، رغم أن رحمي عاقر...

- ليس هناك أدفأ من سريرك يا جميل...!

- يا لئيم...! سأخرج الآن يا وجه الويل...!

- أيـن!؟ أيـن يـا مـولاتي...!؟ الليلـة لم تنتـه، وأعطيتـك مقابـل الليلـة بكاملهـا، وأحضرت اللحـم والخضر والخبز للعشـاء، والنبيـذ والكيـف للسـهر وتذويـب الجفـاء...

يعـترض طريقهـا، ويسـده بجسـمه الضئيـل، تدفعـه بقوة، فيسـقط و هـو يغمغـم:

- لسـت سـهلاً كـما تظنـين، إن لم تعـودي أو غـيرت «الطـراح» بغـيره مـن أجـل المـال...

تقاطعه مزمجرة غاضبة باستياء:

- مـاذا يـا وجـه الشـؤم....؟ مـاذا سـتفعل...؟ اصمـت يـا ابـن الكلـب....! قلـت سـأعود...

ترفع يدها للسماء وتردد متبرمة :

يـا ربي...! أعطـه حظـي ممـا أنـا فيـه، ونصيبـي ممـا سـأصير عليـه.... يا رب...!





متلعثـماً يقـول مهمهـما، تـكاد الكلـمات تزيـغ لزوغـان العقـل، الـذي أرخـت لـه الأقـداح الزمـام، فتثاقـل التفكـير وتشـتت الكلـم:

- لا تتأخري إذن...! فأنا لهب... مشتعل... بركان سينفجر...

تلـوي فاطنـة الهجالـة شـفتها السـفلى، وتلـوح بسـبابتها وتقـول بخلاعـة سـاخرة ضاحكـة:

- أنـت ....؟ أنـت ...؟ لهـب.! جمـر...! بـركان...! مـن يسـمعك يظنـك فحـلاً، شـووو... اصمـت وإلا فضحتـك يـا جـرو الـكلاب...! مـا تَرَكَـتْ فيـك نـار الفـرن، غـير عظمـة لا تصلـح لا للمـص ولا للمضـغ ولا للـدق... شـووو.... اصمـت ...!خـير لـك يـا زبالـة الرجـال...! اسـتر نفسـك يـا طـراح الريـح والشـيح...!

يغضب، يرمقها بنظرة زائغة، يتأمل في القنينة يجدها فارغة:

- فرغـت... سـأدخل... نعـم سـأدخل. أنـا لهـب... نـار... بـركان...

- قلـت اسـكت حتـى لا أفضحـك يـا قـرد...! سـأعود وأجـدك تغـط في النـوم كالعـادة... يـا وجـه الويـل...!

سـتر المرأتـين الظـلام الدامـس الداجـي، وهمـا ينسـابان كشـبحين ملتحفتـين مُلاءتيهـا، وقـد غطتـا رأسـيهما بطرفيهـما، مـن كـوة في بيـت الشرقـي بائـع الخمـور سرا، يظهـر ضـوء يتراقـص لقنديـل ملتهـب سـاهر لسـهر صاحبـه، وعيـون تكنـس زقـاق «الجلـود» بترصـد غريـب وفضـول مريـب.

تدخلهـا خادمـة «سي الغـالي»، إلى غرفـة عـلى البـاب، يفتشـهما سـليمان حتـى دغدغهـما، فقالـت الهجالـة:

- عيـب يـا سـليمان.... لمَ تفتشـنا؟ هـذا أمـر جديـد.. يتنظـران لحظـة، يعلـن سي الغـالي عـن حضـوره وهـو ينهـر بـلا سـبب خدمـه، يسرعـان الخطـو نحـوه بمسـكنة ومذلـة، «طامـو» العمشـاء تقبـل كتفـه، و«فاطنـة الهجالـة»، تلثـم يـده لثـماً وهـي تقـول بخنـوع مقطبـة الجبـين:

- سي الغالي....جئـت تـواً بـلا تأخـر وضعـت كل مـا في يـدي وجئتـك... تـكاد خطـواتي تطـير بي.... أمـرك... يـا سـيد الرجـال، وحامـي البلـدة والعيـال، والنسـاء والعجـزة، نعـم... والله مـا تأخـرت... جئـت فـوراً...

يشـير لهـا بعصـاه أن تصمـت، ثـم يلطمهـا عـلى فمهـا بأصابـع يـده اليـسرى، حتـى نزفـت لثتهـا، تضـع كفهـا عـلى شـفتيها، وتركـن للصمـت مصدومـة بذهـول، جحظتـا لهـما عيناهـا، وأشـار إلى سـليمان أن يعنفهـما، فـتردد لحظـة، وكان يكـره مثـل هـذه الأوامـر، وتنفـر نفسـه مـن ضرب النسـاء بـلا سـبب، فوقـف وقـد شـل حركتـه امتعاضـه مـن فعـل سـيده، فـصرخ سي الغـالي في وجهـه وهـو يزحـر مـن الغضـب ومـن عصيـان سـليمان الـذي لم يكـن أبـداً مـتردداً:

- مـاذا تنتظـر...؟! يـا سـليمان...! هـل جننـت؟!هـل لان قلبـك حتـى صرت بـلا رباطـة جـأش الرجـال؟!





لم يجـد سـليمان مـن مفـر لورطتـه، سـوى الاسـتجابة للأمـر، فطفق ينهرهمـا ويضربهـما بيـده، فاغتـاظ منه سي الغـالي وصرخ:

- يا سليمان هل صار قلبك قلب أرنب...!؟ اركلهما...!

لم يتمالـك سـليمان نفسـه مـن الغيـظ والألم، فأبـان عن رفضـه المبين، وأطلـق قدميـه للريـح خارجـاً وهـو يغمغـم: «إلا ضرب النسـاء... إلا ضرب النسـاء...» فارتفـع صـوت سي الغـالي قهقهـة وهـو يـردد «وأخـيراً عرفـت أن لـك قلبـاً في صـدرك يـا سـليمان، يحـن ويعطـف، لا تنـس مازلـت السيد، الحاكـم والناهـي والآمـر... ولا تنسـوا أنتـم جميعكـم مـن في هـذه الـدار ومـن في البلـدة، لا تقولـوا قـل مالـه، فننـزع سـلطانه، لا... والله.. سـلطاني مـن أصـلي وأجـدادي، ومـا نازعنـي فيـه أحـد إلا ذبحتـه ذبـح الشـاة وعلقتـه عـلى بوابـة البلـدة».

«سي الغـالي» أضـاع مـن العـز التليـد والنعيـم الكثـير والخـير العميـم والمـال الغزيـر، والـتراب الوفـير، أكثـر ممـا صـان وتبقـى، فأكثـر الأراضي والأمـلاك ضاعـت، وتبـددت بتهالكـه في شـبابه عـلى ملـذات ومتـع الدنيـا، وتقلبـه بـلا حسـاب في النعـم والخـيرات، وأضـاع عـلى حفـلات وولائـم القـواد والضبـاط الفرنسـيين والوجهـاء مـا لا يحـصى ولا يعـد، فلـم يبـق لـه غـير التاريـخ والاسـم والـدار الكبـيرة، ومحـلات تجاريـة، وسـلطة مـن ظـل «فتـوة بائـدة» عـلى أهـل بلـدة العقـرب.

يسـترجع أنفاسـه، ويسـتوي بغطرسـة وخيـلاء عـلى فرشـة عاليـة مبسـوطة عـلى كـرسي كبـير عـال، كمنـبر بدرجـات، خشـبي بظهريـة مشـبكة في تناغـم جميـل، وأرضيـة منجـدة ومزركشـة بخيـوط حريريـة،

منقوشة المسندين الملحفين بالقطن، وقد اتخذ لظهره لمزيد من الراحة وسادة ضخمة، مطرزة الزوايا بزركشات جميلة حريرية، يطرق بعصاه المذهبية العروة على الأرض ، ويقول:

- أنت ... ! يا عمشاء الويل.... ! أنت...

- نعم... أنا؟

- أنت... أنت...!

- ماذا يا سيدي...؟ أأمر!

كأنه نسي ما نوى قوله، يحني رأسه ويفرك جبينه بسبابته ويقول:

- نعم ...! أنت ....! اذهبي يا عمشاء إلى بيتك...

- حاضر سيدي... حالاً...!

تنصرف «طامو العمشاء» حابية ثم منحنية، حين تصير بعيدة عن نظره، بصمت دون أن تنبس بكلمة، مطرقة الجبين، منحنية يكاد فمها يلثم سرتها، ثم يردف قائلاً وهو يسوي برنسه وعمامته الصفراء:

- عد يا سليمان إلى هنا.!. لن آمرك بضرب النساء يا رهيف القلب، ورقيق المشاعر...

يعود سليمان إلى الداخل يجلس على يمين كرسي سي الغالي، ويقلب حطب النار في المدفأة ليُدَفِئه من برد الشتاء:





- اسمعي.... يا «هجالة»!

- نعم...! سيدي...!

- قلت اسمعي...!

- أسمع لك سيدي، أنا تحت قدميك....

- سالم الزموري... ذاك الغريب.... أنت الآن تدخلين وتخرجين عليه... ما سره...؟

- ينام بالنهار، ويصحو بالليل... يكتب ويكتب بلا تعب ولا ملل، فقط يكتب، وأحياناً يتجول في الليل مثل «الخفافيش»، ويقصد «ساحة المزاوگين»، ويجلس مع سي عبد الباقي طويلاً.

- وما علاقته بسيدي عبد الباقي؟ الأمر مريب.

- يقولون إن سالماً يسمع من شعره ما يعجبه ويطربه، ويقاسمه أحياناً الطعام والحديث.

يناجي نفسه قلقا متوجسا: «ماذا لو تكلم الشيخ، وحكى حكايته لهذا الغريب!؟.. وليكن...سيقال حينها الشيخ عبد الباقي يخرف ويهذي ولا أحد يأخذ بحجة المجنون وقد رفع عنه القلم.. لكن ما علاقة الغريب به؟» يخرجه من عذابه صوت سليمان:

- ربما هو يبحث عن شيء ما ثمين في البلدة ولا نعرفه.

ينتفض سي الغالي غضبا ويصرخ في وجه سليمان :

- أحمق أنت أم تتحامق..!؟ لا شيء ثمين في بلدة العقرب، نحب لا نصنع للبلد غير قطاع الطرق، ونأوي الهاربين والمجانين، ونزود النصارى بالأخبار والسواعد، يا هجالة..! كيف يمضي هذا الغريب الليل وحده ؟

- إنه يكتب طوال الليل... فقط يكتب.

- هل يشرب الخمر....؟

- لا فقط الماء واللبن.

- هل هو ماجن... نساء... فتيات... حشيش....كيف...؟

- لا... لا سيدي... لا له في الخمر ولا في النساء...لا متعة له غير الدواة والأوراق عرضت عليه اللحم الطري الجديد، فتجاهله دون أن يجرح المشاعر، وعرضت عليه المحترفات من المومسات، فاعتذر وتكرم عليهن بالمال.

- هذا النوع هو الأصعب... ليس سهلاً أن نحصل منه على الأسرار، وليست له نقطة ضعف... إنه حذر ولا يحذر إلا في أمر جلل يغنيه عن دونه من متع وملذات.

- نعم سيدي فأحياناً يقوم بأشغال البيت من رحض وغسل وكي... وأنا متعجبة من فعله، فهو يقوم بها بحماس ونشاط.

- أريدك أن تأتيني بسره، وإن فلحت أعفيتك من إتاوتك... هل فهمت...؟





- نعم سيدي...! فهمت... فهمت لكن لا سر له...

- أتستطيعين سرقة أوراقه حين يخرج ليلاً...؟

- فكرت في هذا الأمر، لكنه داهية وماكر، ويحسب لكل خطوة ألف حساب.

- كيف...؟ الشاب يبدو ساذجاً «وعلى نياته».

- لا...! لا...! هو يفكر كثيراً، وخطواته مضبوط، ولا يخرج إلا وهو متأبط محفظته، والمحفظة نفسها يتوسدها عند النوم، تحت وسادته طبعاً... قد تظن أنه يضع الأشياء بعشوائية وفوضى وبلا نظام ولا ترتيب، لكنه يخدعك بالمظاهر، فكل شيء في الدار، يعرف أين وضعه، وله مكان خاص في عقله، فحين أغير مكان شيء يسألني: «كانت على حاجز النافذة مرمدة حجرية، كان في المطبخ على الرف الأول علبة مسحوق حليب فارغة، كان... كان وكان...» حتى تعلمت وصرت إن مسحت شيئاً أرده لمكانه...

- تذكري كل من يزوره، كل من يتصل به، أريد الأخبار... بلا أخبار ولا معلومة ستضيع مني البلد، وقد أضيع أنا، يا ناس.. أنا أعيش بالأخبار وأطعم بالمعلومات، إن شحت أو انقطعت سقطت سطوتي وذهب مجدي، ومجدي هو أصل عيشكم. سلطتي في الأخبار، ماذا أقول للنصارى لو سألوني عنه؟ الأخبار أحمي بها نفسي وأقايض السلع والمنافع، أتسمعين يا خرقاء...! المعلومة أغلى سلعة في سوق السياسة.

متعجبة تحملق فيه فاطنة الهجالة متسائلة:

- وهل للسياسة سوق!؟ وكيف يبيع الناس الأخبار فيه؟

- اصمتي... لن تفهمي... أنا أكلم نفسي فقط، المسيطر الآن هو من يملك المعلومة أولاً....

- الأخبار..لا تحمل هما، الكل أدمن جمع الأخبار، والمحظوظ فينا من يأتيك بها طرية.

- اذهبي الآن... أريد المعلومة، بلا معلومة سأنهار، ولن أميز أعدائي من أصدقائي، وغريمي من نديمي، ولا خصمي من خليلي، والكل يتآمر عليّ، بدءاً من ذاك الزنجي سليمان، والشيخ والقائد ومدير مركز البريد، والكثيرون في بلدة العقرب، لا تتأخري في جمع المعلومات عنهم جميعاً، فأنا أشعر أنني مقصود بشر، بمؤامرة تحاك في السر ضدي.

لا تجد فاطنة الهجالة من كلام، تطمئن به نفس الرجل الذي غدا يخبط خبط عشواء من الهلع سوى الصمت، ثم تقول وهي تهز رأسها:

- نعم...! سيدي...! «أولاد الحرام» كثيرون، لا نعرف أين هم، حتى نصاب بأذى أفعالهم، فنفاجأ بهم لأننا لم نحسب للقريب أي حساب، وغالباً تأتي الضربة القاصمة من القريب لا البعيد....

- ماذا قلت؟ القريب....!

يغوص في تأمل عميق، حتى بدا شارد الذهن، شاخص





العينين الضيقتين، يتسارع تنفسه فتسمع له حشرجة في صدره، فالأنف قصير ضيق المنخرين، والفم أزرق الشفتين في امتلاء، فيقول وقد غلبه الذهول والقلق حتى تغيرت له تعابير وجهه الحليق، ذي الأوداج المنتفخة، يكاد رأسه يلتصق بكتفيه، من كثرة لحم الرقبة.

- هل يقول الناس عني شيئا لا أعرفه يا فاطنة الهجالة؟

- لا... لا شيء...

- قولي يا فاجرة...! لا تخافي...!

مرتبكة مضطربة تقول وهي ترتعد من خوف:

- يقولون إنك قاتل ابن سيدي عبد الباقي، ونهبت أموال الرجل الطيب وشردت أسرته.

- ولمَ أقتل عبد الرحمن ولد سيدي الباقي؟

- يقولون إن ابنة «مول البوسطا» كانت تحبه وكانت خطيبته.

- كلاب... كلاب.. لمَ لا يقولون هذا الكلام في وجهي...!؟ جبناء.. صدقت يا فاطنة، القريب أحق بالحيطة والحذر...

- نعم سيدي...!

يصمت لحظة ويناجي نفسه وعيناه شاخصتان ووجهه معتصر:»القريب.. القريب يا الغالي أولى بالحيطة والحذر والترصد.. طبعاً...! عليّ أن أضع عيوناً على ابني... لا... لا

يمكن لعمر أن يتآمر ضده أبيه، ولمَ لا؟ فهو ابن أمه، وأمه حتماً حاقدة من زواجي الثاني، زوجتي الثانية حتماً غاضبة أيضاً من كوني تزوجتها كرهاً لا طوعاً، ونزعتها لابن سيدي عبد الباقي قهراً، حتما هي تعرف كل القصة وتسايرني مستدرجة إياي نحو حتفي.. نعم.. الأقرباء كلهم أعدائي، لم تعد داري آمنة، سأنام وحدي، وعلى الباب سأضع حارسين، بل أكثر.. لكن ماذا لو غدر بي العسس مقابل مزيد من العطاء والمال، فهم أوفياء للصرر لا للرجال، سأضع على الباب سليمان، لكن هل عليّ أن أثق في سليمان؟ هل أدبر له ظهري وأأتمنه على حياتي؟»

ترمي لها فاطمة طوق نجاة يخرجه من تلاطم أمواج هواجسه، قائلة وهي لا تدري، أن الطوق النجاة نفسه هو نبع هاجس متناسل الوساوس:

- سيدي.. القريب قبل البعيد..

- اسكتي...! من أعطاك الإذن لتتكلمي يا هجالة...؟ القريب والبعيد... ماذا تقصدين يا خرقاء!

- أقصد أن الشر ربما يأتي من القريب والصديق قبل العدو المعلوم...

- صرت حكيمة يا هجالة، اصمتي، ستزيدين وساوسي يا عاهرة..! هل نشك حتى في أبنائنا ونسائنا؟

- من يدري...؟



- ألم أطلب منك السكوت...؟

ينتفض واقفاً، يقصدها ويركلها ركلاً، ثم يرفسها رفساً حتى تنتحب وتئن ألماً، وهو يصرخ:

- قلت لا تنبسي بكلمة واحدة يا ساقطة، أغدوت ناصحة يا «مجمع البلاء»!؟

تصمت وهي تضع يدها على فمها، وتتكوم في ركن بعيد، خشية أن تطالها ركلة أخرى من ركلاته الطائشة، أما هو فيصرخ بصوت مرتعش وسط نوبة غضب جارف عكسته النظرات الحادة من عينيه الشاخصتين اللتين ضمّ ما بينهما، والتعابير العابسة المرسومة على وجهه المقطب:

- سليمان...! انهض...! لا تدخل عليّ أحداً حتى تفتشه، وتتيقن من نواياه...

- كيف أعرف نواياه يا سيدي...؟

- لا أعرف... المهم... اليقين لا الشك...

- حاضر سيدي، سأفتش الداخل والخارج.

- حسناً...! حسناً....!لا تدخل عليّ حامل سلاح أبداً، أول أقول لك، لا أريد أن أرى أحداً في مجلسي، والآن أخرجي يا خرقاء.. «تفو...! تفو...!» لا يأتي من ورائك إلا المرض والأعصاب.

يرافق سليمان فاطنة الهجالة حتى البوابة الخارجية يصلها نداء سي الغالي من جديد قوياً:

- انتظري....!

تعود خانعة، تقف أمامه قابضة اليدين إلى سرتها، يحدجها بنظرة ارتياب فظة، ويقول مزمجراً رغم رقة الصوت الذي يخرج من أنفه، يكاد ينهكه:

- سمعت أنك أصبحت تستقبلين رجالاً مع عاهرات... وتقيمين الليالي الحمراوات للبعض، وعندك بعض المومسات لَبِثَاتٌ، بعدما كن فقط عابرات، اسمعي...! لا مشكل عندي أن توسعي نشاطك، أنت تشيخين، وللزمن أحكام وللسن آثار على مهنتك، اجلبي فتيات صغيرات جميلات، واشتغلي وسيطة و«توبي»، لكن لا تنسي الحساب، وزوديني بالأخبار تباعاً عن زنقة البهاليل وباقي الأزقة، وحتى عن الشيخ والقائد نفسيهما.

- نعم...! سيدي ...سيدي...

مترددة تريد البوح بشيء:

- سيدي...!

- ماذا يا خرقاء...! تكلمي...!

تعض أصابعها وتقلم أظافرها بأسنانها خوفاً وقلقاً واضطراباً تقول كأن بلسانها عيا وعقدة:

- القو......ا...ئ...د... القائد...!

غاضباً غضبة عاصفة، مزمجراً، يركل كرسياً عليه ماعون





الشاي، فتتطاير شظايا كؤوس «البلار»، ثم يصيح وقد انتفخت أوداجه، وتجعد ما بين عينيه، وزبدت زاويتا فمه:

- ما به القائد؟ تكلمي يا عاهرة...! رفعت ضغط دمي...

- عندي خبر عنه...

- جيد...! جيد..! هذا ما أريد.... قولي...! تكلمي...!

- كل أحد ليلا، تزوره فتاة جميلة اسمها نجاة، وتبيت في رياضه.

- وزجته وابنه الوحيد!؟

- زوجته المسكينة وابنها يسافران عند أصهاره بمراكش.

- هل تقصدين أنه.... ؟ يا لئيمة... ! خبر بألف فرنك...

- نعم...! وعرفت من بعض الفتيات ممن يأتين عندي التفاصيل الغريبة.... كل التفاصيل العجيبة..

- كيف.؟. احكي...! لا تتلكئي يا لئيمة!

- إنها عشيقته، ولكن...!

ينتفض واقفاً، ويرمي ببرنسه عن ظهره بعيداً، مزمجراً، وظل الفضول القاتل المؤلم، يكاد يقفز من عينيه الجاحظتين، لمعرفة مزيد من الأخبار:

- ولكن ماذا...!؟ ماذا.......؟؟؟

- استحييت يا سيدي أن أقول لك ....

تركبه من جديد عاصفة الغيظ والحنق، فيردد مرغياً:

- تكلمي...! لا تدفعيني إلى جلدك... تكلمي يا ساقطة...!

- إنه يطلب من الفتاة أن تتعرى أمامه فقط، وينظر إليها وهو يستمني، ولا يضاجعها.

- كيف...؟

- لا أعرف... ولكن سمعت أنه...

- ماذا ....؟ انطقي...!

تلتفت يميناً ويساراً، ووراءها، تنهض وتسر للغالي في أذنه:

- سمعت أن به مرض السكري الذي جفف عروقه من الدم... وأصبح عاجزاً....

- ما كان ليستمني لو كان عاجزاً....

- لا أعرف... هذا حد علمي.

ينفجر سي الغالي ضحكاً وهو يضرب الأرض بقدميه، فيهتز كرشه، ويقول وقد ابيض وجف زبد في فمه:

- يا شيطانة...! أنت مجمع البلاء والأنباء... ودارك والله...! والله...! أخطر من أي سلاح فتاك، فيها تجري كل الأخبار والأنباء، بحديث الوسادة وجمر السقاية، صدقتَ يا أبي رحمك





الله، كان يقول «المرأة أحد من السيف في حدها الحد بين العار أو الشرف، لو ربحت المرأة إلى جانبك، ربحت كل حروبك، وخلدت ذكرك بلسانها، إن أحبتك سترتك، وما كشفت لك عيباً إن كرهتك كشفت عيبك وزادت، فإن لم تجد نسجت من خيالها ما ينزع عنك الشهامة والكرامة»، صدقت يا أبي...! رحمك الله...

- نعم... سيدي... نعم لو هام أحد بامرأة ما استطاع أن يكتم عنها سراً. والمرأة لا تستأمن على سر... لو أسررت إليها شيئاً لم يعد سراً...

- لا... يا فاطنة،! هناك من النساء من هن أشد من الرجال، وأوفى وأشد وثوقا على الأسرار من الرجال أنفسهم...

- صدقت سيدي، مثلاً أنا لم أفش لك في حياتي سراً

- أنت...؟ نعم... لكن خوفاً من بطشي لا تفشين أسراري أما الكرام من النساء فمروءةً وشهامةً وخلقاً يحفظن السر ولا يفشينه مهما تغيرت الظروف... اسمعي...! اربطي علاقة مع فتاة القائد، ودعينا نتوصل بمزيد من الأخبار...

- آه...! القائد... يا مسكين...!

- انصرفي....! الآن ...! لكن قبل أن تذهبي أريد أن أعرف ماذا يقولون عني أنا...!؟

- لا شيء...! سيدي... لا شيء...

يشدها من شعرها بعنف ويجرها سحلاً، حتى تحبو على الأرض دون مقاومة منها، يغلبها قيء تقاومه، ثم يرفسها صارخاً:

- أريد الحقيقة... ماذا يقولون عني...؟

- من؟

يصرخ حتى تطاير اللعاب من فمه:

- الكل... الرجال... النساء... حتى الأطفال لو نطقوا....

مرتعشة الشفتين، وقد أنهكها الوهن النفسي قبل الجسدي تقول::

- سيدي.... الفتيات....

- تكلمي...!

- الفتيات يقلن عنك يا سيدي إنك مَثِن، تعجز دائماً عن مسك بولك في مثانتك فيغلبك فتتبول في ملابسك وفي الفراش، وإنك ظالم جبار لا ترحم، ولا ترتاح إلا بضربهن في الفراش، وتجد متعة في ذلك، وسيئة الحظ هي من تختارها لليلة من لياليك.

- عاهرات يلفقن الأكاذيب... وما كثرة تبولي إلا من كثرة شربي... إيه... وماذا أيضاً؟

- ويقلن أيضاً...

- أوووووووف، سأذبحك الليلة...



- وبعضهن يقلن إن الصديد والدم أحياناً يخرجان من قضيبك، وقد أقسمت إحداهن على ذلك نعم «...الزاهية»... قالت إنك مريض بالزهري.

- «الزاهية» تلك الواسعة المتسخة... أين هي الآن!؟

- هي الآن في مدينة أكادير، وهي من روجت بشدة بين الفتيات أنك مريض «ببرد النساء»...

- لست مَثِناً، وما بي من مرض جنسي... العاهرة.... لو عادت إلى البلدة أخبريني حتى «أكرم وفادتها.. الساقطة... !».

- طبعا... نعم سيدي...

- مممم... وماذا يقول الرجال؟

- يقولون إنك بخيل ونهبت حق أخيك...

- بخيل...! وأنا الذي بددت ثروتي على الملذات...

- يقولون أنت كريم فقط مع رجال المخزن والسلطة وكبار الأعيان، وبخيل على الفقراء والمساكين و«المزاوگين».

- ومن يكرمهم هنا إن لم أكرمهم أنا...!؟ وعن أي أخ يتحدث هؤلاء المجانين؟

- سليمان...!

- سليمان الزنجي...!

- نعم...! يقولون إنه أخوك، وابن رقية الحبشية رحمها الله، وقد غشاها أبوك حسب ما يروج، وأختاك المتزوجتان بمدينة سلا «مليكة» و«زهور»، تقران بذلك، وتزورانه كلما حلتا بالبلدة، وتجلبان له الهدايا، وتقولان لأبنائهما إنه خالهم.

- كلام في كلام... أختاي حمقاوان...

- يقولون إن أباك اعترف به قبل موته، وأوصاك ولم تنفذ وصيته في ماله وفي ابنه من رقية الحبشية.

- وماذا يقول وراء ظهري الشيخ الزطاط؟

- لا شيء.. أخوه بوشعيب الزطاط هو الذي يقول إنك السبب في موت ابن الشيخ عبد الباقي، ونهبت أرضه وماله...

- هذا ما يقوله عني «شْعِيبَه الحقير» الأخرق... سنرى... سيأتي اليوم يا بوشعيب لأجعلك فيه ذليلاً لا دليلاً بين كل الزَّطَّاطِين...

- و....و... يقولون إنك....

- توقفي...! لم أعد قادراً على التحمل... هذا كثير... كثير... كأن لا صديق لي في هذه البلدة...

يتنابه حزن جارف، يسند جبهته بأصابع يده، يقطب الجبين في عبوس شديد، يتنفس بصعوبة، كأن ما روت له أنقض ظهره، وجثم على صدره، يخرج إلى الفناء المكشوف طلباً للهواء، يذرعه جيئة وذهاباً، بزفير وشهيق قويين، ثم يدلك قفاه دلكاً سريعاً،





كأنه يبدد ألماً، تتعقبه بحيرة وخوف فاطنة الهجالة، تدنو منه، تصيح:

- سي سليمان... ماء لسيدك.

ينتفض سي الغالي غاضبا ، وهو يهز هزاً بجدع شجرة اللوز المنتصبة وسط الفناء المكشوف فتتساقط بعض الأوراق، وتجفل بعض طيور البط والدجاج، وتنفر هاربة وهي توقوق:

- اصمتي... ! واخرجي... لا أريد المزيد... أيكون خادمي أخي...؟ هذا جنون... جنون... كيف يتسمون في وجهي... ويرفعون شأني قولاً وخدمة، ويمدحونني مدحاً لا يقل عن مدح الملوك على الملأ وقلوبهم سوداء، ويكنون لي كل هذا العداء والضغينة!؟ إن أكثرهم بارك ما فعلت مع سليمان، وقالوا ما من دليل، وأبوك يخرف ومرضه غشى عقله، فصار لا يميز بين باطل ولاحق، ووراء ظهري الكلاب يقولون... غير هذا... ظلمت أخي، وغصبت حقه، ولم أنفذ الوصية... كلاب....! كلاب...!

- نعم سيدي لا خير فيهم، الكلب خير منهم، وفيّ لا يغدرك...

- لا أفهم تلك الفتاة العاهرة «الزاهية» أخذت حظها مالاً وفيراً، وهي الوحيدة التي لم أضربها، فكيف تطعنني في ظهري وتشنع عليّ!؟

- لو ضربت كما ضربت الأخريات لصمتت... وأنا منهن.. يا سيدي من لا تنفع معهن غير العصا... والله....

بإنهاك نفسي، وضعف بشري يقول متثاقلاً بصوت خفيض عليل، ينم عن التعب والأسى والحسرة:

- ما فعلت في الكل إلا خيراً... والثمن الجحود... دائماً تردون خيري نكرانا.

ثم يومئ لها بيده أن تنسحب:

- اذهبي يا.... اذهبي... يا فاطنة...!

يجلس لحظة وحيداً متأملاً بصمت، يتفرس في سليمان الذي كان على الباب منتصباً كالصنم، كأنه يراه لأول مرة، ينهض وينتصب أمامه ويداه وراء ظهره، يطيل النظر في وجهه، يتحسس أثر الأب فيه، فيناجي نفسه «هذا الأنف أنف أبي، والعينان عينا أبي... نعم... رقية كانت أمة حبشية جميلة، وأنجب منها والدي سليمان، لكن أيكون هذا العبد أخاً لي ونتقاسم كل شيء بالنصف!؟ فحتى أخواتي البنات لم يرثن وصَمَتْنَ.... آه...! ورطتني يا أبي بنزوة من نزواتك... في الحقيقة كان يفضل رقية على أمي... نعم... كان يقول عنها «حمامتي الجميلة» فتضحك، وتغتاظ أمي... لم تكن نزوة... فقد ظل يتردد على حجرتها حتى مات... كانت حبه الكبير...».

ثم يعود إلى فرشته ويصيح:

- سليمان....! سليمان... ! دفئ الماء للوضوء.... لقد أذن العشاء منذ مدة... أستغفر الله العظيم....أنسوني صلاتي.



بعد الصلاة يدخل لينزوي مع زوجته الشابة «صفية»، بحجرة في علية البيت الكبير، الذي كان يتكون من طابقين سفلي وعلوي، وعلى جنبات الطابق السفلي توزعت خمس غرف متقابلة مؤثثة للمعيشة والنوم، وحجرتان واسعتان رحبتان بهما أفخم الأثاث، وأبهى الرياش، وأنفس التحف والأواني النحاسية والزرائب والوسائد، حيث يستقبل الرجل ضيوفه وكبار الناس من الخاصة والوجهاء والقواد، ومطبخان ومخزن للمؤونة في زاوية الدار من جهة البوابة.

الباحة وسط الدار فناء واسع، كجنة غناء بها أشجار مثمرة، وأحواض ورود وأزهار ونباتات جميلة، تتوسطها نافورة ماء لا ينضب ماؤها يثر ثراً، وقد زينت الجدران بالزليج والرخام، وحُفَّت الدار خارجاً بأشجار الليمون والرمان والكروم التي تمددت وتشابكت عيدانها وأغصانها وتدلت، فشكلت سقفاً من هذا التمدد والتشابك للفناء، أما في الطابق العلوي، فتوزعت علاوة على غرفة الضيوف، ومساكن الخدم والخادمات والعسس، غرفتان للنوم، واحدة في مدخل الردهة لزوجة الغالي الأولى الحاجة زهور وهي ابنة عمه، وكانت امرأة سمينة، بضة الجسم بيضاء البشرة، منتفخة الوجه والرقبة، كثيرة الحلي حتى إن صليلها ورنينها يسمعان من بعيد، وأنجب منها، البنت البكر عائشة وهي متزوجة بآسفي، وعمر الشاب العشريني الذي يسكن معه ولم يتزوج بعد، وغرفة أخرى في نهاية الردهة، لزوجته الثانية صفية، التي لم تلد له ولكنها كانت جميلة، هيفاء، رقيقة اللسان والبيان،

وهـي ابنـة رئيـس مركـز البريـد، زوجهـا أبوهـا لـه، بعدمـا عـسر في أداء ديـن لـه، فقايـض ابنتـه مقابـل الديـن وكان سـكيراً ومقامـراً حـد المـرض والهـوس.





## ١٤

سـحبت الظلمـة الغشـوم وإن برفـق كتـوم، آخـر رمـق مـن شـغب النهـار المـضيء بعـد احتضـار عسـير للشـمس، عـلى فـراش الغسـق الأعشـى الـذي نحرهـا بـلا رحمة بقسـوة وأسـى، عـلى محـراب الأفـق الكئيـب، فتدفـق الأصيـل ينـزف مـن جيدهـا بلوعـة، ويغتسـل مـن دمهـا قبـل أن يودعهـا إلى مثواهـا نادبـاً الضـوء الذبيـح في كمـد لا تستشـعره غـير طيـور كاسرة وغربـان منهكـة وأخـرى مهاجـرة أجلـت التغريـد، تحلـق نحـو الأعشـاش والمخابـئ مصـدرة أصواتـاً يختلـط فيهـا الهديـل والنعيـق، شـاقة السـكون الـذي بـدأ يسـكن النفـوس ودروب بلـدة «العقـرب».

لا يكـسر شـوكة شـغب النهـار في بلـدة «العقـرب» غـير العتمـة الطاغيـة، المتحالفـة وقـر المسـاء وحنـين الريـح الزفيـف، في هـذا الربيـع البـارد عـلى غـير عادتـه، المتقلـب المـزاج، فتتلمـس الأفئـدة والأجسـاد الـدفء في البيـوت، أو متحلقـة حـول النـار المشـتعلة في براميـل و حفـر في الخـلاء بالبلـدة الغـبراء، وهـي تغفـو تاركـة الضجـر والأرق للمتشردين والمتسـكعين ولمـن لا مـأوى ولا سـقف لـه يأويـه، ولا فـراش دافـئ يقيـه بـرد الليـل.

تنتصب دار خربة أعلى الهضبة، وهي مكان مخيف نسج حوله برهبة عجائبية أهل البلدة أساطير غريبة، تمتد هذه الدار بين أحراش الحلفاء في أرض مقفرة مرداء، تعيش فيها جوارح الليل التي تقتات على الجرذان والفئران في أخربة المقبرة، وقد تناسى الناس وأهملوا قبة ضريح هناك، ولا يعرف من الدفين به، حتى صارت خربة ومرتعاً للسكارى والمتشردين واللصوص.

منذ اتخذ منها «الجيلالي» سكناً له رفقة زوجته «حادة» وربيبته كلثوم، درج ناس البلدة على تسميتها بدار «الخنازير»، وبعضهم ينعتها بدار الشيطان، يعود هذان الاسمان إلى تطير الناس وشؤمهم من الدار والمكان إلى حد الرهبة والخوف، عقب حادثة الهلاك المأساوي لوالدي وإخوة «حادة» أحياء بها في حريق مهول لم يمهلهم فرصة النجاة، ولم ينج أحد غيرها وكانت على ذمة رجل يسكن في الجانب الغربي لهضبة «الزطاطين» بالبلدة، حيث تقل الدور والبنايات خلافاً لمنحدرها الشرقي، واستمد هذا المسكن الصفة الأخرى من كنية الجيلالي نفسه «الشيطان»، ربما لقبحه الشديد وغور عينيه وعفنه الراسخ، فقلما يغتسل، وربما من أثار بثور سوداء على وجهه من جذام قديم، وزاد من نجاسة المكان تربيته للخنازير، التي لا يربيها أحد غيره في البلدة ويبيعها لمجازر النصارى.

يقسم الناس على أن الجيلالي لا يجد حرجاً في أكل «الحلوف»، الذي يجهز على العليل منه المشرف على الموت، ويقسمون بالكعبة و«البزولة» أي ثدي المرضع و يحلفون بالطعام والملح ودم القرابة،



ويدعون على أنفسهم بالشلل إن هم كذبوا، حالفين بحماس خلال سمرهم، أن كلثوم وحادة يقاسمانه لحم وقديد الخنازير، لهذا لا يأكلون طعامهم، ولا يدعونهم لأفراحهم ومسراتهم، واعتاد الطرفان، على عدم التزاور ومشاركة الأعراس والأفراح، إلا من عزاء لا يقعد عنه أحد إلا لمرض أو ظرف قاهر.

أحيطت الدار بسياج من حجر متراكب في غير انتظام، وسط حقول أرض حلفاء، في عزلة ووحشة بعيداً عن باقي الدور والبنايات التي تتوزع في أسفل «الوداي الناشف» على ضفتيه وحول سفوح شرق الهضبة، وسالت في مجرى الوادي العفن مياه الصرف الآسنة بدل الماء العذب، وامتلأ بالنفايات والأزبال وأكوام الحجارة وأنقاض الردم والهدم.

الجيلالي عطار متجول، هذا على الأقل ما يعرفه عنه أهل بلدة العقرب، الغريب عنه، وقد يشتمه أحد ويصفه «بالمحوز» أي الذي لا كبرياء له وقبل السكن في بيت غيره وخصوصاً الأصهار والزوجة، وقد تزوج «حادة» منذ ست عشرة سنة، واتخذ من أنقاض البيت المحترق سكناً، ولم يجد غضاضة في تربية ربيبته كلثوم، التي كانت في حجره منذ الرضاعة، فنشأت على أبوته، وكانت تعيره كلثوم بـ«الخانز» فيعيرها بأبيها الذي جن وساح في الأرض ولم يعرف له مستقر ولا بلد، لهذا سموها بنت «الهبيل» أو «الأهبل» أي ابنة الأحمق.

تجلس حادة وابنتها كلثوم على كومة من تراب وحجارة

تكنسان الفضاء، وعيونهما على المنحدر، ينتظران الجيلالي الذي خرج منذ أيام ولم يعد حتى خشيتا عليه، فخرجتا تترقبان طلعته، فظهر من بعيد يتسلق المنحدر، وهو يحث حصان العربة على الصعود، بصعوبة ومشقة، تشق العربة طريقها على ممر ضيق بين الحصى والحجارة، على الطريق الوعرة، وقد كان هذا التسلق شاقا على الحمار لثقل هيكل العربة، وليس لسلعها ومتاعها وماعونها، تقول الأم لابنتها وقد لمحت شبحه في الظلمة:

- ها هو...! إني أراه....

- نعم...! هو ذاك... لندخل الآن.!. فالبرد قارس...

- نحن في فصل الربيع وما انقطع السر والقر بعد... هذه من علامات القيامة.

- يا أمي ...!القر يأتي من هبوب الريح على الجبال المثلجة المحيطة بنا، ولم يذب الثلج بعد... وكلما قلت الأمطار طال القر، وهذه السنة كانت السماء قليلة الغوث.

- لندخل يا بنيتي...!

تسوي حادة لحافها وترمي بطرف منه على ظهرها، ثم تحرر قميصها من عروة تشده وتحسره إلى نطاقها حتى لا تتعثر بتلابيبها، وتختفي في الداخل، يشتد نباح الكلب المربوط أمام الباب وهو يهتز وينط فرحاً بعودة الجيلالي، يكاد يسقطه مشاغباً وهو يعبر نحو حوش الدار، يمسح على رأسه، يصدر الكلب أصواتاً غريبة





حادة، كأنه يعرض مظلمة أو شكوى من حيف لحقه، يتسمر الجيلالي على العتبة، وهو يصرخ بحنق:

- حادة...! «يا مسخوطة...!»... هل أعطيتم الطعام للكلب ؟

يأتيه صوتها مبحوحاً من الداخل من سعال، ألمّ بها منذ مدة ولم ينفع معه دواء، أتى به الجيلالي دون وصفة طبيب:

- «القارح» أكل ما أكلنا وشرب ما شربنا... «إنك تزيد فيه»....يراك فيصير «داسرا» ويكثر الحركة والعويل.

- يا امرأة...! لا ماء قربه....

- يقلب دائما «الغراف»، ويكسره، ماذا أفعل...؟

- ضعي له الماء يا بلهاء...! في صحن من بلاستيك.

- لم نجد نحن صحون البلاستيك للبيت، فكيف نقدمها لكلب الأمير...!؟ ادخل لترتاح!

- لن يهدأ لي بال حتى أراه يشرب... المسكين ربما يا كلبة...! لم تطعميه كفاية نكاية بي.

تطل عليه مشرئبة بعنقها من كوة في الجدار، وفي يدها شمعة، تنطفئ فجأة بهبوب ريح مباغتة، وترد عليه:

- والله شرب وطعم حتى شبع....أتظنني لا أتقي الله في هذا الحيوان المخلوق الضعيف......!؟

يظـل يداعبـه، والكلـب مبتهـج ينـط، ثـم يقـف وقائمتاهـا الأماميتـان عـلى صـدره، الأمـر الـذي يسره شـديد الحبـور، ويدخـل البهجـة بغرابـة في قلبـه، ويقـول وهـو يفـرك بيـده زغـب الكلـب الـذي تطايـر فتطايـر معـه البرغـوث:

- انتظر...! اليوم سأوسع عليك في المأكل.

يقصـد عربتـه، يفتـش بـين سـلعته بشـغف وعينـاه تفيضـان فرحـاً، لا تطـال يـداه مـا يريـد بسـهولة، يجـد صعوبـة في الصعـود إلى العربـة، يحـاول ثـم يقفـز رغـم كـبر سـنه فقـد كان في العقـد السـادس، ولكـن التجـوال للتجـارة سـاعده ليبقـى طـري العظـم خفيـف الحركـة، يخـرج علبـة سرديـن مـن بـين العطـارة، وقـارورة بيضـاء بهـا خمـر مـن نبيـذ التـين، يطعـم الكلـب، قطعـة قطعـة كمـن يطعـم طفـلاً صغـيراً، والكلـب يهـز ذيلـه منتشـياً فرحـاً، مطمئنـاً للرفقـة والاهتـمام أكثـر مـن انتشـائه بقطـع السرديـن المعلـب، كلاهمـا كانـا في سـعادة لا توصـف، يرشـف الجيـلالي رشـفتين مـن القـارورة، ثـم يدسـها بـين تلابيبـه وهـو محتـاط مـن نظـرات «حـادة»، يجاهـد مـرة أخـرى لنـزع اللجـام عـن الدابـة، تغلبـه الثمالـة والتعـب يصيـح وقـد غلبـه الترنـح:

- كلثوم....! تعالي....! ساعديني يا ابنة الكلب! تعالي....!

كانـت كلثـوم تتلكأ في الـرد عليـه والاسـتجابة لندائـه الملـح وطلبـه الحانـق، متعمـدة إغضابـه وإغاظتـه، لا تـرد عليـه متجاهلـة، فيـصرخ مـن جديـد حانقـا:





- حـادة....! كلمـي تلـك العاهـرة أن تخـرج وإلا أتيـت وكسرت عظامها.

عصـف بـه الضجـر والتوتـر وهـو ينتظـر ظهـور الفتـاة المشـاغبة والمشاكسـة، فجـاش الصـدر غضبـاً متلاطـماً موجـه، حتـى شرق بـلا طعـام، وقطعـت أنفاسـه غصـة مؤلمـة، فـكاد سـعال حـاد وشـاق أن يقطـع أنفاسـه، تفطـن حـادة إلى الأمـر فتهـرع إليـه وبيدهـا كـوب مـاء، يسـتلقي تعبـاً عـلى الأرض ورأسـه عـلى صدرهـا، ويـشرب بضعـف وبشـق الأنفـس، ينـدلـق المـاء عـلى صـدره، يشـهق ويزفـر بقـوة حتـى يسـترجع أنفاسـه وعينـاه جاحظتـان، والـدم معتـصر في شـعيرات عينيـه اللتـين احمرتـا إجهـاداً، وبرزتـا اعتصـارا، فيهـدأ كحـه العـالي، ثـم يقـل لهاثـه وزحـيره.

كان نحيفـاً سـامق البـدن كنخلـة ذات جـذع خشـن رقيـق، غـارت عينـاه القاسـيتان في وجـه قليـل اللحـم، ناتـئ الجبهـة رقيـق العظـام، عـلى وجهـه انتشرت نـدوب بثـور سـوداء مـن أثـر جـذام قديـم، لم يكـن أقـرع ولا أصلـع ولكنـه حليـق الـرأس الـذي يغطيـه بقبعـة منسـوجة مـن نبـات الـدوم، صفـراء، بحلقـة وحافـة مسـتديرة، لا يرتـدي غـير الجلبـاب والنعـال الجلديـة ذات الأربطـة والسـيور التـي تسـهل عليـه المـشي، وقطـع المسـافات الطويلـة، عفـن، قليـل الاغتسـال، اجتمعـت فيـه كل الصفـات القبيحـة مـن لسـان فاحـش وجسـد متسـخ، فـلاق بـه الوصـف بالشـيطان حتـى غـدا لا يجـد حرجـا في ذلـك.

حـين يرتـوي، وتذهـب عنـه الغصـة، ويجـد في صـدره مـن الهـواء

ما يكفي، ينظر إلى «حادة» نظرة قاسية لم تخل بعد من أثر أزمته، احمراراً وجحوظاً، فتحملق فيه هي أيضاً مذعورة، ورأسه مازال على صدرها، فتلطم فجأة على فخديها كأنها صعقت وتصيح وهي مذهولة:

- رائحة الخمر تفوح من فمك العفن يا عفن....! أعدت للشرب يا الجيلالي؟

يدفعها بقوة، كأنه لم يكن قبل قليل ضعيفاً على صدرها يلتمس ويتلمس الهواء والماء، تسقط بعيداً على عجيزتها، فتئن وتتأوه من ألم، وتسند نفسها بيديها وقد أوشكت أن تلطم رأسها بالأرض، تعجب من أمر هذا الجاحد الذي عاد يسوي ملابسه وينفض عنها التراب، ويزمجر بعدما استعاد ما يكفي من نفس للشتيمة والسب:

- عدت للغط يا كلبة....! ادخلي....! زلزل الله بك الأرض أنت وابنتك «الهبلاء» التي شبهت أباها «هبلاً» وحمقاً.

وكان طبعه البذاءة، فهو وقح، صلف وفظ، وطفق يسبها ويشتمها بسفاهة وجلافة، وهي راضية بخنوع غريب وخوف مريب، مكتفية بلطم صدرها مرددة بارتباك طافح من أثر هول الصدمة:

- بسم الله الرحمن الرحيم، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم من الذي يسكنك، والله ما كذب الناس حين عيروك بالخنز.



أشق وصف على نفسه ينعت به فيصيبه في مقتل هو «الخَنِز» به يشبه ويشتم، وبه يستصغر ويهان، وبه يعزل وينبذ، ولم يكن يؤلمه وصفه «بالحلوف» وهو الوحيد في بلدة «العقرب» ببادية عبدة، الذي استطاع أن يربي الخنازير في زريبة خاصة وراء الدار، بقدر ما يؤلمه ويجرحه في إحساسه وكرامته حد الألم وصف «الخنز»، لأن له علاقة بمظهره وقبح وجهه وعفن بدنه، أما تربية الحلوف فلا يأنف منها ولا يعاف هذا الحيوان على عادة المسلمين، وكان إن أوشك أحد خنازيره على الموت، ذبحه وأكل من لحمه دون زوجته وربيبته اللتين كانتا ترفضان أكل لحمه التزاماً بالملة، رغم أنهما لا يصليان وليس لهما من الدين غير صوم رمضان على ديدن أهالي بلدة العقرب.

التقطت أذناه الكلمة التي تؤذيه كثيراً وتغضبه، فقفز بجنون نحوها وهر ككلب شرس حتى ظهرت أنيابه من فم أدرم، وسال لعابه، مرغياً ومزبداً، شدها من ثيابها على مستوى النحر، فنبح الكلب وهر كهرير صاحبه مكشراً عن أنيابه، لو أطلقوه لغرزها في جسد المرأة، فجرها حتى سقطت أرضاً وهو يصرخ:

- سأريك يا ساقطة....! من» الخنز»

رفسها رفساً شديداً بقدميه، وهو يزحر، منفساً عن غضبه، بلا رحمة ثم ركل بطنها حتى صرخت ألماً ووجعاً.

فطنت ابنتها كلثوم لصراخها الأليم، فخرجت مهرولة جرياً نحوها، فانقضت عليه انقضاض النسر على الطريدة، وجرته

جراً من طوق جلبابه حتى اختنق من جديد، وكانت به ثمالة تعوق اتزانه وتضعف ردة فعله، فدفعته دفعاً قوياً، ثم سحبت أمها بعيداً، فهم بضرب الأم بحزام الزمام، فعمدت الفتاة بخفة وغضب جارف إلى رفش، فلوحت به في وجهه عاليا، وشرارة الغضب تتطاير من عينيها، أوشكت أن تغرس أنيابه الحادة الطويلة في بطنه، فارتفع صراخ الأم وهي تلطم خديها:

- يا ويلي... ! لا... ! لا.... ! لا تفعلي... !

تسمرت الفتاة في مكانها متربصة كقطة مذعورة، وعاصفة الغضب ما زالت تعصف بالعقل والوجدان، تكاد عيناها من جحوظ تنفجران من جحريهما، يسقط الجيلالي أرضاً خوفاً وفزعاً، ويغطي وجهه بيديه المرتعشين بجبن وفزع، وقد تبددت ثمالته من هول الحدث، وأثر الهلع في النفس، فهو لم يسبق له أبداً أن رأى هذا الكائن الهش الضعيف، وسط عاصفة غضب تجرفه جرف الرياح الهوجاء، حد الإقدام على التهديد بالقتل، وشعر بأنه كان على شفير الموت، ورأى في عينيها عزماً لم يلاحظه قبل، وتهديداً لم يخبره فيها إلا الليلة، وشعر أن أشياء كثيرة تغيرت، فاستوى جالساً وهو يلهث مضطرباً وقد وضع رأسه بين يديه باكياً يردد منتحباً:

- أرأيت يا حادة ابنتك!؟ تأكل طعامي ابنة الحرام... وتريد قتلي .

تقترب منه الفتاة وتقف عند رأسه، كشبح الموت وهو خائف مضطرب، وتزمجر مهددة وقد وجم وجهها وتجعدت جبهتها:





- ابنة حلال.. وأبي وإن جن وساح معروف، فمن أبوك أنت يا شيطان؟ لو لمست شعرة واحدة من رأس أمي مرة أخرى سأدفنك مع جيف الكلاب...

تضيف صارخة بغضب طافح والرفش كالموت المتربص فوق رأس الجيلالي:

- أسمعت يا «شيطان»! نعم... شيطان...!. شيطان...! يا مجرم...! انهض ردها علي يا خنز....! أتظنني لا أعرف أسرارك يا سفاح...!؟

ينتحب الجيلالي ويلطم فخذيه، فهو لأول مرة وسط هول الصدمة، يفقد السيطرة، يسمع ربيبته التي حضنها ورباها صغيرة، حتى بلغت الثماني عشرة سنة تهدده بالقتل، ويقول ناحطاً لاطماً فخذيه:

- «اسمعي على أذنك» يا حادة بنت «الأهبل» كبرت واشتد عودها، وتريد قتلي الآن وأنا الذي ربيتها وأطعمتها بعرقي وجولاتي بين القرى والأسواق.

تبتعد خطوات عنه وتقول ساخرة:

- أي جولات عطارة هذه يا كاذب...! أتظنني لا أعرف عملك الوسخ!؟

تشدها أمها من شعرها بقوة وتجرها نحو الداخل، وهي غاضبة تردد:

- اصمتي...! اسكتي...!

- لا لن أسكت... وليكن ما يكن...!

- اسكتي يا بنت «الأهبل»...! أتريدين لنا فضيحة في بلدة العقرب...؟ وما يفعله لا يهمنا.. نعلم فقط ما يعلمه الكل، بيع وتجارة في العطارة...

- كذبت يا أمي...! تعلمين ما يفعل...

- شو... اصمتي... لو علم أننا نعلم لقتلنا... اسكتي يا خرقاء... إنكار المعرفة بالأمر نجاة لنا....

يلج الدار والشرر يتطاير من عينيه ويردد وقد سمر نظراته الحادة:

- وماذا تعرف عني «زريعة» «الهبيل»؟

تضطرب الأم في الكلام، ثم ترتجل جواباً وتقول:

- تعرف أنك زير النساء، وتجوالك في القرى ليس من أجل العطارة بل من أجل الشهوة التي تسيطر عليك ... يا خائن...!

يبدو أن جوابها أراحه فهدأ وقال بصوت خفيض متهالكا من التعب وهو يتحسس حوض ظهره:

- هذا كلام فارغ... صدقيني يا حادة... ابنة «الأهبل» تريد الوقيعة بيننا.



الأهبل أو «الهبيل» على لغة أهل البلدة هو زوج حادة الأسبق، تزوجته قبل الجيلالي منذ عشرين عاماً، وأنجبت منه كلثوم، وجن الرجل دون سابق إنذار، بلا أعراض سابقة، فساح في البلدة ثم اختفى ذات يوم عن العيون. طلقته بالغيبة بعد سنتين، بعدما انقطعت أخباره، لتتزوج الجيلالي الذي كان يهيم بالمطلقات الوحيدات والنساء «المعلقات»، وهو ليس من البلدة، ولا أحد يعرف من أين هو.

ورغم ذلك لم تبغضه حادة، وظلت تتقرب إليه بكل ما يسعده ويبهج قلبه، كأن في شدته وقسوته شيئا ما يعجبها، وهي اليتيمة التي نشأت خادمة عند عائلة سي الغالي بالبلدة بعد هلاك أسرتها.

# ١٥

مضت ثلاثة أشهر على مقام سالم الزموري في البلدة الغريبة الأطوار والمصائر والأحوال، وطال زمن فقدانه للذاكرة، كما طالت حيرة الناس، وتعمقت أسئلة سي الغالي حول هوية هذا الغريب، الذي لا يعرف من خبره سوى أنه كثير التدوين والكتابة، و أتى هو في مهمة سرية، وابن جاه وشان، يوقر في كل مقام وحال، وهو الوافد من عاصمة السلطان، ولا ريب أنه أحد خدام القصر الأوفياء، وإلا ما وقره القائد وبجّله الشيخ، وما سأل عنه يوما النصارى، كأنه خفي أو يعلمون بشأنه، وهم أولى بكشف أسراره لو كان خصما لهم أو يشكل خطرا عليهم، صمتهم دليل أنه منهم أو قريب من حكمهم، أو من بطانتهم من الوجهاء والموظفين الكبار، ولمَ لا وهو الذي تأتي في شأنه الرسائل والبرقيات المخزنية، ويسهر القائد والشيخ نفسيهما على تمويل إقامته.

ظلت الأجواء باردة قاسية، ولم يسحب فصل الشتاء مودعاً زمنه معه ملاءاته الباردة، كعادته فتلطف الأجواء والنفوس والأهواء، لم يعتدل الجو رغم أن الفصل ربيع متعثر، ودأب سالم منذ أيام على الخروج ليلاً بعدما تسكن الأحياء وتسكن الحركة في الدروب والأشياء والأحياء، جائلا في التخوم والسهوب، متسلحاً





بوسائل التدوين يراعة لا تكل ولا يسهى، وورق متعطش للحبر لا يبلى، وحماس في الصدر لا يفنى.

ظلت «فاطنة الهجالة» ترحض ملابسه رحضاً، وتكوي ستراته وسراويله، بمكواة الفحم، وتغسل مواعينه وأوانيه على قلتها، وتكنس خمالة الدار، وترتب كل ما يحتاج الترتيب و«التشميس» ، تغويه بنفسها بحركات متهتكة وإظهار ما لا يظهر من المفاتن وهي تغسل الأرض غسلاً، ثم بغيرها من الجميلات الصغيرات من حين لآخر، حتى يئست من شهوة عدتها فيه معطلة، أو من فحولة أوشكت أن تشكك في جذوتها، ولم يكن لها من أسلوب لسبر أغوار الرجال وجمع الأخبار لسي الغالي غير كأس جامحة، أو فتاة خليعة، أو جارية يافعة، فعلى مذبح الأنوثة تذبح الحكمة قرباناً للشهوة، وبمعول اللذة والشبق تهد صروح التعالي والكبرياء، وتسبر الأغوار العميقة، ويمهد كل طريق وعر للبوح، وتعطل في لجة دغل الغواية أعنة العقول، وتشرع أبواب الاعتراف بلا عنان، بيد أن أسلوبها مع سالم لم يكن مجدياً، ولم يؤت أكله ولا نتاجه، فزاد من غموض الوضع، قلة كلامه وخروجه المضبوط كالساعة، وعدم تقلبه في المتع والملذات، حتى طعامه كان ما يكفي ليرد جوعاً، لم يكن نهما ولا عاهرا، لا سكيرا ولا عربيدا، فأين السبيل إلى أسراره ؟

ذات ليلة، عند منتصف الليل سمع طرقاً على باب بيته بقوة وشدة، كأن الطارق في مأزق يهرب من مصيبة فجيعة، أو مستغيثاً مستصرخاً، هارباً من قاطع طريق متربص، فانتفض فزعا حتى

قلبت حركة طائشة من يده الدواة، فاندلق الحبر وانسكب على المنضدة الصغيرة، وفي ردة فعل وفي محاولة منه لالتقاط الدواة، أسقطت يده الأخرى الفانوس أرضاً، فانطفأت شعلته، وعمّ الظلام والاضطراب، ولم يتوقف الطرق الشديد على الباب، أشعل الفانوس مرتبكاً وهرع نحو الباب ليفتحه، فمرقت فاطنة الهجالة إلى الداخل كالسهم الطائش بجلبة، حتى أسقطت إزارها ولم تعره اهتماماً، وهي تسحب بيدها فتاة، تضع على جسدها عباءة زرقاء، تغطي جزءاً من رأسها، وتستر نصف وجهها بنقاب مخلمي، وصرخت وهي تقبل يده، وهو يسحبها محرجا:

- أنا في «عارك» أسي سالم....! أنا في «حمى الله وحماك»

ثم طفقت تلطم فخذيها، وتنحط وهي تشق تلابيبها، والفتاة قربها صامتة مذهولة، يحاول تهدئة روعها، يدعوهما برفق للجلوس على فراش على الحصير وهو يردد:

- ماذا وقع؟ دعيني أفهم... من هذه الفتاة التي معك؟

- سي الغالي يريد الليلة زهرة، وإن لم أحضرها له سيقتلني ويقتلها.

- من زهرة؟

أشارت بيدها إلى الفتاة التي أحضرتها معها وما فتئت تنتحب وتنحط وتلطم صدرها:

- يريدها...؟! نعم...! يا خيبتي ويا حسرتي...! ماذا أفعل؟



- يريدها...! لأي أمر؟

- ألا تفهم لمْ؟ ماذا يريد منها «النفناف» غير جسدها الطري....؟

- وهل يعلم بوجودها؟

- أنا الغبية المتسرعة التي عرضتها عليه قبل ثلاثة أشهر، ظننته نسي والآن يريدها «للقصارة»، وهي ليست باغية ولا عاهرة ومازالت بكراً عذراء. ظننتها في بادئ الأمر جاءت تريد تعلم الحرفة، لكن الأمر خطير. هذه زهرة بنت أختي و«الحرامية» جاءت عندي وكذبت في البداية، ولا أعرف لماذا لم تخبرني بمن هي.

تمتد يدها إلى رأس الفتاة، تجرها من شعرها، وتضربها على ظهرها وتجرها أرضاً، حتى سقطت عن الفتاة ملحفتها ونقاب وجهها، فبدت ساحرة جميلة بمعالم وجه مليح، واسعة العينين، دقيقة الأنف، ممتلئة الشفتين ، كاد أن يفتتن بها، لولا حكمته وقوة شخصيته، انتبه إلى بكائها، ونحيبها من الألم، فأبعد عنها فاطنة الهجالة التي عادت تلطم فخذيها وتصرخ:

- ورطتني وورطت نفسها، ماذا أفعل؟ ادعت ما ادعت حتى طمعت في بيع عفتها.

- وأين أختك؟

- ماتت، فتزوج زوجها، لها ولد اسمه العياشي في الجيش،

لم يعلم بعد بموت أمه، «زهرة» هذه... طردها أبوها وجاءت إلى هنا من الجبل الأحمر.

- من أعطاها عنوانك؟

- أختي رحمها الله قبل أن تموت، قالت لها اذهبي عند خالتك ببلدة العقرب إذا وقع لك مكروه فهي أولى بك من الغريب.

جلس مطرق الجبين، لا يدري ما يفعل، وما يقدم وما يؤخر «فسي الغالي»، هو الحاكم الحقيقي بالمنطقة، إن خبأها عندها، منحه تأشيرة الدخول في حياته، وربما قتل فاطنة الهجالة، ما الحل؟ ما العمل...؟

يطرق ملياً، يفكر حتى غاب عما حوله، يشعل سيجارة، يغرق في التفكير وهو يذرع المكان ذهاباً وإياباً، يسود صمت موحش، ولا تملك «فاطنة الهجالة» من أمرها سوى الانتظار بخوف وقلق وترقب، وهي تتعقب خطوات سالم كأنها تعدها، بنظراتها القلقة، وخفقان قلبها الخائف، فجأة يتسمر في مكانه ويضرب بقبضة يده على راحة كفه ويصيح:

- نعم... ! لا يرد الظلم أحياناً إلا الخديعة، وسلاح الطمع بيع الوهم.

كمن وجد ضالته، ترتسم على شفتيه ابتسامة ساخرة، ويبرق في عينيه بريق أمل، وقد علت وجهه تعابير انشراح، بانفراج أساريره، يردف وهو يهز رأسه منتشياً بما خلص إليه تفكيره:





- لا تحزنا...! وجدت للفتاة حلاً... انتظراني هنا... سأعود...

تنتفض فاطنة الهجالة واقفة من مكانها، وتشد بتلابيبه وهي تتوسل منتحبة:

- «عافاك» لا تتركنا وحيدتين... !«عافاك»... «الله يخليك»...!

يتخلص من يديها بصعوبة وهو يسحب قدميه سحباً عسيراً، فانتابه الغضب وقال مستاء :

- سأعود يا فاطنة...! لا تخافا...! والله سأعود... دعيني أمر الآن...!

قبل أن يخرج، التفت إليها كأنه تذكر شيئا، وسألها:

- أين توجد الدار بالضبط....؟

- أي دار؟

- الدار المعلومة التي تقام بها الليالي الحمراوات والسهرات...

- أكنت تعلم؟

- أوه..! أهذا وقت الأسئلة؟

- تقصد دار «القصارة»...؟

- لا تتحامقي.. ! تكلمي.. !

- نعم أقصد دار «القصارة»....

علم منها بعجالة واختصار، خريطة الوصول إلى دار «الليالي الحمراوات» فرمى بنفسه إلى الخارج مستتراً بالظلام، وعيناه تكنسان الفضاء والشرفات والنوافذ حذر العيون المترصدة للأنفاس والأخبار، فما إن ولج زقاق «الخبازين» حتى رأى من بعيد سليمان منتصباً واقفاً على بوابة الدار الساهرة، وعرفها من وهجها وصخبها وصدح الأوتار في أرجائها، كانت على ناصية الزقاق، ذات واجهتين شكلتا زاوية، تطل إحداهما على زقاق «الخبازين» والأخرى على خلاء به بعض الكروم اليابسة الميتة، يحيط بالدار سور من الطين المضغوط، يعزلها عن حياة وصخب الزقاق، ويؤدي إلى داخلها باب خشبي، من بعيد ظهر سليمان هو يمرر يده على شعره المتموج، الذي لم يكن لا مجعداً كل التجعيد ولا مسترسلاً كل الاسترسال، وقد أعفاه حتى غطى رقبته، يفرك عينيه من رغبة جامحة في النوم، يقاومها بالمشي ذهاباً وإياباً، ومراقبة العابرين المارقين، والتأكد من سحناتهم وهوياتهم، انتظر سالم لحظة عند ناصية الزقاق، يرقب المكان ويؤمن العبور، ولكي يرتب أفكاره، أشعل سيجارة، فومض لهيبها وسط العتمة، كشفت وجوده، انتبه إلى ذلك سليمان، فانتفض يكنس الناصية بنظراته الحادة، ينتظر ظهور هذا الفضولي الليلي، ولم يبد له غير ظل كائن مجهول، يلفه ضباب تحالف مع سالم، فدب دبيباً سريعاً، يربك البصر والترصد، مد سليمان بصره فارتد منقلباً خاسئاً حسيراً، فلم يجد من وسيلة غير الصياح بشدة وقسوة بنبرة وعيد وتهديد:

- من هناك؟ اظهر....! معي سلاح ناري... أحذرك.



لم يرد عليه سالم، فزاد من اضطرابه وتوجسه، ظل يسحب دخان سيجارته بقوة، مدثراً بعباءة الضباب، حتى أربك سليمان الذي طفق يردد في خاطره «بسم الله الرحمن الرحيم... أعوذ بالله من الجن... أيكون هذا الشيء منهم...؟ لا الجن لا تدخن... ومن أدراني؟».

بدا سالم كالشبح وسط سحابة الدخان وعباءة العتمة والضباب، وهو يخطو نحو الدار حثيثاً، تأبط سليمان هراوة، وخاطره يردد «ما تنفع الهراوة مع العفاريت؟» وعاد يصيح وفي صوته نبرة قلق وتوجس:

- قلت من هناك....؟ من هناك....؟ لا تقترب أكثر... أحذرك... !

ثم تنفس الصعداء، وتهالك على كرسي من خوف جثم على صدره وإجهاد أنهك نفسيته وهو يقول:

- حرام عليك يا سيدي...! أخفتني يا سيدي...! ظننتك قاطع طريق أو أحد لصوص الليل العتاة... أو عفريتاً جباراً لا يخاف النار.

- أتعرفني...!؟

تردد سليمان في البداية بين الإيجاب والنفي، ودارت عيناه في رأسه ارتباكاً، ثم عاد لشعره يسويه بأصابعه، واضطرب في الرد حتى تلعثم وهو يقول:

- أنا... لا... نعم...

- ما لك!؟ أتعرفني أم لا!؟

كيف لا يعرفه، والبلدة صغيرها وكبيرها منشغلة البال بهذا الغريب الغامض!؟ كيف لا يعرفه وقد تعقبه أكثر من مرة مقتفياً أثره خلال خرجاته، بأمر من سي الغالي...كم من مرة بات ليلة حتى الفجر، قرب داره من أجل خبر يثلج به صدر سي الغالي....!

كالمذعور انتفض سليمان، وقد أيقن أنه كان مكشوفاً للغريب الذي لم يعد غامضاً فحسب بل هو ذكي وحريص، فانتابه الحرج وتردد في الجواب، متصنعاً التفرس فيه لتحديد ملامحه وقال مبتسماً:

- لا... عذراً... حاشا... أنا أعرفك يا ابن الجاه... !يا عالي الشأن... ! وهل مثلي لا يعرف أمثالك...!؟ فقط... لم يسبق لي أن رأيتك بالجلابة ...أنت سي سالم... ومن لا يعرف ولد «دار المخزن....؟».

- والآن ادخل على سيدك، وقل له إني هنا.

تفاجأ سليمان بطلب سالم، ولم يكن الشاب الغامض بالنسبة إليه من المدعوين ولا من الندماء المألوفين، حتى اضطرب وبدا عليه القلق، فقال مرتبكا، تكاد الكلمات تتعثر على شفتيه ولا تخرج من فيه إلا مقطعة بمشقة كمن به العي:

- أعفني من هذا الأمر، الله يرحم والديك يا سيدي سالم....!





- أتدخل أم أفعل بلا استئذان، أم أعود من حيث أتيت وتتحمل النتائج والمسؤولية....!؟

لا يبدد وساوس «سي الغالي» ومخاوفه إلا الخمر والحشيش، لهذا كان يكثر من السهرات الماجنة، ونوادي المسامرة الماجنة، حتى يتحرر من وساوسه وهواجسه، ويقبل على الدنيا غير حذر ولا مضطرب، فما إن تلعب الأقداح بالرأس، حتى يدوس على كل أزرار الحرص واليقظة، وتشعل كل الأضواء الجميلة في طريق نشوته، ويغدو سيان عنده الحياة والموت.

اتخذ بغطرسة وأبهة، مكانه على فرشة وثيرة، في وسط المجلس بباحة الدار المغطاة بالأشجار الوارفة، وأغصان العنب المتسلقة، متكئاً على وسائد مليئة بالصوف الفصيح الخفيف، وقد مدّ رجليه، تدلك قدميه فتاة غضة، من حين لآخر ينهرها، ويأمرها أن تنهض لتدلك كتفيه، ويعبث بجسدها بتهتك وفحش، وكانت له عادة سيئة تكرهها النساء فيه، فقد كان يصفعهن صفحات طائشة بلا سبب، حتى تحاشت الكثيرات منهن مجلسه خوفاً وألماً، ولا تأتي منهن إلا المرغمة قهراً من الزمان أو كرهاً منه وخوفاً، وقد لا يكتفي باللطم والصفع، فما من مومس ضاجعها إلا عنفها وضربها ضرباً مبرحاً على الفراش لحظة انتشائه.

يلطم الفتاة التي انهمكت في تدليك كتفيه على وجهها، دون سبب واضح، وقد ارتدت لباساً قفطاناً مخملياً و«تحتية» شفافة، وتخضبت يداها وقدماها بالحناء، فيخيم الخوف على وجهها،

ويمتعض بوشعيب «الزطاط»، أخ شيخ البلدة، وقد عكست عيناه غضباً مكتوماً مما أقدم عليه «سي الغالي»، بينما تعالت قهقهات الآخرين، وقال «العرقوس» وهو يضرب الأرض بقدميه راقصاً: «والله... لا يعرف تأديبكن إلا سي الغالي...» فينشرح صدر «سي الغالي» للإطراء، ويعلم أنه تملق مفضوح، ورياء صريح، و تزلف عار، لكن رغم ذلك تنفرج أساريره بحبور وسرور منتشيا بخدر ما يسمع، فيصيخ الجوارح لكل عبارة أو إشارة، ترفعه مجدا وسؤددا، ولو كانا وهما وسرابا، فيضحك بنشوة ومتعة، ويضحك الآخرون يكرهون حين يكره، فعفوه عندهم فضيلة، وانتقامه ضرورة، وشدته رجولة وفحولة، وتهتكه سلطنة وشهامة، وضربه النساء خبرة وحكمة، وسطوه على أملاك الغير شجاعة وجرأة، في مجلسه تقلب المعايير، وتمسخ القيم، فتصير الفضيلة رذيلة، والرذيلة فضيلة، فقط المرجع عندهم ما يرضيه ويفرحه، وهو يعلم منهم كل هذا، فليس هو بالغبي ولا الأحمق، ولكنه تحت قهر قوة نفسية جارفة، يستلذ منهم ذلك، فيبرم شاربيه باعتداد وزهو، ويمد البصر بعيدا رابتا على صدره وهو يهز رأسه، مباركا المادح الذي انتشى هو أيضا بجرعة من خدر آخر، فرضا سي الغالي يسكر أيضا المادح والخانع والدليل الخدوم، وسي الغالي يلعب لعبتهم بقوانينه.

منذ زمن بعيد لمس فيهم هذا التشوف الغريب إلى رضاه، وهذا التلذذ بالخنوع والطاعة المدلة، فتعلم تجربة كيف يشعل نار التنافس بين المداحين الذين يبغضون بعضهم البعض، وما لهم



من عطاء غير قرب منه، جاه يستمدونه من مجده وبأسه، وما لهم من أصل شريف يرفعهم، ولا علم وفير يميزهم، ولا كرامة ولي تجري بأخبارها الركبان، يكفيهم أنهم من بطانته، هي الجاه والقبة والأصل والجواز والمجد، يكفيهم أن يحسب الناس لهم

ألف حساب تجارة وبيعا وشراء رغم أن أكثرهم من الغوغاء والدهماء والجهلاء.

تنزوي الفتاة الملطومة قهراً في مكان بعيد عن الجمع، وهي تداري دموعها، وتكفكف عبراتها بضعف بين وخوف ظاهر، وتتحسس أثر اللطم على جانب وجهها، وليس لها من رجاء سوى أن تخرج هذه الليلة بأقل الخسائر، فلا يطلبها للفراش.

بدا على «سي الغالي» الخمول والانتشاء هو يداعب امرأة طلبها من بين الجموع، فهرعت متهتكة متثاقلة، بيد أن عينيها لم تستطيعا إخفاء نظرات الهلع والقلق، فكشفت عن جزء من صدرها وجلست عن يمينه، زاغ عقله وبصره، يحث مرافقيه على الرقص، فلا يتردد الرجال في هز البطون المرتخية، وحزم الخواصر بأحزمة الراقصات، ومن حين لآخر يختفون بعد الهمس في آذان النساء في غرف متفرقة، ثم يعودون بعد لحظات منتشين، مترقبين لازمة «سي الغالي» كلما قضى أحدهم وطره «سبع أم ضبع... لا أظنكم إلا ضباعاً...» محتسياً عبا كؤوس الخمر، متعقباً ببصره عجيزة الخارجة تواً من مجاسدة، وهي تسوي ملابسها، متجهة إلى بيت الراحة، فيستجيب لتعليقه الجمع ضحكاً وقهقهة،

وصخبا بعبارات الإشادة والمديح «سباع في غيابك... وضباع في حضرتك... يا كبير السباع...!».

قلة منهم فقط، لا يهمها جاه ولا قرب، بل عينها على الصرر، كالشيخ «الزطاط» الذي يجد طريقه إلى مال ونعم سي الغالي، ببضع كلمات زائفة تشعره الرجل، كأن يقول :» ما حاجتنا إلى سلطان ، وفينا هذا الأمير.. بل السلطان، فترتفع الأصوات مؤكدة الأمر مما يدخل على قلبه الغبطة والسرور، فيقسم كسلطان من زمن بائد أن يمنح المادح كبشاً أو بقرة، والأقل حظاً يحصل على دجاجة، ولأن «سي الغالي» رجل تعاقده كلمة تخرج من فيه، وسيد الرجال في العطاء والسخاء، والكلمة كلمة، فلا ينفض الجمع حتى يأخذ كل حقه.

لا يخلو المجلس الماجن من أمناء الحرف والمهن، حتى الشرقي بائع الخمور كان هناك، والعرقوس «طراح» الفرن وزوج «فاطنة الهجالة» السابق، حاضر رقصاً وإيقاعاً، فلا يستغنى عنه في أي ليلة، فالرجل لا يجد غضاضة أن يتحول ما شاء ورغب «سي الغالي»، يُرَقِّصونه فيرقص، يقول له سي الغالي «كن حماراً وانهق» فيفعل بفرح وخنوع، وقد تجعل مومس من متنه مطية وتسرجه بلبدة خروف وسط ضحك الجميع، يقولون له كن كلباً، فينبح وينبح... كن قرداً... كن... كن... أما «النفحة» فكان هنا فقط للخدمة، يخدم الجميع، ويسهر على إعداد الطعام، وفي ركن من رحبة الدار استوت فرقة من المغنيات الشعبيات تردد مواويل





«العيوط» والأهازيج الشعبية التي تفطر القلوب وتقلب المواجع، وتشعل الغرائز.

انتبه سي الغالي إلى الفتاة التي انزوت مذعورة بعيدة عنه، فنهرها بجلافة وأمر «النفحة» أن يجرها من شعرها كالكلبة إليه، فأخذت إليه أخذاً، فطفق يلطمها وهي تتوسل وتقبل القدمين، تنتاب بوشعيب «الزطاط» نوبة غضب مما يقع دون أن يجد في نفسه الجسارة لاستنكاره على الأقل، وقد كانت فطرته تأنف الظلم والجور، فيستقيم واقفاً، وبدون استئذان، يغادر الجمع وقد جاش صدره غضباً، وعينا أخيه الشيخ تشيعانه باستياء إلى أن اختفى.

أمام البوابة يصادف سالماً «بوشعيب» آخر «زطاط» وحماة القوافل التجارية في هذا الزمن، وقد كان قوي البنية، حاد النظرات، قليل الكلام، ويكرهه سي الغالي في أعماقه دون أن يبين، ويضمر له عقدا لا يشهره إلا بين خاصته الخاصة، ولا يدعوه إلى لياليه الحمراوات إلا لقوته وسمعته كقاهر لقطاع الطرق، يتوقف لحظة وهو يتفرس في سالم الذي واجه نظراته القاسية بأقسى منها، ويقول قبل أن يختفي عن الأنظار «حتى أنت أيها الغريب...!».

همس سليمان في أذن سي الغالي، فانتفض كالمصعوق، يركل الفتاة فيبعدها عنه، فتتخلص من جحيمه بأقل الضرر، يسقط القدح من يده وهو يحاول الوقوف، فيكبو من سمنته وثمالته واضطرابه، وأثر الحشيش في عقله، أسنده سليمان، يدلف إلى الباب وهو يتمايل ويتهالك ويترنح في مشيته من وهن وسكر،

حتى نسي أن ينتعل نعليه فخرج حافياً، جاحظ العينين كمن نعي تواً في عزيز قريب، أو أصابه ويل من فجيعة، و قال مرتبكاً وهو يسوي ملابسه:

- سي سالم مرحباً... «يا ما كاين باس»...؟

- ألا تسلم... أولاً...!؟

- السلام عليكم ....اعذرني... لم أتوقع مجيئك... هل من بأس؟

- وعلى السلام من اتبع الهدى، هناك كلام لا يقال إلا في السر، ربما حان الوقت لتعرف مهمتي... هل من مكان نتكلم فيه دون عيون ولا آذان؟

- موجود... ادخل...

يمر سالم على الجمع، الذين تعقبوه بعيون متوجسة، باستغراب وذهول وهو يلج، متعمداً عدم إلقاء التحية، ينظر بعيداً، كأنهم ليسوا هنا، مستفزاً فيهم الخوف والحيرة، يخطو بكبرياء وبثقة في النفس، رابط الجأش نحو حجرة معزولة في طرف الدار.

- أنا غير راض عنك، ولأنك طيب، فتقاريري إلى الجهات العليا لن أشير فيها إلى غضبي منك.

- ما الذي أغضبك مني؟ أنا في خدمتك، هل أمرت بشيء





وتقاعسنا؟ فأنت عميق وغامض كالبئر المهجورة، لا نعرف ما تهواه وتبغضه فكيف نرضيك!؟

يصدح المكان بموال شجي منبعث من حناجر ندية، يشرئب سي الغالي برأسه من باب الحجرة، بإشارة منه، تتوقف الفرقة عن الغناء، ثم يقول قلقا:

- ما الذي أغضبك؟

- تقيم الليالي الحمراوات والولائم و«الزرود» ولا أحضرها.

- والله...! لم أكن أعرف أنك «زهواني» وعلى مذهبي، لو علمت ما تركتك حبيس تلك الدار كل ليلة، وعلى حد علمي لا تهوى النساء وعشقك للكراس والقرطاس فقط.

- المهم حان الوقت لأكشف لك سر مهمتي، لكن الأمر سيظل سراً بيننا... من مصلحتك...

- المخزن... السلطة... في العاصمة تريد قائداً جديداً على بلدة العقرب والنواحي، وأنا جئت لأتحرى وأقترح الأنسب لهذا المنصب.

يسقط في يده، ويقول سي الغالي مضطربا:

- نعم... كنت أعرف أنك جئت لمهمة كبيرة، وفاطنة لا تقل شيئاً عنك سوى أنك تقضي النهار في الكتابة والليل أحياناً في التجوال... وسليمان يعود دائماً بخفي حنين...

- رجال الدولة ليس من السهل معرفة عاداتهم وطرق عيشهم خصوصاً إن كانوا في مهمات خاصة، حساسة جدا...

- أنا في خدمتك وخدمة الجهات العليا، كيف أجعلك ترضى عني؟ قل... لي... القيادة لا بد أن تكون في دارنا...

- هذا ما فكرت فيه، لكن مازال أمامي شهر لأرفع التقرير، وأنا في الحقيقة ميال إليك، فأنت ابن أصل وجاه، وعلاقتك بالنصارى جيدة.

- تعال...! نخرج ونستمتع!

يأمر الفرقة بالغناء، فتصدح النساء «بالعيوط»، يخدم بنفسه سالماً رغم أنه كان مَثِناً، تحرجه مثانته الضعيفة، فيعجز عن مَسْك بوله، أكثر من مرة، وعجب الكل من تصرفه، فتبادلوا النظرات بذهول واستغراب، وهمس بعضهم لبعض، وتناجوا بريبة مما يقع، لولا نظرات «سي الغالي» القاسية المتوعدة لما وئدت في المهد همهمات حدس خبثها، وما يجيش في صدور أصحابها، يأمر الفتاة أن تدنو من سالم، يلطمها ويقول لها:

- أسعدي الرجل....! متعيه....!

- دعها تذهب... !

- كما تشاء...

تحبو الفتاة القهقرى مذعورة، مضطربة العواطف بين قلق،





ارتعشت له شفتاها، وإعجاب بسالم ومضت له عيناها ببريق رجاء في الشاب الغامض، يهمس سالم في أذن سي الغالي:

- لا أريد أن أدوّن في تقاريري أنك تسيء معاملة النساء.

- لا...! أبداً...! فقط... أمازحها... تعالي يا رقية... ! تعالي يا ابنتي....!

أمام ذهول الجميع، يستلطفها ويجبر خاطرها، وينفحها بضع قطع نقدية، وهو يقول مبتسماً بحنو مصطنع لم يتناغم وطبعه ونظراته القاسية التي كذبت تكلفه :

- اسمعي... ! اشتري الطعام لإخوتك... والدواء للوالد... وإن احتجت شيئاً فداري مفتوحة ...

تملك رقية الاستغراب من فعله المفاجئ وعطفه الطارئ، دست النقود بين نهديها، وانسحبت غير مصدقة تغمرها مشاعر العجب وهي تنظر حواليها، مرتابة من أن يكون الأمر مجرد مزحة، وعاد الجمع للهمس والهمهمات والنجوى، فلجم ذلك سي الغالي صارخا غاضبا:

- لا حديث في مجلسي إلا ما يسمع ويفهم ويقال على الملأ... وإني أرى بينكم بهائم تظن نفسها صارت بشراً، تفكر و تفتي في ما لا يهمها...

يصمتون.. ويتلهون عنه بالنبيذ والغناء، ومن حين لآخر يسترقون السمع والنظرة الخاطفة، لالتقاط ما يطفئ نار فضولهم،

وجمرة حيرتهم، وقد تتقاطع النظرات ونظرة منه، فيغضون البصر سريعا، أو يحولونه إلى جهة أخرى.

يسكرون حتى الفجر، ويتهالكون على الملذات والمتع من طعام وشراب وخمر ونبيذ ونساء، عدا سي الغالي الذي امتنع الليلة عن متع الجسد، ولجم لسانه، وقمع رغبته الشاذة في ضرب النساء، مكتفياً بالخمر والإنصات للوتر والعود والنقر على الدفوف، والاستجابة للمثانة اللحوحة، يشعر سالم بالتعب والخمول، يتثاءب ويتمطط، تركبه غفوة، يستفيق منها على رقص شديد للعرقوس بالضرب بالقدمين على الأرض، يعتذر لسي الغالي ويهم بالانصراف، يهمس في أذنه وهو على العتبة:

- بالمناسبة، يا سي الغالي.. هناك فتاة، عند فاطنة «الهجالة»، أظن اسمها زهرة...

- لم أسمع بها... لكن هل تريدها...؟

- شرط أن تكون سليمة بدنياً بلا أمراض، فالزهري قد انتشر وفشا في البلاد.

- الله.. الله... أنت من حزبنا ونحن لا ندري، هي لك... هل من طلب آخر...؟

- لا حالياً... لا... مع السلامة.

ينعطف سالم إلى داره في زقاق «المهابيل» وقد شعر بخدر دافئ جميل، يدب في عروقه من نشوتين، نشوة إنقاذ العذراء





زهرة، ونشوة الأقداح التي احتساها، يفتح الباب، مازالت فاطنة الهجالة صاحية، وقد أسندت رأسها منحنية بكفها على ذقنها، وعلى فخذها غفت زهرة.

- انهضا....! انهضا....! بسرعة... إن طلب منك سي الغالي شيئاً... افعلي ولا تسألي... أسمعت يا فاطنة....؟

تنتفض فاطنة مذعورة على صوت سالم، توقظ الفتاة برجة قوية، وتحثها على الإسراع، ثم تخرجان وتختفيان في عتمة الضباب الذي طفق ضوء الفجر يبدده، عائدتين بحذر وتوجس من العيون إلى البيت.

بعد حين، يطرق باب دار فاطنة الهجالة طرقاً شديداً مزعجاً، تدلف نحو الباب متهالكة من كسل مصطنع، متظاهرة بخمول وتثاؤب من أثر النوم:

- من...؟ أنا قادمة... على مهلك...! من يدق بابنا في هذا الوقت....؟

يدخل «سي الغالي» دون استئذان كريح عاصفة يتطاير الغيظ شرارة من نظراته وزحيره، يجرّ تلابيبه، يتبعه سليمان بصمت وعبوس بلا سبب دون هرولة، تسقط فاطنة أرضاً من هول المشهد، ترفع نظرها إليه محملقة والخوف يهزها هزا، يشدها بقسوة من شعرها حتى أوشك أن يلوي عنقها، تخونه ساقاه، يكاد يسقط أرضاً من ثمالة أفقدته توازنه، فبدا مترنحاً يسنده

سليمان، زائغ البصر والوعي، يقول مزمجراً وقد غلبه فواق متكرر عذبه أشد عذاب:

- سالم يريد الفتاة التي في دارك، خديها إليه متى شاء....! إياك أن تقولي له إنني كنت أنوي مضاجعتها....! أسمعت يا كلبة.... !؟

- نعم...! سيدي الغالي.. سمعت... سمعت.. والله وعيت وفهمت... حاضر...

ما إن يغادر دارها وهو يزحر زحيراً شديداً مغتاظاً، حتى تنفرج أساير فاطنة، وتنتاب زهرة نشوة حبور جامح، فتقفز فرحاً، وتراقص خالتها التي كادت أن تزغرد لولا خوفها من أن يسمعها سي الغالي، أو تلتقط زغرودتها آذان متطوعة لجمع الأخبار، فاكتفت برفع كفيها إلى السماء متضرعة وهي تقول منتحبة وقد غلبها الدمع رقراقاً:

- كما سترتنا يا سي سالمن سترك الله في الدنيا والآخرة.

ودون أن تكف عن الرقص فرحاً، ترد عليها زهرة وقد برق الأمل بريقا جميلا في العينين البريئتين :

- آمين... يا رب...! آمين... يا خالتي...!

ترتمي في حضن خالتها التي ذهلت حين شعرت بأمومة مفقودة، وبمشاعر لم تعهدها قبل، طافحة بالرقة والضعف الجميل، الفتاة نفسها أجهشت بالبكاء حتى تقطعت أنفاسها بين



ذراعيها، وإجهاش فاطنة نفسها غلبها غلبا لا يقاوم، فسال الدمع الحارق يبرد ناراً مضطرمة في الصدر الجريح، وطفقت تمسح دموع الفتاة وهي نفسها تنتحب، وقد شق كبدها الألم من ندم مباغت، وحسرة تستدعي الخيبات والانكسارات، والبدايات في هذا الطريق الذي أنساها من هي منذ ثلاثين سنة، بين النحيب والبكاء المر، همست:

- صرت الآن ابنتي... من أجلك سأتوب... والله سأتوب...

- الليلة يا خالتي ... سأبكي أمي... وأيامي السوداء... الليلة عزاء أمي الذي لم أعرف كيف أعيشه وسط الظلم والقهر...

رق القلب الذي قسا من سوء الظروف، وخبرت فاطنة الهجالة عاطفة جياشة افتقدتها في حمأة الحياة، فشعرت بدفء الفتاة في الحضن، وبدبيب الرحمة يسري في عروق الروح، وتملكها شعور قاهر بالذنب، فسال الدمع الساخن الذي افتقدته منذ زمن، وهبت نسائم الرجاء على الروح، توقظها من ثمالة الغفلة، تكنس ما ترسب في الصدر من قسوة من شظف العيش، ومن عار غدا مألوفاً في السمع والبصر من قسوة الأيام، فضمت الفتاة ضماً بلواعج أم معطلة الخصوبة، فأحيي الضم الجامح بالشفقة في الجنان ما ظنته لا يعود، من عطف أنوثة، ورقة أمومة معطلة، وبهاء امرأة لا تشيخ فيها الرقة والحَدَب، تستلقيان أرضاً، تتدحرجان بعفوية غريبة، تنخرطان في نوبة ضحك مجنون، وفاطنة تقول وهي تقبل الفتاة:

- يا رب...! أعف عني...! يا رب...! يا رب...! يا رب...!

ارتفع صوت أذان الفجر، وغادرت الطيور أوكارها مزقزقة على الشرفات والنوافذ، غفت زهرة على صدر خالتها كرضيع مطمئن آمن، وصحا من جديد قلب المرأة التي كان رأسمالها من شهوة ومجون، وأضاء ضوء الفجر اللحوح الزمان والمكان والقلوب التائهة في ديجور الوجود، وجاء النور ملبياً حاجة اللحظة، ففتحت فاطنة نافذة على الزقاق، واستنشقت هواء الصباح، ولأول مرة منذ زمن تشعر بجمال وبهاء الشروق، وتشرع صدرها للنسائم، ولأول مرة ترى تلك الشجرة أمام دارها بعين أخرى، فتراها صامدة، بهية الأغصان والظلال، ولأول مرة ترهف السمع لزقزقة الطيور، وهديل الحمام، لأول مرة تنام على حلم، في قلبها سكينة ورجاء.





## ١٦

غاب الجيلالي مدة طويلة، حتى يئست «حادة» من عودته وانتابتها الشكوك حول غيبته، فلم يسبق له أن غاب في رحلته أكثر من أسبوع حد انقطاع أخباره، لكنه منذ تلقى تهديد كلثوم بالرفش، تغير شيء في داخله، وبعدما لزم غرفته وخمرته أربعة أيام، وسمع بكاؤه من حين لآخر، خرج في الغبش دون أن يوقظهما.

مضت أسابيع طويلة، فقد غاب ما يقارب شهراً، ظنت «حادة» أن زوجها «الكلب» غير الفراش والمرأة، واستلذ سريراً آخر، وتمنت كلثوم موته في مفازة على يد قطاع الطرق، أو أن ينهشه حيوان ضار فلا يترك منه إلا العظام، إلى أن عاد ذات مساء ، بدا متعباً مرهقاً، لم يعر الكلب انتباهاً كعادته، وتجاهل نطه ونباحه، ترك العربة في الخارج، وأخذ معه فقط قنينة نبيذ، ولج مباشرة مضجعه وهو يئن من ألم في صدره، وتنتابه نوبة سعال حادة بين حين وآخر، لحقت به زوجته «حادة» وهي تلطم صدرها وتصرخ:

- ما بك... يا رجل... !؟ خرجت كالبغل قوياً وعدت كالكلب الضامر الأجرب!؟

- لا شيء... يا حادة....! أشعر فقط بالتعب وصدري يؤلمني، وركبتاي ترتجفان.

- مِن هذا السم الذي لا تفارقه وتشربه شرب الماء...

- لا يا «حادة»...! والله...! أشعر فقط بالبرد... غطيني... غطين !

- أين غبت كل هذه الأيام؟

- لقد مرضت مرضاً شديداً بأرض «شرقاوة» فمرضوني أهلها واعتنوا بي ومكثت عندهم حتى قدرت على النهوض والعودة.

تدثره، تهيئ له طبق بيض مقلي بزيت الزيتون والتوم، ثم تستقيم واقفة لتخرج وهي تتأوه قائلة:

- سأذهب لأساعد كلثوم ...

- لا...! أعفاك الله... ابقي معي...!

نزعت كلثوم عن الحمار العجوز اللجام، بعدما حررته من العربة المرهقة أعمدتها الحديدية أكثر من حمولتها المتواضعة، دفعته برفق وهي تهشه بيد نحيلة سمراء ليلج زريبة ضيقة وسط بقايا القش والطوب المتفرق هنا وهناك، نهيق متعب أفزع بضع دجاجات اتخذت من ركام أكياس الشعير مستقراً لها للمبيت، فقفزت بصخب وتناثر ريشها في الهواء.



ربطته بعقال مثبت بوتد بالأرض ثم وضعت أمامه علفاً في صحن مصنوع من قاع برميل حديدي وأضافت إلى العلف المكون من عشب المراعي حفنتي شعير وطفقت تنزل الأكياس من العربة ورائحة العطارة تنبعث منها، تملكتها رغبة متعثرة وجامحة في العطس، تجاهد نفسها أن تعطس بلا ضجيج، لكنها تعطس بقوة، فيتناثر مخاط أنفها على نحرها، تمسحه بالكم الأيمن لقميصها، تعرج على البوابة الخشبية المتهالكة الكبيرة للبيت، لتتأكد من إحكام إغلاقها بمزلاج خشبي، الصوت الخشن للجيلالي ما زال يتردد صداه في أعماقها، وهي تستحضره غالبا في هذه اللحظة من الليل، وهو يحذرها بإلحاح كل ليلة قبل أن يأوي إلى فراشه «غَلَّقي الباب جيداً... بيتنا معزول عن الناس، ولصوص الليل لا ندري متى يحضرون».

استخرجت من البضاعة مرآة صغيرة من السلع التي يطوف بها القرى والدواوير، نزعت منديل رأسها وحدقت طويلاً في شعرها الأشقر المبعثر، تسويه بمشط رقيق ومتدرج أسنانه، صنع من قرون الأكباش، تشعر أن جسدها أصبح لحوحاً، ومتمرداً يطلب الانعتاق، وقد أزهر نهدين ممتلئين في ربيعها السادس عشر، تمرر يدها على صدرها، تتلمس حلمتي النهدين المتوترين تشعر بلذة عابرة تستحضر صورة عمر ولد سي الغالي، وتستحضر ليلة حاصرها بجسده الضخم في زاوية بزقاق «الخبازين» وهي عائدة من «سخرة» لأمها، تستحضر الجسد الذي التصق بها التصاقاً قوياً وكاد أن يقطع أنفاسها، يخدرها عبق العرق الذي أنعشته

رغبة جامحة، تشعر بلذة قوية وهي تسترجع رائحة التراب في أنفاسه، وقد اختلطت بروائح أخرى، مازالت تشعر بأثر كفيه على نهديها وبين فخذيها، ولهيب شفتيه الذي أشعل ناراً على شفتيها لأول مرة، ناراً لن تخبو أبداً، ابن الغالي عود كبريت أشعل فتيل أنوثتها فجأة واختفى، رغم أنها تخلصت منه بصعوبة مهددة بالصراخ والفضيحة، بيد أنها ليلتها اكتشفت وجوداً بهياً آخر اسمه «الرجل»، اكتشفت أن ذاك الرجل الخشن منبع جمال ومتعة لم تعهدهما من قبل، اكتشفت دهشة الجسد ومفاتنه المغرية، ووظائفه الخفية المعطلة والمقموعة، كشفت عن وجود مواز آخر بهي مؤجل، مختلف عن وجودها الرتيب اليومي الموزع بين أشغال الزريبة ومساعدة أمها في «المنسج»، اكتشفت يكف يمكن للقوة والضعف في آن واحد أن يتجاورا، بل أن يتحدا في زمن نزوة، جسدها نقطة قوة، رصاصة ترسلها فتغتال بها أساطير الرجال والحكماء، جسدها نقطة ضعف، قد يخذلها، ويصير عارا وعبئا عليها.

تحضرها صورة عمر قاهرة بقوة في خاطرها، قامعة للحكمة، فتمنح المرآة ابتسامة، تحاول طرده من الخيال ومن الجسد والعقل، لكن هيهات في هذه الليلة تمرد العقل، وأبق الجسد، فأخرج رغباته الأسيرة في الكتمان والحذر، أصابعها تتمرد عليها أيضاً، فتمتد إلى حدائقها الخفية تداعب زهرتها الوحيدة تستعير أصابع عمر، تقدم نفسها شهية طيعة لخياله، لصورة منه وتغيب عن الوجود، تداعب مكامن النار والوهج، تقمع صوتاً قادما من





أدغال جسدها المتعطش للانعتاق خوفاً من أن تثير انتباه الجيلالي وأمها، تتملكها رغبة في بكاء غريب وهي تنزع لذة من خيال مربك، تشعر برغبة جارفة في الصراخ، تخنقها بالعض على شفتيها، يتمايل الجسد الغض مع الخيال ويتحرك صعوداً ونزولاً، تهتز اهتزازاً كقصبة في مهب الريح، ثم يرتخي الجسد، وتعود الأنفاس إلى طبيعتها، ودقات القلب إلى إيقاعها العادي، حينها ينسحب عمر من خيالها، ويعود من حيث أتى في انتظار توهج جديد، انهيار آخر.

أوت إلى فراشها وأرهفت السمع وهي تلتقط نباح كلاب أرهقها قر ليلي نافذ للأبدان رغم أن الفصل على عتبة الصيف، شعرت ببرد قارس يسري في مفاصلها، مدت ركبتيها إلى صدرها، ظلام الغرفة لا يبدده غير ضوء قنديل مازال مضيئاً في غرفة مجاورة، حيث تضجع أمها وزوجها .

سعال الجيلالي المتقطع يختلط وصرير باب غرفة متهالكة لم يغلق بأحكام، الريح الباردة المتقطعة، تتراقص لها أغصان الأشجار ويمسخ الضوء الواهن صورها فتغدو ظلالاً مخيفة تتمايل كوحوش كاسرة، تشتد الرياح في زفيرها، من زفزفة إلى عجيج، صوت الجيلالي يعلو ويعلو في الأرجاء، جلفا لكنه أقل بذاءة منذ أشهرت في وجهه الرفش منذ شهرين:

- كلثوم....! كلثوم! يا مقصوفة الرقبة....! أغلقي الأبواب والنوافذ...

لم تكن كلثوم كما يناديها «قصفة» خاملة كسولة بلا عزم ولا همة، بل كانت فتاة بلغت تواً السادسة عشر عاماً، نحيفة البنية دون هزال، فالطعام متوفر متوافر والجيلالي رغم جلفه وسوء طبعه وعفنه، لم يكن يحرم نفسه ولا أسرته المتكونة من حادة وكلثوم من الطعام والشراب، جمالها الأخاذ، جعلها عرضة للتحرش الدائم، فخصرها أهيف، نحتته الطبيعة بلا حمية ولا جهد، شعرها المشدود دائما بمنديل بعقدة على مقدمة رأسها، أشقر ناعم، تفوح منه رائحة الخليط الشعبي الذي تعده أمها من قرنفل وورد جاف وحناء، على صدرها ثديان منتصبان لم ينهدا بعد، ولم يحتاجا إلى عقال يلجم اهتزازهما المغري، فظلا متحررين مشدودين إلى الصدر غير مرتخيين، الملابس التي تظل بها طول اليوم، هي نفسها منامتها، فساتين بسيطة من أثواب رخيصة لكن مزركشة الألوان ومتناسقة الأشكال، تتنوع بين الخفيفة والثقيلة حسب الفصول، وسروال نسائي مهلهل، وصنادل وأحذية من بلاستيك، وحين تكون المناسبة خاصة على قلتها كزيارة مودة أو عرس خارج البلدة، ترتدي القفطان و«الشربيل»، وعند السفر لا تنتعل غير حذائها البني المستوي النعل، الذي تسهر على الاعتناء به ودسه بين ملابسها.

يدوي صوت الجيلالي من جديد عالياً، تخنقه غصة من سعال توشك أن تقطع أنفاسه، فيلح عليه البصاق، مصدراً حشرجة وهو يجاهد في التخلص من نخامة عالقة، عنيدة، تتجاهله كلثوم وفي خاطرها ساخرة تردد «دعني وشأني أيها الشيطان الخنز...»،



تسحب الغطاء عن جسدها وتنتصب واقفة متأففة، تهرع إلى باحة الدار وقد كانت ساحة مترية لبيت متهالك، طاله حريق في زمن ما، وكثرت أطلاله ومظاهر الخراب، وراء سياج من حجر متراص بفوضى، تم الاستعانة بنبات الصبار الشوكي لتحصينه أكثر، توزعت فيه غرفتان متجاورتان متلاصقتان من طوب ومسقوفتان بالجريد وأجذاع الأشجار، وعيدان الخيزران وعلى جانب باب الدار الشمالي، زريبة بها بقرة والحمار العجوز، وتبيت فيه أيضاً الطيور الداجنة من دجاج وبط وديك رومي، ووسط الدار «مطفية» وهي حفرة عميقة تملأ بمياه الأمطار ولها فتحة تغلق بباب من حديد، ومجاري ممهدة لوصول المياه إليها ساعة الهطول، وحين ينحسر الماء فيها وتصير نتنة وعفنة المياه، تنزل إليها كلثوم فتغرف المياه المترسبة وتكنس التراب والطمي والغرين.

كان الجيلالي قبل أن تهدده كلثوم بالرفش دائم التهديد لها سباً فاحشاً وشتيمة رعناء بألفاظ بذيئة، واشتهر بفحش اللسان، وسفاهة السباب حين يغضب، وجلافة المقال، وفظاظة الطباع، ولم تكن تلك لغته معها فحسب، بل حتى في الأسواق، وخلال معاملاته التجارية إذا توتر أو تملكه الغضب جارف، أو حنق جامح، لهذا لقبوه «بالخنز» للخَنَز والنتانة اللذين يتفوه بهما بلا حشمة ولا خجل من كلمات فاحشة تخدش الحياء، ولا تعير اهتماماً للصبايا ولا للنساء، ولا للشيوخ ولا للأجلاء، وينفض من حوله الجمع إذا نطق بها، ولا يلتئم في بيعه وتجارته الأب وابنه

وابنته، حتى منع الرجال بناتهم وزوجاتهم من البيع والشراء معه، لهذا صار يتاجر أكثر مع الأغراب في البلدات والقرى البعيدة، والأسواق الأسبوعية، ولا يشتري منه من أهل البلدة إلا مضطر أو مكره، وغالباً يتكلف الصبية من الذكور بذلك أو الرجال حين تضطرهم الظروف إلى التعامل بالآجال ديناً أو التبضع مقايضة، إلا فاطنة «الهجالة»، التي كان يعدها «السهلة المنال كالأرض المنخفضة»، والتي كانت تهجل بعينيها له لتثير شهوته، مما كان يفرحه ويملؤه انتشاء غريبا، فلا يقسو عليها في السعر، وقد يمنحها سلعة مجاناً وإن لم يظفر منها بمتعة حقيقية، غير لذة في خيال من مجون في لسان وتهتك في الإشارات والحركات، وحدها كانت تتجرأ وتجاريه بذاءة وسفاهة، وتتاجر معه، فلم تكن تقل عنه وقاحة ولا سفاهة، تحشو بكلمات بذاءتها حتى الأفواه اللامزة الهامزة.

تشتد الرياح في زفيرها، من زفزفة إلى عجيج، صوت الجيلالي يعلو في الأرجاء من جديد:

- كلثوم....! كلثوم....! تعالي يا ابنتي!

مناداته لها بابنتي بضعف وعطف، حرّكت في دواخلها عاطفة مودة كانت قد وأدتها منذ الصبا من جراء ضربه وتعنيفه لأمها، فرأفت ولان قلبها للرجل الذي رباها واحتضنها رضيعة، بيد أنها تذكرت قسوته وسبه لها وشتائمه، عاد يلح عليه السعال، فسعل سعالاً حاداً وهو يناديها:





- - كلثوم....! يا ابنتي....! تعالي....!

وهي تسمع نداءه بصوت جريح متعب، أوشك القلب أن يلين فتتبدد الأحقاد، وأوشك العقل أن يجد في رقة القلب ما يعطل التوجس والخوف، فمالت بفكرها تلتمس له الأعذار وناجت نفسها في دواخلها مشفقة «لم تكن تلك لغته معي فقط، بل حتى في الأسواق، وفي معاملاته التجارية إذا توتر، فهو هكذا، ولكنه طيب، والليلة يناديها بابنتي».

لبت طلبه مرة ثانية، وهذه المرة غير مضطرة ولا مكرهة، بل مشفقة راغبة، فسخنت له ملعقتي زيت زيتون، سقته وهو يحملق فيها مبتسماً، فعجبت للوجه الذي بش فجأة، وغدا طلقاً مشرقاً مهللاً، فاختفت القسوة من الملامح، وتوارى الوجوم وراء نظرات مشرقة، لكن ضائعة في فزع لم تعرف مصدره، وهو الذي لا يهلع ولا يجبن في أي موقف مهما اشتد، سقته علّه يحاصر سعاله الذي أوجع ضلعيه وصدره من شدة الانقباض والاهتزاز، بينما «حادة» تغط في نوم عميق، ثم انصرفت وقد هالها ضعفه، وأربكها تغيره.

عادت إلى غرفتها، التي بها كوة ضيقة تهيم بهوائها ونسائمها، فهي متنفسها الليلي على الخارج، ومجرى نسائم الليل والصبح نحو صدرها، وإن كانت تطل على المقبرة المهجورة، فلم يكن الأمر يشكل عندها فارقاً، فقد نشأت وترعرعت وشبت تعدو وتلهو بين أنقاض قبور قديمة مهجورة، حتى غدت في طفولتها حجارة وصخور أنقاض القبور واللحود، أجزاء ومكونات لحياة

صاخبة تتخيلها، فتشيد منها البيت المأمول، وتؤثث لها مطبخاً من خيال، وتجعل من الحصى والحجارة الصغيرة كائنات ناطقة، تملأ الفضاءات المتخيلة حياة وصراعاً وفرحاً، وتمضي النهار جله طفلة تلهو بدمى من قصب وخرق تحت القبة، على مقربة من لحد دفين مجهول. قد ألفت العويل والهرير، وهدهدة الريح على الأرض المرملة وهي تهز الحشائش، واعتادت فيما ألف قلبها وعقلها قصيف الرعود في الليالي المظلمة، فلا يخيفها لا نعيب الغربان في الخرب والأطلال، ولا نعيق بومة جاثمة بصمت وسط الظلمة على جدار خرب، متربصة بالجُرْذَانِ وَالفِئْرَانِ، ولا فحيح الحيات والأفاعي، فلا مجال في حياتها للشُّؤْمِ والتطير، كانت الوحشة والغرابة والغموض أبعاداً عادية من طفولتها، حتى غدا الغموض عالمها البهي وكونها الهادئ، لا يشعرها شيء بالأمان غيرهما، لكن هذه الليلة الكلب نبح نباحاً شديداً، وهر هريراً قوياً، لا يقطعه غير صفق أوراق الأشجار من زفيف الريح، وقباع الخنازير علا قوياً في الزريبة على غير العادة، فأثارها الفضول، لا الخوف ولا الوجل، أشعلت قنديلاً، وخطت نحو الخارج بخطى حثيثة تكاد قدماها لا تلامسان الأرض غير مثيرة لأدنى صوت.

صعدت على بضع حجرات، واشرأبت بعنقها تطل من وراء السور، يكاد الكلب يقطع قيده وهو ينط ويقفز بشدة وإلحاح، رفعت القنديل أعلى ثم أعلى مد البصر، لترى ما سبب نباح الكلب الشديد، أهو كلب آخر شريد استفز الكلب المقيم، أم ذئب عابر أشعل فتيل العداوة الفطرية في صدر الكلب الأليف،



أم ثعلب شارد، خرجت تستطلع الأمر أولاً في زريبة الخنازير، فوجدتها مغلقة بإحكام، وعادت تفك قيد الكلب الذي انطلق راكضاً مزمجراً جهة شجرة السرو التي تغطي القبة بأغصانها العالية، ثم توقف لحظة وطفق يهر هريراً شديداً، ظهر لها ظل شخص يهش على الكلب بعصا ويردد بخوف عكسته نبرة صوته «ابتعد... ابتعد...» فتراجعت القهقرى، وتناولت من الأرض حجراً ثقيلا وهي ترددد «من أنت...؟ من....؟».

- أنا سالم... شديه... اربطيه «الله يخليك».... قبل ألا تجدي فيَّ لساناً يجيب عن أسئلتك....!

- من سالم؟

- سالم الذي يسكن في دار «ولد الغرار».

- آه....! سالم ... الغريب.... !

- نعم...!

- وما الذي أتى بك إلى هنا ليلاً؟

- شدي الكلب اللعين، ثم نتحدث.... فقد مزق سروالي.... ويكاد ينهش ساقي.

بإشارة بيدها، هشت عليه بطرف غصن، فهدأ الكلب وربض مصدراً وقوقة حادة، ثم دنت من سالم وهي تتفرس في وجهه التي امتقع وشحب، فسلطت عليه ضوء القنديل، وتفرست فيه

طويلاً وهو يحملق فيها في ذهول كمن ضبط متلبساً بفعل منكر نكير، علت وجهها تعابير الاستغراب، وقالت متعجبة:

- ماذا يثير فضولك في المقبرة المهجورة....!؟

لم يجرؤ أن يقول لها الحقيقة، وهي أنه جاء يتجسس ويتحسس على الجيلالي، هذا السفاح، الذي يتكفل بإعدام من صدر في حقهم حكم الإعدام في «أولاد تايمة» وربما في مناطق أخرى، لينفذه فيهم بلا رحمة ولا شفقة، فلجم اضطرابه وشد عنان قلقه وقال رابط الجأش:

- جئت أتعرف على هذا الضريح المهمل.... فأنا أقوم ببحث شامل عن البلدة.

تعلق كلثوم الفانوس على غصن يابس، وتجلس على مصطبة ناتئة على جدار الضريح، وتجره ليجلس ثم تقول وهي تكنس الفضاء بنظرات سريعة:

- أعيش هنا منذ الطفولة... وأمي ولدت هنا... ولا أحد يعرف سر هذا الدفين هنا....

- لهذا أنا هنا.

- لمَ اخترت البحث في جنح الظلام.!؟

- كي لا أثير الفضول.

- ظننتك من الذين يبحثون عن «الدفائن»... أقصد الكنوز





المدفونة في الأضرحة وقبب الأولياء... لعلمك... سبق أن حل فقهاء وسحرة هنا وحفروا ولم يجدوا شيئاً.

- لا... لستم منهم... فقط أنا هنا لجمع الأخبار عن الضريح.

- لن تجد الجواب إلا عند سي عبد الباقي... أتعرفه....؟

- نعم... الشيخ الجليل الذي يقيم في ساحة رباط «المزاوگين»...

- نعم... الشيخ الذي قتل ابنه واغتصبت أملاكه... فجن...

- كيف...؟

- ألا تعرف!؟

- أعرف أنه فقط يقيم في ساحة رباط «المزاوگين»، بعدما مات ابنه غيلة.

تبتسم ساخرة باستغراب:

- ويقولون إنك من الرباط...

- فما الغرابة في ذلك...؟

- يقولون إنك من دار المخزن... إن لم تعرف أنت من يعرف...!؟ المهم... أمرك غريب

- أين وجه الغرابة....؟

- – الكل يريد أن يعرف من أنت بكل الوسائل، وفشلوا...

- – ما الغريب في الأمر؟

- – لست غامضاً إلى هذا الحد، أنت تجيد التمثيل فقط، والأغبياء يظنون أنك كما أنت... كما تبدو...

صدم، فاضطرب حتى ارتعشت شفتاه فقال وقد ربط جأشه:

- ممثل...! لا أفهم...

- أنت تخفي الكثير ولا تظهر إلا القليل...

- هذا كلام العرافات و«الشوافات» ورجم بالغيب

- – لا تحسبن كل الناس أغبياء، ما علمني الجيلالي ويشكر عليه أن أميز مشاعر الناس من نظراتهم وخطواتهم، وصدقهم من خطواتهم وألفاظهم، فربما كنت تظن أني غير متعلمة، لا أفهم شيئاً، أقول لك ما أتى بك هنا أكبر من ضريح وقبة، نظراتك تقول عكس ما تتلفظ به، ربما جئت تعد تقريراً عن جرائم غامضة... وفي دائرة شكك الشيطان...

- لا أنا هنا فقط لإجراء بحث عن البلدة....

- لا...! قل هذا الكلام لأهل البلدة، ودعهم في غيبوبتهم، أما معي فأنا لا أبلعه بالسهولة، فمرة ثانية تفضحك عيناك، على كل حال إن أخذت الجيلالي إلى منصة الإعدام سأكون ممتنة لك وشاكرة بشرط أن يكون سفاحاً حقيقياً دون شك ولا ريب.



- لست شرطياً ولا دركياً حتى أقوم بهذا العمل.

- كن ما شئت، الغد القريب سنعرف كلنا من أنت...

- هل تشكين في قتله ولد سيدي عبد الباقي؟

- قلت لك إنك فضولي أكثر من اللازم، وتدعي أنك لم تأت إلى هنا إلا لمعرفة أخبار الجيلالي... لا بد أنك من البوليس السري، أو أي إدارة تحقق في الجرائم...

- لا... أنا فقط... أنا....

تقاطعه وهي تضع أصابعها على فمه:

- لا يهم من أنت... فعلاً أنا سعيدة بالتحدث إليك... مضى زمن كثير لم أحدث غريباً... وهؤلاء في هذه البلدة.... هؤلاء الخرقى المجانين، ضائعون في الجبن من أخمص أقدامهم حتى قمة رؤوسهم، ويحكمهم عربيد ماجن « سي الغالي»، وما هو إلا كلب مسحور، وخادم للفرنسيين مسخر، يخاف من ظله، لم يجد بعد رجلاً يوقفه عند حده... لكن من يدري قد تكون أنت....؟

- كيف؟ لا... لست إلا رجلاً غريباً من العاصمة جئت في خدمة رسمية... لا غير...

- مغربي أنت ولا لا....؟

- طبعاً...؟ هل أبدو لك «برطقيزي».

- ألا تشعر بالعار والهوان وهؤلاء الفرنسيون يملكون أخصب الأراضي والضياع ونخدمهم نحن بالسخرة؟

- هذا كلام كبير ... ليس وقته... ألا تخافين أن أكون شرطياً سرياً كما قلت؟

- ولتكن...! لن تكون جريرتي إلا شرفاً يبتغيه الكثيرون ولا يستطيعون...

- قصدت أن المقام لا يصلح لهذا المقال...

- بل هو وقته وزمنه، وقد تأخرنا كثيراً، لو كنا أحراراً في بلدنا، ويحكمنا قانون، ما عاث سي الغالي في البلدة فساداً دون رادع ولا زاجر، الظلم والعار سببهما الاحتلال، لكن للأسف الشباب المتعلم مثلك يخدم المحتل في مهام بسيطة مكتبية، ويفرح مثلك ب «الكوستيم» وربطة العنق، والساعة اليدوية الذهبية...

- من ملأ رأسك بهذه المعلومات....؟

- لو عَلِموا ما تعلمته في مدارسهم لأغلقوها....

- لم أتعرف عليك بعد...

- كلثوم ...

- تشرفنا!

- كل الشرف لي أنا... التي أؤدي ضريبة اختلافي عن أهل البلدة فأسمى «ببنت الهبيل» أو «الهبلاء بنت الأهبل»... إن سمعتهم يذكرون هذه الأوصاف فاعلم أنني المقصودة....



ترفع صوتها مقهقهة، وتنزع منديل شعرها، فتسوي شعرها بسرعة، ثم تعود لتشد عقدة المنديل على الجبهة وهي تضرب الأرض بغرابة بقدمها، حتى أجفلت الطيور في أعشاشها، وتردف:

- هذا ثمن ألا تشبه الآخرين.

- أي ألا تغرد مع السرب أو أن تتجرأ وتغرد خارج السرب...

تضحك حتى تبدو نواجذها وهي تضرب كفاً بكف وتقول:

- نعم....ألا تكون كأيها الناس... من حسن حظي أنني التهمت كل كتاب يصل إلى يدي في هذا الفراغ القاتل، ولم يكن حظي من التعليم إلا خمس سنوات في مدرسة الدير الكاثوليكي.

- جيد.. لكن تعلمي أن التوقيت مهم في كل تحول إنساني وتغيير مجتمعي..

تضحك من جديد حتى تدمع عيناها، ويشاركها سالم فتقول:

- يا لك من رجل طيب..! أتريد معرفة تفاصيل جريمة اغتيال ولد سي عبد الباقي..؟ اسمع المعلومة إن كنت تريدها طرية..! كانت صفية ابنة مدير «البوسطا» مخطوبة لولد «سي عبد الباقي»، تحبه ويحبها، هام بها هيام المجنون وهامت به هيام الولهانة، ولم يقدر لا أبوها ولا أبوه أن يمنعهما من هذا الهيام الولهان، فخطبها ولد الشريف...

- من الشريف...؟

- سيدي عبد الباقي فهو شرقاوي حر، أبا عن جد...

- ثم ماذا...؟

- الطاغية... نعلة الله عليه «سي الغالي» خطبها على خطبته، فرفضت رغم قبول والدها «القمار» الذي كان مديناً بمبلغ كبير لسي الغالي، لكن الفتاة ظلت على وصال مع الحبيب، إلى أن وجد المسكين مقتولاً بطعنة في ظهره ذات ليلة.

- قيل قطاع الطرق قتلوه.

- لا... يا متحامق.. ليست فعلة قطاع الطرق، لقد مات ميتة الغفلة... غيلة...

- ولِمَ تشكين في الجيلالي...؟

- لأن سيدي عبد الباقي ظل يردد أن سي الغالي هو من قتله، ليأخذ خطيبة ولده، فدبروا له مكيدة كي يسكتوه، دسوا أكياساً من الحشيش و«الكيف» في زرائبه، فحضر القائد العبري والشيخ «الزطاط» و«جدارمية» النصارى، فأخذوه، ثم انقطعت أخباره لسنوات لما كان في سجن «الغابر»، وحينما خرج لم يجد لا داراً تأويه ولا أهلاً يلوذ بهم، ولا أصدقاء يحتمي بظلهم، تنكر له الجميع، وانفض من حوله القريب قبل البعيد، خوفا من سي الغالي، وربما تملقا وعجزا، فأقام في ساحة رباط «المزواكيين»، ويوماً عن يوم، بدأت تظهر عليه علامات الجنون، وتتدهور قواه العقلية، حتى أصبح ما هو عليه اليوم.

- وأملاكه...؟

- وزعوها القتلة بينهم، الغالي حاز أراضي البور، وحاز الشيخ «الزطاط» بساتين الكروم والعنب، وطالت يد القائد العبري البهائم والماشية، والجيلالي أخذ البغل والفرس والحمارين، وادعى أنه اشتراهم، وأهل البلدة كلهم يعرفون على الأقل فرس سيدي عبد الباقي، لهذا أشك فيه، لم يكن لسيدي عبد الباقي إلا ولد واحد، ماتت أمه وهي تلده، أما رهطه فقد تخلوا عنه خوفاً من جور الطاغية الغالي، ومنهم من ركبه العار بعد سجن عبد الباقي فبات وما أصبح، ومنهم من ضيق عليه سبل العيش سي الغالي، فترك البلدة وما فيها.

- أحسبه عاقلاً، فقد كلمته وكلمني...

- كلامه بالمعنى، صعب أن يفهمه أحد، جن الشيخ لا محالة، سكن ساحة رباط «المزواكيين»، وهو الشريف ابن الشريف... ويقولون إن الدفين في هذا الضريح جد بعيد له..

- وأين وجدوا ولد سيدي عبد الباقي مقتولاً؟

- في مكان ما وراء الهضبة الحمراء.

- وأين دفنوه....؟

- هنا في المقبرة... جوار قبري الغريبين... رحال وربيعة....

- أليست المقبرة مهجورة؟ ومن رحال وربيعة؟

- رحال... حسب ما سمعت... شاب جاء مريضاً من أولاد تايمة فربطه الجيلالي في القبة، كان جلده مسلوخاً، وأظافره منزوعة من مرض الطاعون، كما زعم الجيلالي ليلة أتى به، ولا أظن إلا أنه عذب، ومنع علينا التواصل معه حتى يشفى، ومات ذات ليلة، فدفنه هناك بدون غسل ولا صلاة جنازة، لا أحد في القرية أراد المجيء لجنازته خوفاً من الطاعون، أما ربيعة، فلا أعرف عنها إلا ما قالت أمي، إنها كانت ممسوسة، بها سحر ينتقل منها إلى من يعاشرها ويكلمها، ودائما حسب زعم الجيلالي الذي ربطها داخل القبة منعزلة عن الدنيا حتى ماتت... ودفنت هنا أيضاً بدون غسل ولا جنازة، وأخشى أن يكون هو السبب في قتلهم، أو هو قاتلهم... مازلت مشوشة، وعقلي لم يستوعب بعد موتهما الغريب... أتظن معي أن الجيلالي قاطع طريق أو يبيع الموت لمن يؤجره!؟

- ربما فقط الأمر مجرد المصادفة....

- لا... ليس مصادفة... أخاف أن يكون بائع الموت في دارنا، يأكل طعامنا ويبيت في فراشنا.

- كيف ؟ لم أفهم....

- يأخذ مقابل كل شخص ينهي حياته هنا ويدفنه أجراً معلوماً.

أوشك أن يكشف لها الحقيقة عن هذا السفاح، القاتل المأجور، ويخبرها أنه نجا منه بأعجوبة، فتردد و لكنه سألها:





- ألم يشاهد الناس حالتي رحال وربيعة؟

- لا أعرف، فقط أتذكر أنه أخذ العربة، وجاء برحال أولاً ذات ليلة حالكة من رباط «المزواگين»، ثم جاء بربيعة بعد ذلك بشهر أو أقل، والناس هنا، لا يهتمون إلا بشؤونهم، وقد صنع الشيطان الجيلالي سمعته مزيفة كعشاب وعطار ومعالج، والكل معتقد بلا ريبة أنه جاء بهما إلى دار العطار، من أجل خلطة دواء من أعشاب، وشفاء وعلاج لا يعرفه غير هو،... والحقيقة أن حالة رحال كانت سيئة كثرا، جاء نصف ميت، وربيعة أحضرها حمقاء، تهذي ولا تميز ما تقول، تركل برجليها وتتبول وتتغوط في ملابسها... لا أعرف أكثر... لكنني أشك أنه كان يسقيهما بلا شفقة السم الزعاف، جرعة جرعة، مدبرا موتا بطيئا، يرده الناس إلى تفاقم المرض الخبيث، ويزعم أن السقيا دواء، حتى لفظا روحيهما .... يقيناً هو سفاح... وأشك أنه قتل ولد سي عبد الباقي أيضاً...

- كيف؟

- تردد عليه سي الغالي أكثر من مرة، قبل قتل ولد سي الغالي.. نعم... وليلة الجريمة لم يبت الجيلالي في الدار...

- وكيف فعل...؟

ولد سي عبد الباقي كانت له مواعيد قارة عند الغروب في مكان ما وراء الهضبة، ربما تربص به عند العودة وقتله ورماه على الطريق.... لو رأيت الجيلالي وعرفته لقلت هو الشيطان فعلاً، وليس بغريب أن يقتل ويذبح الناس... فلقد اعترته كوابيس كثيرة

جاثمة على صدره بعد مقتل هذا الشاب بالضبط بأيام قليلة، ومن غرفتي كنت أسمع صياحه وصراخه، كأن الموتى يطاردونه وهو يطلب العفو... ويصرخ «العفو... السماح... يا ناس» حتى توقظه أمي وتسقيه ماء، ليسترجع أنفاسه المتقطعة.

- لقد رباك... على كل حال... وهو في مقام أبيك...

- لا أعرف لمَ باع الفرس والبغل مباشرة بعدما راج في البلد أنهما من زرائب عبد الباقي... والقتلة المأجورين، لا يطول زمنهم حتى تكتشف أسرارهم، وتقل هتمهم، ويستجد الجديد، ويبزغ الصبح المنشود، فيتنكر لهما أسيادهم، ويستبدلونهم بغيرهما، ليتخلصوا مما يذكر الناس بعهد بائد قديم، والسادة هم السادة، لا تتغير غير بطانتهم حين تغضب العامة، فيضحون بهم بلا رحمة.

- لست سهلة... هذا كلام سياسي عال... على فتاة في سنك، ويفوق تعليمك البسيط.

- يا هذا..! التعليم تعليم، قد يفيد الناس للترقي في الحياة، لكن ما أفهمه لا يحتاج إلى تعليم، بل إلى تأمل عميق فيما حولي. أنطق بما أفكر فيه فقط دون تزويق أو تنميق، فلو سألنا كل أحد عن مصدر أمواله وأراضيه وممتلكاته لميزنا الخبيث من الطيب، والحرام من الحلال، واللص من الشريف.... هذا على الأقل تعلمته من أستاذ اللغة العربية بالمدرسة، الحاج «الراقي الزناتي» أطال الله عمره، صوته مازال قوياً في ذاكرتي، وصورته بالجلباب والطربوش الأحمر، والمحفظة البنية الثقيلة مازالت عالقة في



ذهني... هو من ارتوينا من حوضه الفهم والخلق، وحفظنا الشعر والنثر والمتون ...

- هو بمثابة أبيك، حضنك لحمة في خرقة، ورباك بلا نقمة، وأعالك بلا منة..

- أبدا..كلما غضب منَّ وعيرني بأبي ، ورغم ذلك فهو غير متقلب وغامض، لا يستقر على حال كالزمن، أحياناً طيب وكريم، وأحياناً كثيرة كالكلب لفظاً والضبع رائحة، والذئب مكراً، لا شفقة في قلبه ولا رحمة، هو غريب الطبع والطباع، من الصعب أن تفهمه وتتوقع رده وفعله، لقد أصرّ على أمي أن أدرس في مدرسة النصارى على بعد خمسة كيلومترات، وكان يقلني كل يوم، حتى أتممت دراستي الابتدائية، وتفرغت لشؤون البيت... لبعد الثانوية عن البلدة.

- له فضل عليك لا ينكر..

- كان يتأسف على جهله و أميته، نعم.. لست كباقي الفتيات في البلدة المسكينات اللواتي ينتظرن بشوق وعذاب، اليوم الذي يدق فيه أحد الباب خاطباً...

- تجحدين خيره إذن؟

- لا أنكر ولست جاحدة، لكن سيظل في عيني مجرما كلما تذكرت ولد سي عبد الباقي وربيعة ورحالا، حاولت أن أبعد هذه الفكرة عن عقلي لكنها مسيطرة علي تؤرقني ليلا، أمي

نفسها تشك في شيء ما، ولكنها تداري شكها بالتجاهل، أعرف أنها تعرف أسراره، فكوابيسه كثيرة، تفضحه رغما عنه، ولا بد أن تعرف من لياليه الصعبة خبرا أوحدثا، فالرجال كما تقول هي» دعهم ينامون واسمع أحلامهم..!».

- وهل تعرفين عن الميتين شيئاً...؟

- أرشدك إلى قبريهما.

- أريني... أين...!؟

تخطو معه بضع خطوات بين القبور، وأكثرها قديم مبعثر، وقد غمرته الأشواك والحشائش ونبات الدوم والصبار، واختلط بعضها ببعض، فضاعت معالمها، حتى اتخذت عليها ممرات ومعابر، فتشير إليه إلى بقعة بيدها، ثم تقول متحسرة متنهدة:

- هنا... هنا...!

- لا أرى غير أرض مستوية.

- هما هنا تحت التراب... علمتهما بنبات الصبار... قبر ربيعة هذا وذاك قبر رحال رحمهما الله...

- وأين ولد سيدي عبد الباقي؟

تشير إليه بيدها جهة الضريح، وهي تقفز على السور القصير المتداعي:





- تعال...! من هنا... اتبعني.. على جانب حائط القبة... هذا هو قبر وعليه شاهد من صخرة صفراء، رحمه الله.

يرتفع نباح الكلب من جديد حتى يغدو عواء، تفطن كلثوم إلى تأخر الوقت، تحثه على الذهاب، يشد على يدها، وهو يودعها، تشعر برعشة، فتشد وتضغط أكثر، يسحب يده، يختفي في الظلام، وهو ينحدر نحو زنقة البهاليل.

تعود إلى غرفتها، تحاول أن تغفو، تقض مضجعها هزات دفتي الكوة الوحيدة في غرفتها المترنحة على مهب الريح، تسحب جسدها من تحت الغطاء، تحاول إحكام إغلاق الدفتين، المسمار الذي كان يمنع الارتطام اتسع عنه الثقب وسقط، تحاول مرة أخرى أن تثبته في الثقب، وقد اختلطت أنفاسها المتقطعة بهديج الرياح وهي تصفع وجهها، وحفيف شجرة تين ملتصقة بسور البيت يوقظ في نفسها لواعج الوحدة، تنطفئ الشمعة، تستمر في تلمس موضع الثقب في العتمة، فتضغط على المسمار بقوة ليجد له مكاناً ثابتاً في العمق، ثم تلويه لياً وتغلق الدفتين.

علاقتها بالقنديل المضيء في مضجع أمها علاقة خاصة وحميمية، إذ يشعرها بإحساس جميل، يرافقها في رحلة الحلم والخيال ضوؤه ولهيبه، وتتمنى لو ظل مشتعلاً حتى الصباح، خيط دخان «الكيف» تحمله الرياح إلى غرفتها، الجيلالي ما زال مستيقظاً يدخن رغم السعال القوي الذي يهز جسده هزاً، ويشعل ناراً حارقة مؤلمة في صدره وحلقه.

الجيلالي يعيد تشغيل المذياع باحثاً عن صوت يؤنس ليلته، يتوقف عند محطة تبث أغنية شعبية، يرتفع صوته مدندناً باندماج مع مقطع يرثي الأيام الخوالي تسمعه الفتاة، كأن الوهن ذهب عنه من أثر الخمر، ترهف السمع في محاولة لفهم ما يجري في مضجع أمها، تحاول أن تلتقط كل العبارات، كل الحركات، فهي لا تنسى أن الجيلالي في إحدى الليالي عاد من رحلته مترنحاً، لم تكن تقوى رجلاه على حمل جسده رغم نحافته وهزاله من إفراطه في احتساء الخمر، لا تنسى أنه حاول مضاجعة أمها بالقوة، وحين امتنعت وهي العليلة، لطمها وصرخ في وجهها «يوما ما سأقتلك...».

الجيلالي مرة أخرى على دأبه، غير الخمر طبعه، إلى القسوة والمجون، ونسي علته، وتجاهل وهنه، يجر «حادة» من ياقتها جره لأمة سليبة الإرادة والحرية، وقد كانت غارقة في نوم عميق من تعب، يريدها للجماع بأي ثمن، لا عذر له يؤجل رغبته الجامحة، تستيقظ بخمول بصعوبة وهي تتمطى، تحاول فتح عينيها اللتين غلبتهما الرغبة اللحوحة في الغفوة، تحاول صده بلا جفاء معللة ذلك بالتعب والمرض، لكنه مصر، فيصفعها صفعة قوية، ويزبد غاضباً، في وجهها «تستحقين الذبح».

تبددت الرقة في قلب الرجل وكان قبل حين على شفير الموت، وعاد لعتوه وجبروته، ونسي اليد التي أدفأته ودثرته ومرضته، والقلب الذي هلع من أجله وفجع، فطافت بكلثوم فكرة سوداء، من ضغينة اشتعلت نارها مستعرة في الصدر من جديد، فصاتت ريحها حارقة هوجاء، فكرت أن تقتحم الغرفة وتغرز أنياب



الرفش في صدره، وتبرد جحيم العقل والقلب برؤية النزيف ينزع من جسده الحياة نزعاً وهو في ألم شديد، ورعب أكيد.

حينما يشعل «الحشيش» والخمر فتيل شهوة الجيلالي، لا شيء يوقف رغبته الطافحة الجامحة، إلا جسد يفرغ فيه شبق شهوته، فلا يقبل عذراً ولا تعللاً، وليكن منهكاً، مريضاً، لا يهم، ما يهمه لحظتها أن يجد لجمرته ما يخفف لهبها، ثم يبرد استعارها إلى حين.

تستسلم حادة تحت تهديده وخوفاً من صفعاته، وتجنباً لعاصفة طيشه، تتمدد جسداً بلا روح، كياناً فيه يخفق القلب لا للحياة، بل لاغتيال الحياة، فيه قشعريرة سريان المنتشي وما هي غير قشعريرة جسد كاره، رافض، مستجيب لعقل في اضطراب، ثم تغدو باردة، محنطة، لا روح ولا بوح يليق باللحظة، تمنح الرجل قطعة ثلج تطفئ لهب شهوته الرعناء، يعبث الرجل الكهل بالجسد المنهك بجفاء، ينتزع لذته انتزاعاً ويستلقي لاهثا زاحرا.. منتشياً بفتح ليلي لم يكلفه غير صفعة ولواء الشبق الذي ارتخى بعدما انتصب عالياً يطلب غزو أرض اغتصب ألف مرة عنوة، أنفاسه المتعبة تغطي على باقي الأصوات، يرتاح المحارب من صولته، ويعود بلا مجد يذكر وفي ساحة الوغى سيدة جريحة الكبرياء والروح. يتمدد الصمت الجريح ظلالا قاتمة في الأجواء والأشاء، لا يشقه غير سعال الفاتح بلا سؤدد يشتد ويلح عليه من جديد، ويسحب منه بقية لذة في الجوارح.

تدلف «حادة» إلى الخارج بخطى ثقيلة ومتعبة، تصل

تنهداتها إلى أذن كلثوم، فيعتصر قلبها اعتصاراً، تسمع أمها وهي تغتسل من بقية ماء دافئ في «البقراج». تداهم حادة غشاوة على بغتة، فيتضبب البصر، وتخور القوى، تشعر المرأة المتعبة بدوار مفاجئ، لم تعد الأرض مستقرة تحت قدميها، كأنها تدور وتدور، تستند بيدها اليمنى إلى الجدار، تسقط الشمعة من بين الأصابع المرتعشة، والبصر زائغ من دوخة غاشية ودوار مفاجئ: «السلامة يا ربي» تردد عبارتها تلك وتتهالك على الأرض بضعف بيّن، لم تعد ساقاها قادرتين على حمل البدن المتراخي المتهالك، تحاول الاستنجاد بالجيلالي، تنادي على الرجل بصوت يكاد لا يجد معبره من الحنجرة، واللسان يعاني بمشقة وضعف لجمع الكلمات: «الجيلالي....! الجيلالي....!» يتلاشى الصوت، يسود صمت رهيب يشقه عواء الكلب.

تلتقط كلثوم نداء الأم، تهرع خارجة، تتجه نحوها، يسقط نظرها الخائف بذعر على جسد أمها التي تمددت على الأرض وقد أغشي عليها، تلطم الفتاة خديها وتصرخ مفجوعة «مي....! مي ....! ما بك....؟» تهرع الفتاة نحو غرفة الجيلالي، محاولة إيقاظه لمساعدتها على نقل أمها إلى فراشها، تناديه فلا يرد، تهز جسده هزاً فيقول بكسل وخمول ولسان قهرته الثمالة «أوف....! دعيني....!»، تتركه وتعود مضطربة إلى أمها، تزل قدماها، تنهض دون أن تتلمس أثر جرح على مرفق ذراعها اليمنى، ولا تنفض عنها الطين الذي علق بالملابس، عاجزة عن حملها إلى غرفتها، تجاهد جاهدة بلا كلل ولا ملل، بعزم وإصرار، ولو بمشقة وتعب



أن تحملها إلى غرفتها، فتردف الجسد العليل على ظهرها، نحو غرفتها، تسوي لها فراشاً قرب فراشها، وتدثرها لطرد البرد عنها وقد سمعت اصطكاك ركبتيها، وتسوي لها الوسادة الوحيدة تحت رأسها، وتفرك يديها وهي تنظر إلى بقية حياة في الجسد، تفتح الأم عينيها، تجد نفسها في غرفة ابنتها، تحاول بمشقة الوقوق والعودة إلى مضجعها، تمنعها الفتاة بغضب مهددة: «والله إن عدت هناك... أخرج ولا أعود... أو أقتل الخنز الليلة...».

تستسلم «حادة»، تغفو على أنين يفطر القلوب، ثم يعم الصمت، يستمر السعال يعذب الجيلالي تعذيباً، وتنتشي بذلك كلثوم أيما انتشاء.

# ١٧

متعطشاً إلى الحبر، أقبل سالم بحماس غامر وحبور ساحر، على الدواة يدغدغ جوفها باليراعة، فيضحك القرطاس خشخشة، منتشياً بصرير القلم على الورق، وبتبدد البياض بسنبك الكلم، رويداً... رويداً... تعلن الكتابة عرسها، فتدق أجراس الحياة الجديدة من أعلى صومعة الخيال والمجاز، يجلس إلى الطاولة القصيرة، يعود إلى التدوين بلهفة وشوق خشية النسيان وتبدد الأحداث والوقائع في الذاكرة، يدون ما اكتشفه رؤية وسمعاً مؤخراً، لا يسقط جزئية ولا تفصيلاً إلا ما خشي أن يسيء لنفسية ووجدان بحرية، والخطاب موجه لها، لم يذكر شد كلثوم ليده شداً وضغطاً، حتى قمع شهوة طاغية من غواية طائشة، بحكمة متأخرة، أسقط الواقعة، ولم يذكر أنه افتتن بجمال الفتاة وجسدها وهو يسترق النظرات إليها، ككاتب سيرة من زمن الفرسان تسكنه الفضيلة، يكتفي بالحدث دون الفضيحة.

تسلل إلى محيط دار الجيلالي هذه الليلة، ليعرف المزيد عنه غير ما قالت له فاطنة الهجالة منذ أسبوع، والذي يعرفه كل أهل بلدة العقرب، لكنه اكتشف حدثاً مفجعاً أليماً، علم أن هناك شخصين على الأقل قتلهما الجيلالي، ودفنهما في المقبرة المهجورة.





يا ليته يسترجع ذاكرته ليعرف حق المعرفة ويقيناً كل القصة، وما قصة موتهما الغريبة، عليه أن يدوّن ذلك، ويصف مكاني دفنيهما بدقة، حتى إذا ما صحا من نسيانه، وتبدد الضباب الذي يحول بينه وبين الماضي والهويات والوقائع، بحث في أمرهما، وربط الماضي بالحاضر لمواجهة المستقبل بلا عقد ولا ضعف ولا فتور، يردد في خاطره قلقا في حيرة «ترى من هما؟»... تمنى لو تمنحه الذاكرة المعطلة ممراً ضيقاً إلى الماضي، إلى وجوده الحقيقي، ليجد الأجوبة الشافية للأسئلة الحارقة، فأحياناً كثيرة يكون الجواب عن الحاضر من كبد الماضي، وأحياناً أخرى يكون الحاضر سراباً وفوضى في غياب نوافذ تطل على المستقبل أملاً وفضولاً، وتستنير بالماضي تعلماً وتمرساً، الماضي الحي، القادر على الحياة، لا الميت المحنط للوجود والعقل والأفكار.

ودَوَّن قصة ولد سيدي عبد الباقي، وتكالب أذناب الطاغوت والسلطة على الشيخ سيدي عبد الباقي وغصبهم لأرضه ومواشيه وبهائمه، بعدما غصبوا الشاب القتيل خطيبته وحياته.

تنفس الصبح الساخن ولم يضجع بعد، تسربت أشعة الشروق على الدار من الشروخ والنوافذ والشقوق، ثم حجبت فجأة، وامتددت ظلال رمادية تطارد كل ضوء لحوح، ظن أن سحبا داكنة أربكت عبور الصيف وهو في غرته، لكن لم يطل الأمر طويلا، حتى عادت الشمس تعلن زمنها ووهجها، سمع طرقاً شديداً على الباب، أسرع الخطى لفتحه، فإذا بفاطنة الهجالة،

أمامه، تقول وهي يلهث بزحير من إسراع هرولة، دون تهتك ولا غمز ولا لوك للعلك هذه المرة:

- سي سالم...! خطب ما وقع في دار الشيطان.. الخَنِز كلثوم... تولول... هذا يوم شؤم.. علمت أن أمرا ما سيقع وأنا أرى أسراب الجراد تحجب السماء..

تذكر لحظة احتجاب الشمس وانتشار الظلال القاتمة، وعلم الآن أن سرب الجراد هو من منع عبور الضوء، تظاهر بعدم معرفة كلثوم وهو يعود إلى قلب الدار متثائباً يتمطط بخمول:

- من كلثوم هذه؟

- يا ويلي....! هل نسيت أم تتذاكى!؟ يا ماكر....! كلثوم ربيبة الشيطان الجيلالي..»الخنز» التي كنت معها ليلة أمس، وسحبت يدك من يدها بسرعة وأنت كالمصعوق وهي تودعك.

- هل تتجسسين علي يا فاطنة؟

- يا أحمق....! أنا أحميك من طعنة غادر.

- وهل تظنين أن لي أعداء؟

- من يدري....!؟ فالكل يريد معرفة سرك ويفك غموضك، حتى سي الغالي أطلق وراءك العيون، تقتفي أثرك، لكن لتحميك هذه المرة، لا لتجمع أخبارك، سبحان مغير الأحوال، لعلمك وأنت في أرض دار الشيطان لست أبداً في أمان، فلا جوار له ولا عهد.





تمدد الضوء حاملا معه ريحا شرقية ساخنة، وما كان خبراً همساً، وحديثاً حصراً، غدا نبأ رائجاً تتناقله الألسن، وما فتر عويل و لا صراخ كلثوم من أعلى التلة، فهرع الرجال أولاً اعتقاداً منهم أن دار الجيلالي داهمها اللصوص وقطاع الطرق، هبوا فرداى ثم صاروا على الطريق جماعات، مسلحين بالعصي والهراوات والمعاول والأرفاش طرقوا الباب طرقاً شديداً، لا أحد فتحه، ونحيب كلثوم ما فتئ يرتفع، تطوع عمر ولد سي الغالي، فتسلق الجدار وقفز إلى داخل الفناء المكشوف، فتح للجماعة فدخلوا دفعة واحدة وهبوا كالموج الهائج، ثم اتجهوا بجلبة وصخب وتصايح صوب مصدر صوت الصراخ، وتدافعوا عند الباب الضيق حتى كبا بعضهم على بعضهم، فمنعهم الإمام من الدخول إلى الغرفة، بأمر من «سي الغالي» والشيخ «الزطاط» يبارك ويزكي، ولج عمر أولاً تم سمعوا صوته يطمئنهم: «لا حول ولا قوة إلا بالله...».

تفقد الإمام حادة، فوجد الجسد بارداً لا نفس فيه، سأل الناس عن الجيلالي أشارت إليهم الفتاة أنه في غرفته غارقاً في النوم، فوقفوا على عتبة غرفته، ارتفع صياحهم «الجيلالي....! الجيلالي!». الجيلالي لا يرد على نداءاتهم مهما علت وضج بها الفضاء، يقول الشيخ «الزطاط» متهكما رافعا حاجبا: «لا أظنه إلا ثملا كالعادة»، يختلط الضحك والهمهمات، يرمقهم سي الغالي بنظرات قاسية رادعة، فيها تأنيب وزجر بينان، فيضع حداً للسخرية الجماعية التي انفلتت من عقالها في لحظة غير مناسبة، يعمد «العرقوس» إلى إيقاظ الجيلالي بشتى الوسائل، ثم يدخل الإمام ليتفقد الرجل،

بعد لحظات يخرج عليهم وعلى وجهه علامات الذهول والصدمة، وهو يردد: «لا حول ولا قوة إلا بالله، مات الجيلالي و«حادة» في ليلة واحدة».

في دار الجيلالي اجتمع أهل بلدة العقرب، لم يتخلف غير المريض أو العاجز، فالجنازة يحضرها سي الغالي، وويل لمن تخلف وتعذر بعذر لا يقبله عقل الرجل، بعدما فرغوا من الدفن، فجرت عقولهم أسئلة الشك والريبة، وهمست أصوات بتكتم هنا وهناك، توجهت أصابع الاتهام إلى كلثوم، وكاد الناس أن يجمعوا على أن الفتاة قتلتهما معاً ودست لهما السم في الطعام، طمعاً في البيت ومال الجيلالي، والجيلالي عندهم يكنز المال والذهب في حفرة ما، بل هناك من النسوة من حكت حكايات غريبة، قالت إحداهن للنساء إن كلثوم على علاقة مع غريب، اتفقت معه على الهروب وبسرعة البرق وبدون اتفاق مسبق، أصبح للحكاية تفاصيل أخرى، ورواة وشهود عيان، وأصل وبرهان، فنساء أخريات أقسمن أنهن شاهدن كلثوم رفقة شاب غريب «حتروف» ليلاً تحت القبة، لكنهن لا يعرفن من هو، ولا يتذكرن متى شاهدن الواقعة.

وقطع سي الغالي ألسنة الشك والريبة تهديداً ووعيداً، حتى شككن وتهامسن أن الرجل يريد كلثوم زوجة له، أو خليلة على عادته، وزاد من استعار لهيب الشك إقامته لمأتم العزاء في دار الجيلالي، وتكفله بالعزاء والوضيمة، ودعوته لفقراء ومجاذيب





رباط المزاوكين، فحضروا إلا سي عبد الباقي الشيخ الزجال، كما أمر بإحضار سالم وهو يصيح بين الحشود:

- الشاب صار منا... لن يظل وحده في البلدة... يا سليمان!... اذهب ولا تعد إلا وهو معك.

استجاب سليمان للأمر دون تلكؤ ولا تأخر، ما به حماسة ولا رغبة، غير عادة الاستجابة بلا نقمة، وطلع في العتمة مع سالم المنحدر، وهما يتلمسان الطريق على ضوء قنديل شاحب ويحذره من حين لآخر قائلاً:

- احذر....! يا سي سالم ....! فالأفاعي منتشرة هنا.

- تقصد على منحدر التل... أم في البلدة....!؟

لا يرد عليه سليمان، يبتسم في وجهه، ثم يسبقه خطوات وهو ينشر الضوء بقنديل راقص لهيبه على هبوب الريح، تنطفئ شعلته فجأة، فيشد سالماً من ذراعه، ليريه الطريق، ويجنبه المشقات، فيسحبها الشاب ويقول:

- لا عليك... خرائط هذه البلدة غدت في عقلي، يا سي سليمان! يا شقيق سي الغالي!

يحدجه بنظرة قاسية وقلقة، فيرد سليمان وعضلة وجنته اليسرى تتقلص وتتمدد، كطائر في الشراك:

- ماذا قلت....؟ أنا لا شقيق لي... ولست سيداً... أنا عبد من عبيد سي الغالي.

- ألست أخاه...؟

- هذا كلام الناس؟

- بل الحقيقة التي ترفضها حتى أنت يا سي سليمان....! العبودية ليست لوناً ولا عرقاً، العبودية شعور ورضوخ، ورفض التغيير والاكتفاء بالرغيف بدل الرغيف وهواء الحرية.

- لم يشعرني أبداً سي الغالي بالعبودية.

- ألا تراها في عيون الناس؟

- أنا أشد رجاله وأقربهم إليه، من يجرؤ؟

- لن يجرؤوا خوفاً لا تقديراً.

- وليكن ما تقول صحيحاًن أتنفعني حريتي إن خرجت من دار سي الغالي؟ كيف أعيش؟ أين؟ ومما؟

- يوم تتذوق طعم الحرية، ستعلم أنها أثمن شيء في الوجود.

- شوشت علي... ما فائدة الحرية مع الجوع والضياع.

- ما فائدة الشبع والاستقرار وحول عنقك قيود العبودية.

- لا قيدود حول عنقي...

- الناس تراها، فكيف لا تراها أنت؟

- هذا عنقي أين القيد...؟



- هو طوق يراه الناس في خنوعك وأنفاسك...

- لا أفهمك...

- المهم... لا تنس أنك حر... حر...! رددها في عقلك. فالعبودية ليست قيداً ولا أغلالاً في اليدين، ولا طوقاً حديدياً حول العنق ...بل هي شعور في القلب، وقناعة راسخة في العقل... وحالة مستعصية في الروح، تحرر من هذا الشعور... هل أنت مستعد لتعيش حراً؟

- يرد عليه ساخراً:

- هل ستحررني....؟

- يوم تعلن لنفسك أنك مستعد للحرية... ستحرر نفسك بنفسك، لست في حاجة إلي، أنت في حاجة إلى نفسك أولاً لتتحرر، حرر عقلك وبعد سيجد ضوء الحرية سبيلاً إلى ظلمات عقلك قلبك.

ساد الصمت وسط وحشة العتمة، وتوقف الحوار بينهما، استأنفا صعود المنحدر، كلاهما غدا في شأن وهم داخليين نفسيين، صدى كلمات سالم يتردد قوياً في نفس سليمان، الذي أربكه الليلة، وأنعش في عقله أسئلة جديدة، قضية كانت مؤجلة.

جلست كلثوم في زاوية من البيت بعيدة عن مجمع النساء اللواتي انخرطن في أحاديث وثرثرة وهن يسترقن النظرات إليها، قالت زوجة سي الغالي الكبرى الحاجة زهراء، وهي تكشف عن

ذراعيها المثقلتين بأساور الذهب، ومن حين لآخر تسوي خواتمها وقلادة ذهبية على نحرها، «إن الجيلالي غريب عن الدوار «محوز» سكن في دار «حادة» المسكينة وأظنه «رحمانياً« من الرحامنة أو «عبدياً»، وجاء منذ ست عشرة سنة تاجراً يجول، فغنم الزوجة والدار». وتؤكد للنساء وهي تلوي شفتيها وتهز حاجباً وتضع آخر «ربما ارتكب منكراً، أو قتل أحداً وهرب من بلاده، بلاده التي لا يعرفها أحد...».

تقول زوجة الشيخ «الزطاط»، وقد شمرت كمي قفطانها لتظهر حليها هي أيضاً، فتهز يديها لتسمع صليل الأساور: «تزوج حادة، بعدما ساح زوجها «الهبيل» وربما مازالت على ذمته، والجيلالي كان قاطع طريق، والشيخ الزطاط يعرف تاريخه، وهو من سهوب المساخيط، وهم قبائل تعيش على النهب والسرقة في الأسواق، قبل أن «يلعب برأسها» ويتزوجها». وتضيف وهي تغمز بعينها اليسرى «سمع رواية سي «الزطاط» الشيخ زوجي حكاية أخرى تقول إن حادة هي من جننت الهبيل، فوضعت له السحر في الطعام حتى تتزوج من الجيلالي»، تنتفض فاطنة الهجالة وتقول مزمجرة «تقتل الهبيل... لماذا من أجل جمال الجيلالي... اصمتن ... إنكن تخرفن... عار عليكن...تفو...» ترد عليها العمشاء «ربما محراثه يشق الأرض أقوى من محراث الهبيل... أو ساقيته لا تنضب ولا تجف» ترتفع القهقهات والغمزات والضرب على الأكتاف، كأن النساء كن في عرس وليس في مأتم، وتضيف زوجة الغالي الصغرى صفية، وقد كانت تغار من كلثوم «سمعت



من يقول إن كلثوم «حرامية»، لقيطة «فالهبيل» رحل وحادة لم تكن حاملاً» وتردد أمام النساء من حين لآخر: «ما تشفينا فيها، الله ستار، وأمر بالستر».

لم تدر النساء أن كلثوم كان يصلها ما اعتقدن أنه همس ومجرد حديث خافت، فما إن دخلت عليهن، حتى عانقنها ضما وتطويقا، بدءاً بزوجة سي الغالي معزية تنحط بلا دمع «يا مسكينة....! صرت يتيمة، رحم الله أمك، كانت سيدة بلا عيب يذكر ولا أذى يجهر، والجيلالي غفر له الله رغم كل شيء كان رجلاً طيباً، كريماً، ورجلاً». فعلا بكاء ونحيب بقية النساء أمام ذهول كلثوم، واستغرابها من الرياء المفضوح والنفاق الصريح، فانزوت بعيداً عنهن في زاوية من باحة الدار، وطفقت تتفرس في الوجوه والسحنات، فبدا لها الكل يضع الأقنعة ويصطنع الألم، وقد سمعت تواً من النساء ما يفتت كبدها، ويعمق حقدها على بلد ذبحتها الليلة دون رحمة، واستباحت كرامة أمها دون حياء.

تمنت لو كانت لها الجرأة لتكذبهن جميعاً، ومن القوة ما يكفيها لتصرخ في وجوهن معرية الأباطيل، مسقطة الأقنعة والزيف، لكنها ضعيفة ووحيدة، وضعفها المؤقت لن ينسيها أنها ابنة الهبيل الشرعية، ولم تأت للوجود من زنا مستتر ولا من شهوة عابرة، وأمها ماتت فاضلة وطاهرة، كما عاشت كريمة، وطلقت من أبيها للغيبة بشهادة الإمام ووجهاء البلدة.

اكتشفت فيما اكتشفت بعد النفاق في اللسان والمشاعر، شبق

سي الغالي الذي أعماه حتى رفع عن نفسه حرج مداعبتها خفية، فانتابها الخوف والقلق من هذا العمى الذي عطل حياء الرجل وشل تفكيره، وغشي عقله النزق الطائش، فخشيت على نفسها أن تؤدي ثمنه غالياً إن هي تمردت يوماً ولم تخنع، الرجل معروف بسطوته وجوره وعناده، فاستحضرت ولد سيدي عبد الباقي، وجنون الشيخ الجليل، وفطنت وهي تكنس الأجواء بنظرات حزينة قلقة، إلى عمر ينظر إليها حزينا، منكسر الجناح، وهو يقضم أظافر يده، رأته مغتاظاً من نزق أبيه، وهو يتابع حركاته ورعونته، وحدست أن نظرته إليها لم تكن شهوة كما في أول لقاء، رأت فيها حيناً شرارة الغضب وحيناً آخر بريق الشفقة ووميض الشغف.

دخل سالم على الرجال، فوقفوا وسلموا ورحبوا حتى انحنى بعضهم له، فسح سي الغالي له مكاناً في المجلس قربه، وهو يقول له:

- تكفلت في سبيل الله بهذه الجنازة، لا نريد جزاء ولا شكوراً غير مرضاة الله، ورضا المخزن.

ثم يلتفت إلى سالم ويهمس في أذنه: «لا تنس ذلك في التقرير...!» وانفض الجمع، وتفرق الناس في شعاب المنحدر، وأوتي بالعربة لسي الغالي، وقبل أن يستقلها، دنا من الصبية التي صارت يتيمة بلا معيل ولا قريب، ونظر نظرات عميقة في وجهها، نظرات فيها من النزق أكثر من الرحمة والشفقة، وزفر زفيراً طويلاً وهو يشد على كفيها بقوة بشهوة، حدستها من طريقة تلمسه وضغطه على أصابعها، ثم ضمها بقوة متكلفا الحزن ضمة مريبة، وهو يعزيها بكلمات يغطي بها ما يجول في خاطره من نزوة، حتى شعرت بيديه تلمسان نهديها، فأفلتها من ذراعيه بعدما شعر بالحرج، وعمر ابنه ينظر حانقا مضطرب المشاعر بين البر لأبوة طائشة، و الحب لفتاة وحيدة، ويصله صوت أبيه النفناف، وهو يقول إنه مستعد لحمايتها ومساعدتها، ولمحه يشدها من خصرها بحركة طائشة، ويمسح على رأسها ويعانقها، وحدهن النساء كن ينظرن إليها نظرة مريبة، لم تستطع فهمها، فيها شيء من العزاء المزيف والمكر الجلي والضغينة الجلية والخوف الصامت.

# ١٨

كما تلاشت ذاكرته في لجة لوثته على حين غرة، وضباب نسيانه الكثيف، التأمت شظاياها من جديد بغتة ذات صباح دون سابق إشعار، وتبدد الغشاء الذي بعثر الزمن لشهور، صحا مذعوراً، وكاد أن يلج الجنون من بوابته الواسعة، وهو يصحو في فراش غير الفراش وفي دار غير الدار المألوفة وفي عالم غير العالم الذي يعرف تضاريسه وروائحه، فحسب أنه يحلم، وعاد للنوم عله يغادر هذا الكابوس، لكن لا شيء تغير، لم يفلح في فهم هذا التبدل حوله، وهذا التغير الذي أربكه.

اختلطت في قلبه المشاعر، خوف يشهق من رئة الاضطراب وقلق ينمو في تربة الارتياب، حتى ظن نفسه يعيش حلماً أو كابوساً، وحيره السؤال المؤرق «كيف جاء من بلدة القراقشة بأولاد تايمة إلى هنا» آخر عهده أنه اختطف، وأسكنه خاطفوه جباً عميقاً، وكانوا يعذبونه من حين لآخر، حتى أغمي عليه، وبعدها البياض، طفق يستكشف بفضول وقلق وتوجس الدار اكتشاف الساكن الجديد، خطا نحو المنضدة بتؤدة وحذر، صار القلم غريباً عنه، وقد كانا لمدة نديم الكلمة والسمر، تحسرت الأوراق وهي تلتقط نظراته التي لم تعد تعكس الألفة والصحبة،،





الكراسة نفسها تكاد تسمعه الحكاية، لتبدد حزن اليراعة والبياض من جحود تأولاه، يمد أصابع مرتعشة لأكباد الكراسة، يقلبها قلبا،كأنه يلمسها لأول مرة، ولو كان لها لسان يبين لهبت لنجدته من الضياع المرير.

كأنه سمع نداء اليراعة، وهمس الأوراق، وصخب الحبر في الدواة، فجلس ليقرأ بعفوية، التهم ما كتبه التهاماً، توقف عند الأحداث والوقائع المحزنة، فبكى لضياع سي عبد الباقي، وموت العاشق ابن الشيخ الزجال، وتقاسم من جديد خوف وأحزان ومآسي الناس الذين عاشرهم لمدة، ومشاعره فياضة، كأنه يتعرف عليهم لأول مرة من خلال الكلمات والأوصاف والأحداث.

فربط موت ربيعة ورحال بأحداث في «هوارة» وتذكر قصة الغرام الجارفة التي ربطت شقيقة القائد القرشي بأولاد تايمة الصغرى «ربيعة» وأحد رعاته المسمى «رحالاً» وهو من «قلعة السراغنة»، وكان شاباً وسيماً، قوي البنية، واسع المنكبين، ذا شعر ناعم كالحرير، واستحضر رفض القائد رفضاً قاطعاً هذا الحب الذي عده عار واستصغار لشأنه وجاه منصبه، وحسب الراعي تجاسر وتطاول عليه، فعذبه عذاباً شديداً، يقال نزع أظافره، وسلخ جلده، حتى جن، فانقطعت أخباره، وراج في البلدة أن رحالاً قتله القائد وأحرق جثته، بينما أخته اختفت عن الأنظار، ولم يعرف أحد لها طريقاً، فقط كانوا يقولون إنها «محجبة» لا تخرج على الناس، لأن عليها جنا من الملوك، يمنعها من ذلك، فإن فعلت صرعها وعذبها، والحقيقة المرة أنهما أرسلا على مرحلتين

إلى منصة الإعدام ببيلدة العقرب، عند الجيلالي الشيطان، صدق حدسك يا كلثوم، الرجل قاتل وسفاح محترف.

استخرج رسالة بحرية، وأعاد قراءتها، فعاد العقل يرسم صورتها قطعة قطعة بشغف، وسمح للصدر أن يبوح بالعشق الممنوع، فتملكته الصبوة وهفا القلب لمحياها، أمضى النهار كله يقرأ ما دوّن من قبل حتى وعى واستوعب ما وقع وما صار، وجلس يفكر، أيرحل خفية دون أن يترك أثراً؟ أيعود إلى بلده ويترك هذا العالم مبعثرا وقد غدا جزءا من آماله؟

استعاد الذاكرة بماضيها وآلامها وخيباتها وأعراسها، واختفت المرحلة الفاصلة، إلا من وجه بحرية وهي تمرضه، فتلمس أثر شفتيها على شفتيه، وتنسم عبق جيدها في ذاكرة الروائح، فطغا وفشا، كأريج «الخزامى»، أشعل سيجارة وفكر طويلا حتى زحف صداع إلى مؤخرة رأسه، فقرر أن يلعب اللعبة حتى النهاية، فهو ليس جبانا ولا متخاذلا حتى يهرب هروب الطريد المنبوذ، ثم غفا على الكراسة التي ظلت صاحية في عقله وقلبه.

زارته العمشاء «طامو»، صباحاً، تماطل في فتح الباب لها حتى استرجع أنفاسه، وتفرس في وجهها من شق على الباب حتى يعلم من هي من خلال وصفها في مذكراته، فهو الآن يدرك الأحداث والأسماء لكن لا يستطيع ربطها بالوجوه، لم يجد فيها أوصاف «الهجالة» ولا ابنة أختها، ولا باقي النساء اللواتي ذكرهن في الكراسة، فمن تكون هذه المرأة؟





حين دخلت العمشاء الدار، لاذ بالصمت والتزم بما يلزم الموقف من ألفاظ قليلة حتى يستبين الأمر، يحاول ربط الوجوه بالكلمات والأوصاف وهو يسترق النظر إلى وجهها، لم يسعفه الوصف الذي في الأوراق في تحديد هويتها، وتجاهلها عمداً منشغلاً بقراءة الأوراق، فقالت وهي تكنس الدار:

- من اليوم سأتكفل بالدار بدل «الهجالة».

- وأين هي....؟

- «باتت ولم تصبح»، رحلت العاهرة «بنت الحرام» دون وداع في سرية وكتمان، وقد كنت أقرب صديقة لها، ربما كلمتك أنت يا سيدي سالم...!

- لا... لم تكلمني.

- كيف والكل يعلم أن لك علاقة مع زهور؟

- من زهور؟

أخطأ ووقع في فلتة لسان وهو يسأل عن فتاة من المفروض أنه يعرفها، وعاد يفتش عن الاسم في الذاكرة، مما التقطته من الكراسة، فعلم أنها ابنة أخت «الهجالة»، واسترجع قصة إنقاذه لها من براثن سي الغالي، توقفت عن الكنس، نظرت إليه باستغراب وقالت وهي تهز رأسها ساخرة:

- زهور...! آه...! صرت لا تعرفها... يا للرجال! لا ثقة فيكم.

- لا... فقط أقصد لم تكن لي علاقة بها.

- أتسخر مني!؟ كل البلدة تعرف أن لك علاقة بتلك العاهرة الشابة الغرة، لم أفهم سر العلاقة الخاصة التي كانت تخصها بها «الهجالة» دون باقي العاهرات، كانت تعاملها كأنها خرجت من بطنها، ربما لأن لها حظوة عندك.

- المهم ... أين رحلت....؟

- لا أدري... ربما أنت تعرف وتتظاهر بعدم المعرفة، هل تظنني غبية؟ سل عن «طامو» العمشاء لتعرف من أنا!

علم الآن من هي، رفع نظره إلى وجهها، لم ير في العينين عمشاً، فقال لها:

- سامحيني «طامو»، لمَ ينعتونك بالعمشاء ولا عمش في عينيك ؟

تقهقه وتضرب الأرض بقدميها كالمجنونة وهي تهتز وتقول:

- كنت عمشاء في الصغر، فلزمني هذا الاسم الوسخ، المهم لولا الشيخ سي «الزطاط» ما أتيت إليك، قال لي ليلة البارحة، اسمعي يا «طامو» يا عمشاء....! غداً تبدئين العمل في دار سي سالم، ففاطنة الهجالة رحلت وجاءت بأخبارها العيون، حملت متاعها واستقلت حافلة الغرب رفقة تلك الفتاة زهور، لم أرغب في ردها كرهاً، لكنني قلت ربما هذا في صالح سي سالم، فالناس تردد أن قلبه تعلق بها، وأبناء المخزن لا يتعلقون بالمتسخات،





فتركتها تذهب، لتأخذ وسخها بعيداً عن «ولد الناس».

علت أصوات جلبة في الزقاق، فطنت العمشاء إلى الأمر، فدلفت نحو الخارج لتستطلع الأمر، استوقفت «العرقوس» الذي ركض مع من ركض، وسألته:

- ماذا وقع؟

- مات سي عبد الباقي.

- يا رب...! كيف؟

- لا أعرف وجدوه ميتاً على التلة، بأرض المقبرة المهجورة، ممدا على قبر ولده.

- المسكين مات كمداً...

تعود للدار مضطربة، منتحبة وهي تنحط:

- مات سيدي عبد الباقي... مات سيدي عبد الباقي...

- كيف؟

- تعال معي!

كانت الجثة هناك، بين أنقاض القبور، وبدا الشيخ الجليل كمن يعانق ظلاً على الثرى على قبر ابنه، اختلف الناس في سبب موته، كما اختلفوا في سبب جنونه، قالوا مات من شدة البرد، والإمام يردد كلما تأولوا «الموت واحد والأسباب متعددة»، قالوا

مات كمداً وحزناً على موت ابنه، والإمام يردد «ما قتله غير الأجل» قالوا مات غماً على ماله وأرضه، والإمام يردد «المال والأرض لله» وقالت قلة ربما قتله الظلم والجور، فردد الإمام «الحساب يوم القيامة عند الواحد الديان» أما سالم، فيعلم أن سي عبد الباقي لم يكن الجور والظلم ليقتلاه، لولا خناجر الصمت والجبن، فهو لم يمت كمداً على ابنه، بل مات غماً على بلدة تبارك الجور، وتنصر الظالم، وتقهر الضعيف، ذبحوه كلهم، هؤلاء الذين أتوا هذا الصباح باكين، منتحبين، قتلوه، وجاؤوا لجنازته، تشاركوا في ذبحه، يد الغدر كما يد الظلم، يد الجبن كما يد الذل.

وهو يتابع طقس دفن الشيخ، استغرب لهذه المقبرة المهجورة، فالبلدة لا تدفن بها أصلاً، وتدفن بمقبرة أخرى، بيد أن سي الغالي كان يقرر في الدفن، وكما عاش شريداً، دفن سيدي عبد الباقي منبوذاً في المقبرة المهجورة، من أعلى سطح البيت كانت كلثوم تراقب المشهد تتنازعها مشاعر الحزن والغضب، ومن بين الحشود، أشارت في غفلة منهم إلى عمر ولد سي الغالي، فاختفى فجأة، رفع سالم بصره جهة الفتاة، فألفها اختفت أيضاً، فنظر إلى وجهه الشيخ الجليل سيدي عبد الباقي نظرة أخيرة، قبل جبهته أمام ذهول واستغراب الكل، فبكى حتى تعجب الجمع، وانصرف كئيباً بغم وهم، وجاش قلبه غيظاً وهو يردد في خاطره «وداعاً سيدي عبد الباقي، والله لأثأرن لك منهم جميعاً».



## ١٩

لا حديث في قرية العقرب في الأيام التي تلت إلا عن اختفاء كلثوم وعمر ولد سي الغالي الذي لزم بيته حرجا وغما، ولا يدري الناس وقد لمزوا وهمزوا إن كان كانت به حسرة من فراق الابن الوحيد، أم خيبة من هروب كلثوم معه التي كان يمني النفس بها ويشتهيها لنفسه، ومن شدة غيظه أطلق يد أهل رباط المزاوكين في دار الجيلالي، فنهبوا وخربوا، وعاثوا فساداً فيها، أحرقوا ما تبقى من أثاث، وخربوا ما صمد من السياج، ونحروا الخنازير نحراً بلا رحمة حتى أثخنوا وسالت دماؤها مجاري على أرض التلة، وبددوا المتاع والماعون، أخذوا ما شاؤوا، وكسروا القدور والخوابي، ونزعوا خشب الأبواب والنوافذ، وأعمدة السقوف، وفي تصرف غريب، أمرهم أيضاً بقتل الحمار، فانهالوا عليه بالعصي والهراوات حتى خارت قواه، وسقط صريعاً لا يعرف جريرته، وكان سي الغالي يشعر بلذة غريبة، وهم يفعلون ذلك، واختفى الكلب عن الأنظار، بحثوا عنه في الدار وبين الأنقاض، فلم يجدوا له أثراً، فقط حين تغشى البلدة ظلمة الليلة الدهماء، يسمعون عويله كعويل الذئاب آتياً من أعلى التلة، خبثت رائحة الفضاء الفاسدة وتعفنت حتى صار كلما هبت نسائم المساء من أعلى التل، حملت

معها روائح كريهة لا تطاق لأجياف الخنازير التي أَنْتَنَتْ وَفَاحَتْ رائِحَتُهَا الكَرِيهَةُ فعمت الأجواء، فازداد المكان وحشة ورهبة، وظهرت الذئاب من جديد تقطع لحم الأجياف، فأصاب الناس خوف وهلع شديدين.

أما الكلب فلزم قبر الجيلالي، وكلما رأى غريباً أو ذئباً، اختفى لحظة حتى يطمئن ويعود، ودام به الأمر على هذا الحال حتى وجد ميتاً رابضاً على القبر، ومن به من أثر جرح أو ضربة غادرة، ما حسموا في سبب موته، أ هو الجوع والعطش، أم مرارة الفرقة وألم الفراق، ونسوا أمره بسرعة كما تناسوا أمر الحمار الذي تحللت جثته، وظلت رفاته غير المطمورة شاهداً على البشاعة وقساوة بعض صعاليك رباط المزاوكين الذين نفذوا فيه أفظع إعدام مقابل طعام يؤتى لهم من دار سي الغالي، ورضاه عليهم.

وسمع سالم بغزوة الصعاليك، فازداد غيظه وحقده على سيدهم الآمر، وحز في قلبه كيف قايضوا الطعام بتخريب دار الجيلالي، ونحر الخنازير ببشاعة، وقتل الحمار بلا رحمة.

وفي ليلة داجية زاره سي الغالي، بدا مهموماً مغتماً، حتى تلعثم في الكلام، ولم يكن بالرجل الذي يضعف لموقف مهما اشتد، ولا لوضع مهما كان مؤلماً، لكنه جاء منهاراً مبعثر التفكير حد التلعثم الأليم، جلس على الفرشة متهالكاً... متعباً، تكاد أنفاسه تتقطع من سمنة قاهرة للحركة، وكرش طافحة تعوق الاستلقاء المريح، وقال مطرق الجبين، حزينا منكسر الجانب:



- - ربما.... بل يقيناً... علمت كما علم الناس العار الذي لحقني من جراء تصرف ابني ....

- - أي عار...؟

- - دعني أكمل! ابني الوحيد رمى كل شيء وراءه، وهرب رفقة تلك العاهرة كلثوم.... والناس تقول: «أرادها الأب فاقتنصها الابن» .... إيه....! يا دنيا....! يا كلبة....! قل لي هل عندك نبيذ؟

- - كلثوم لم تكن أبداً عاهرة.... أما النبيذ فنرسل في طلبه...

ينادي سي الغالي على سليمان الذي كان كعادته في حراسة سيده أمام بوابة الدار، فيهرع داخلاً وهو يحملق في سالم بنظرات ثاقبة، تغيرت منذ جنازة الجيلالي وزوجته، بدا أقل ارتباكاً واضطراباً.

- - أحضر نبيذاً....!

- - نعم...! سيدي....!

ثم يلتفت إلى سالم وهو يمد رجليه ويتحسس ألم حوضه بيده ويلهث بزحير:

- - صدقني....! لم أفكر في العاهرة إلا كابنتي، لكنها لعبت بعقله وأقنعته بالهروب، سأعثر عليهما... سأقطع رأس الحية بيدي هاتين... لقد أرسلت من يقتفي أثرهما.... سأذبحهما معاً... آه... !أريدهما أمامي الليلة قبل الغد... الدم يحترق في شراييني...

- ما الذي يؤلمك في الأمر؟

- ولدي....! بكري....! يهرب مع تلك الشيطانة....! العاهرة....!

- ربما يعشقها وتعشقه والأمر ليس كما يبدو لك....

- كيف؟

- أن يهربا معاً، ثم يتزوجا هذا أمر في صالحك...

- ماذا تقول يا رجل؟

- لو باركت الزواج وأظهرت العطف والشفقة والحِلم، لأعطيت الحجة للخصوم أنك أحق بالحكم... لو أظهرت الطيش والغضب والغلظة والهمجية، كما فعلت بدار الجيلالي، لوجدها منافسوك على القيادة فرصة سانحة لإبعادك، بحجة أنك غير مرغوب فيك من لدن الناس، ويمكن أن تكون سبباً في تمردهم على دار المخزن، والمخزن لا يريد تمرداً، والسلطات الفرنسية، لا تريد مسؤولاً يكرهه الناس، فهي تخاف من ردة فعلهم.

يخطو سليمان نحوهما، سليمان.. شيء ما تغير فيه، فتغيرت نظراته التي غدت ثاقبة لا تهرب من الوجوه، و وتبدلت خطواته التي لم تعد سريعة خفيفة، كانه يحمل ثقلا ما، يضع قوارير الخمر متأففا ولم يسبق له أن تأفف، ضجرا يفتح قنينة ويملأ قدحين عابسا كأنه كارها، أو ضاقت به الأرض بما رحبت فغابت بسمته المعهودة، وبشاشته الغامرة، ثم يدبر بظهره، ويقف بعيدا، فجأة





يذرع المكان وفيه لمسة اضطراب، وهو يسترق النظر من حين لآخر إلى وجه سالم، تتقاطع نظراتهما، يبتسمان في اللحظة نفسها، يتعجب سي الغالي مما يرى، ينقل نظره بينهما باستغراب، ويقول:

- يبدو أنكما صرتما على نغمة واحدة...

يضحك سالم، ينتصب واقفا، يخطو وئيدا متفرسا في وجه سليمان، يربت على صدره ويقول وهو يرسل في الهواء سحابات دخان سيجارته:

- نعم.. من لا يصاحب سليمان وهو أصيل من محتد أصيل..

ترتسم تعابير الدهشة والصدمة على وجه سي الغالي، لكنه يداري ارتباكه مما سمع، ولمح له سالم بعدم اكتراث، ويجاري الموقف بتجرع كأسه، يطلب جديد خدمة سليمان، ليكون الساقي، وهو ينظر إليه بريبة هذه المرة، كأنه خشي منه، واكتشف تغيرا فيه، فيريد جس نبضه، بحركة طائشة، يسقط سليمان قدحاً، فيندلق على حجر سي الغالي الذي ينهره بغضب وهو يمسح عنه أثر النبيذ:

- ماذا فعلت يا وجه الشؤم....؟

لم تصدر عن سليمان ردة فعله المعهودة، خف اضطرابه المألوف كلما توقع عاصفة غضب سي الغالي، اكتفى بإيماءة تدل على أسفه دون أن ترتعش شفتاه، في خاطر سالم تشكلت نجواه

لنفسه وهو يتابع ما يقع» إيه..! سليمان فتح الطريق للضوء نحو عقله وقلبه..»

ورغم ذلك أتى لسي الغالي بماء دافئ، ويرحض به بقعة من جلبابه بشدة كأنه ينفس غضبا كتوما، حتى ضجر سي الغالي، وألمه ذلك في صدره، ينسحب سليمان صوب النافذة، يكنس الزقاق بنظرات حادة دون أن ينبس ببنت شفة، بينما يلوح له سالم بيده، قائلاً:

- لا عليك يا سالم..! لا تقلق هذه أمور تقع... وسي الغالي مرشح لمهمة كبيرة، وهو متسامح ويتفهم... أليس كذلك يا سي الغالي...!؟

لم يفهم سي الغالي بما ابتلي، كأن فوجئ بكلام سالم، فرد متلعثماً متظاهراً بتزكية ما قال:

- لا عيب في ذلك، لا أغضب من الأمر، ومثل هذه الأمور تقع. فلا تحمل هما يا سليمان..!

غلبه طبعه فركبه التذمر مردفا:

- لكن يديك صارتا «غير شقيقتين» يا أحمق...! منذ مدة عقلك غير العقل الذي أعرفه، لا أعرف ما بك؟ أتحب يا سليمان؟ أتعشق امرأة؟ ربما سحرتك عاهرة ما؟ أوقعت أخيراً يا صلب...؟ منذ جنازة الجيلالي تغيرت، كأنك صرت تخاف من الموت.



وحين وعى بما قال ولم يعد يليق به وهو المرشح للمنصب الكبير، حول الموقف إلى مزحة ضاحكا بقوة، فوصلت عدوى الضحك سليمان نفسه، فضحك حتى دمعت عيناه لأول مرة في حضرة سي الغالي.

بدا سالم متردداً يفكر في شيء ما، لكنه لا يجد السبيل بعد إلى قوله، فمرر يده على ناصية رأسه، وحك أرنبة أنفه، ثم انتصب واقفاً وذرع الدار ذهاباً وإياباً بحركة سريعة، وعاد ليبدد بقية التردد، فاحتسى قدحين متتابعين، ثم استلقى على ظهره، مستنداً بيديه على قفاه، وقال متصنعا القلق:

- أنت مرشح للقيادة فعلا، مرشح أن تكون قائد منطقة شاسعة، تنوب عن السلطان، وتتكلم باسمه، وعليك ألا تبدي امتعاضاً من هروب ابنك ولا ضغينة من كلثوم، عليك أن تظهر العطف عليهما، وترسل من يأتي بهما، لتزوجهما برضاك، معلناً فرحك ومباركتك.

- لكنها ابنة الأهبل، وربيبة الشيطان الخنز....

- وأنت نائب المخزن المحتمل، وستتكلم باسم السلطان، لا تفضح نفسك وخصومك أقوياء يتربصون بك، يريدون القيادة في دارهم لا في دارك...

- سأحارب حتى النهاية، المال موجود ووفير، قل فقط السعر واشترِ.!

- المشكلة ليست في المال يا سي الغالي....!

- ما هي إذاً ؟ فيم إذاً؟

- أملاك سيدي عبد الباقي وحال سليمان....؟

- ماذا؟ هل تصدق أنت أيضاً ما يروج عني أنني قتلت ولده.

- هذا ما يقوله الناس، وتردده الألسن في خفاء، ويسمر به الرجال ليالي القر والصر كلما أمنوا الوشاة في غيابك....

- أعرفهم منافقون وكذابون ويدبرون مؤامرة لقتلي أو سجني...

- اشرب.. واسمع ما يقولون غيبة! يقولون ... للأسف ...

- أكمل ... أكمل... ولا تخبئ عني شيئاً... حين أصير قائداً أقطع ألسنتهم

- إنهم يقولون إن جل أملاكه وضعت يدك عليها، كما حاز الشيخ الزطاط باتفاق معك بساتينه واستولى القائد العبري على مواشيه وبهائمه...

- كاذبون... والله....مفترون والله.

- لا تقسم يا سي الغالي...! لقد قمنا بالبحث والتقصي وكل شيء مدون ومحصي في تلك الكراسة، ووجدنا كل شيء حقاً وصحيحاً، اسمع أنا معك ولست ضدك، طاوعني... اشرب... اشرب...





- والله....

يقاطعه متكلفا الغضب:

- عدنا من جديد للحلف والقسم.. أعذرني.. ظننتك والله تثق بي، ربما توهمت أننا أخوان... مصلحتك هي مصلحتي يا رجل... اشرب... اشرب... تسرعت.. ربما ظننت أننا أصبحنا عائلة واحدة... لكن...

- مازلنا عائلة واحدة...

- إذن صارحني... اشرب كأسك... ودعنا ننسى الهموم ووسخ الدنيا...!

تتوالى على سي الغالي الكؤوس الحارقة تلو الأخرى الحائرة، يزيغ بصره، يثقل لسانه، وتخذله مثانته، ثم يذهب إلى دورة المياه أكثر من مرة وبصعوبة مسنوداً بسالم وسليمان، وهو يترنح وقد سقط مرتين حتى انكب على وجهه، فجرح جرحاً بسيطاً في جبهته، وفي المرة الأخيرة، نزع جلبابه بمساعدة سليمان، وترك كرشه تتدلى دون حرج، ومد رجليه وهو يزحر متعرقاً لاهثاً من ضيق أنفاسه، وقال متثاقلاً:

- الحقيقة أن القائد العبري لعنه الله، هو صاحب الفكرة... وأنا طلت فقط أراضي البور، سنة نحصد وخمس لا... وما طالني منها إلا القيل والقال والهم والغم...

- صحح الأمر يا قائد بلدة العقرب... ورد الحقوق لذوي الحقوق...

تنفرج أسارير سي الغالي، ويبتهج ابتهاجاً كبيراً، فيبرق لنشوته بريق ضوء في عينيه، ويربت بيديه على صدره ويتوسل إلى سالم قائلاً بإلحاح:

- قائد بلدة العقرب!!؟ أعد على سمعي ما قلت حتى يسكر السمع كما يسكر الرأس...!

- قلت يا قائد بلدة العقرب....

- بلدة العقرب فقط؟

- يا طماع ... والنواحي... اشرب... أشرب...ههههه

- ماذا قلت؟

- قلت قائد بلدة العقرب والنواحي....

- أحبك يا سالم، والله لو كانت عندي بنت أخرى لصاهرتك يا ابن الأكابر... والله.... وماذا أفعل الآن؟

- رد لمن بقي من أهله أملاكه، أما قتل ولد سيدي عبد الباقي فلا بد أن تبرئ نفسك منه.

- كيف....؟





- القائد العبري يكرهك كرهاً شديداً ويخطط للتخلص منك، وعندي معلومات سرية دقيقة....

- تكلم، أنا أحيا بالمعلومات، أتنفس المعلومات هواء... المعلومة كانت وما تزال هي رأسمالي، أقايض بها الذهب والماس والجواري والجاه...

- ربما يعترض على منحك القيادة، فهو يميل أكثر إلى الشيخ الزطاط المشاء بالنميمة، وصلتني أخبار سرية جدا، إن «لم تتغد بهما تعشيا بك».

- كنت أعلم أنهما يدبران أمراً في الخفاء...

- اسمع! القائد العبري ربما سيرسل من يقتلك غيلة، وقد يغري أقرب الناس إليك...

- كيف...؟ من؟

يدنو منه ويسر هامسا:

- كسليمان مثلاً، فقد يتم إغراؤه بحريته ونسبه...

- أيفعلها الأخ بأخيه؟

- هل صار الآن أخاً لك...؟

- لا.... فقط...

- اسمع تخلص منهما معاً.

يغـوص سي الغـالي في تفكـير عميـق، يرتعـش القـدح في يـده، يـشرد ذهنـه، تجحـظ عينـاه، واجمـاً مقطبـاً يـردد:

- علي أن أضمن ولاء سليمان أولاً... لكن كيف؟

- حريته هي ولاؤه لك، وحقه في اسم أبيه....

- سأفعل... لكن كيف التخلص من الوغدين....؟

- فكر...! فلست أول مرة ستدبر عملية اغتيال...

- نعـم...! لا بـد مـن طريقـة .... آه...! لـو بقـي الجيـلالي عـلى قيـد الحيـاة...

- الجيلالي؟ ماذا تقصد؟

- سـأسر لـك بأمـر هـام، الجيـلالي قاتـل وسـفاح مأجـور، ينفـذ الجرائـم مـن أجـل المـال.

- وهل هو من قتل ولد سيدي عبد الباقي رحمه الله.

- الحقيقة، لم أكن أنا الذي أعطيت الأمر، بل القائد العبري.

- وكنت معهم؟

- للأسف وزكيت القرار... لعن الله النساء...

يعـم الصمـت الـدار، ينشـغل كلاهمـا في تفكـير صامـت، يتفرس في وجهـه سـالم، يقـرأ الإشـارات مـن تعابـير وجهـه ونظـرات عينيـه، يشـعر بقـرب سـقوط الرجـل في مصيـدة الجشـع والإغـراء، الـذي





زادت رغبتـه للـشرب، فيحتسي بشراهـة أقداحـاً متتاليـة، ثـم يتحسـس رقبتـه وهـو يسـتحضر صـورة سـليمان المنتصـب أمـام النافـذة، ينتابـه خـوف جـارف، يجاهـد بفـزع ليقـف مترنحـاً، لا تتحمـل سـاقاه الجسـد السـمين، والعقـل مخمـور، يوشـك أن يكبـو، يسـنده سـليمان، ينظـر إليه بذعـر صارخـاً بفـرق وهلـع واضحـين وقـد جحظـت عينـاه وانتفخـت أوداجـه واحمـر وجهـه:

- أيـن كنـت؟ كيـف حـضرت دون أن أطلبـك...؟ ابتعـد...! ابتعـد...! هـل تحمـل خنجـراً...؟ ابتعـد...!

تغلبـه نوبـة ذعـر جـارف، فتنهـار حكمتـه ورزانتـه بمعـاول التوجـس والرعـب، ترجـف ركبتـاه، وترتعـش شـفتاه، يحـاول سـالم تهدئتـه، ويتصبـب جبينـه عرقـا غزيـرا:

- اهدأ.!. سليمان أخوك...! لا يمكن أن يضرك...

- دعـه يقسـم عـلى ذلـك.!. أرجـوك...! قـل لـه الأخ لا يقتـل أخـاه...

يتمـدد عـلى الأرض، يشـعر بأنفاسـه تضيـق، كأنـه يتنفـس مـن سـم إبـرة، يطلـب مزيـداً مـن الهـواء، تفتـح النوافـذ والكـوات كلهـا، يـشرق مـن وطـأة الهلـع، فيغمـى عليـه، بعـد لحظـات يسـتفيق، يسـقى مـاء وعينـاه تكنسـان الفضـاء ورأسـه عـلى فخـذ سـليمان الـذي كان ينظـر إليـه مشـفقاً.

ينتصـب سـالم واقفـاً، يغلبـه ترنـح خفيـف، يقصـد المنضـدة،

يستخرج كراسته، ثم يتظاهر بقراءة وثيقة سرية وهو ينقل نظراته بين وجه سي الغالي الذي ارتسمت عليه علامات الاستغراب والذهول، وبين وجه سليمان الذي لا يعرف ما ابتلي به، يشير سي الغالي بأصبعه إلى سليمان وهو يلهث قائلاً:

- سأعلن بين الناس أنك أخي... والله سأفعل...

ينظر إليه سالم بخبث ويردف:

- حرره قبل أن يحرر نفسه فلا يكرمك إن ثار عليك .... حرره.... قبل أن تحرره رغماً عنك يوماً، فلا يذكر لك فضلاً، فيركبك العار، وقد تقاد إلى جدار لعين وترمى بالنار في يوم مشهود.

مضطربا.. متلعثما يرد ، وروحه تعبث بها رياح الهلع العاتية:

- هو حر.... والله هو حر...

وسالم يتصفح الوثيقة متظاهراً بعدم الاكتراث، ولكنه يحدج الرجلين، ويسمر نظره على سي الغالي ويقول بنبرة تحذير:

- المظلوم لا تدري متى ينتقض أو يثور ولا كيف يصفي ماضي الألم والعذاب....

- قلت هو حر... والله حر... !كفى... كفى...

- حرره قبل أن يقطع رأسك يوماً ما.

- قلت هو حر... اجلس يا سليمان...!





- أنا... أخوك... أكنت تفكر في ذبحي....

مستغرباً وقد سقط في يده من الذهول، يقول سليمان وقد استرد بسمته وبشاشته:

- حاشا.... أن أذبح سيدي.

- لست سيدك... من قال لك إني سيدك....؟! أنا أخوك.... يا ابن أبي... تعال ضمني...! غداً يعلم الكل أنك كذلك... والآن.... اجلس وشاركني قدحاً...!

تبدل وجه سليمان من وجوم راسخ إلى حبور طافح، أضاء الوجه بنور شمس لا تشرق إلا بين الضلوع، وبرقت العينان وميض حرية، شعر بها لأول مرة، قبل أن يعيشها، وتضاربت في دواخله عواطف شتى، فرح جارف، توجس جامح، فبكى حتى سال الدمع رقراقا على خديه، تسمر في مكانه، نقل بصره إلى وجه سالم الذي بدا منتشياً بالنبيذ والفتح المبين لهذه الليلة.

- قلت لك اجلس وشارك أخاك قدح نبيذ.

- سامحني لا أشرب الخمر...

- فقط الليلة لنحتفل بأخوتنا...

عند الفجر دلفا الأخوان معاً، سليمان يسند سي الغالي الذي غلبه الغثيان والقيء لأول مرة حتى تقيأ على قفطانه، ونسي الجلباب في دار سالم، ثم انتابته رغبة في البكاء فأجهش كطفل صغير حتى رق قلب سليمان وهو يسمعه يهمس بشبه غفوة:

- سامحني يا أخي...! سامحني...!.عدني ألا تقتلني...عدني...!

لم تمض غير بضعة أيام حتى جمع سي الغالي الناس، وأولم لهم وليمة مشهورة، بأفخم الطعام وألذ الشراب، فكشف للجمع أن سليمان أخوه من صلب أبيه، والناس تعلم لكن صمتت خوفاً، وقمعت الشهادة زمناً جبناً، ورفع صوته النفناف عالياً شجياً حتى دمعت عيناه، ونحط نحيطاً، والجمع غير مصدق، حتى ضرب الشيخ الزطاط كفاً بكف عجباً، وهو في ريبة مما يسمع ويرى، يردد خاطره في ذهول «أهي دموع رحمة أو ندم، أو دموع حسرة وأسف؟» وأعلن الرجل أن سليمان حر وأعلن اقتطاعه له جزءاً من أملاك أبيه، فأثنى على فعله إمام المسجد، وذَكَّر الجمع بالصحابي الجليل بلال، ومكانته في الأمة، وذَكَّر الإمام الجمع بأن الناس كأسنان المشط، والتقوى هي ما يرفع هذا ويضع ذاك، لا اللون ولا النسب، لا المال ولا الجاه، وأشاد بتقوى سي الغالي وعدله وقسطه، حتى عده على سنة السلف الصالح، واستغرب الشيخ الزطاط من فعل سي الغالي، لكنه لم يجد بداً من الثناء والمديح، وأكل سليمان مع أخيه على المائدة نفسها، وإمام البلدة ينهش اللحم الطري ويمدح مدحاً كثيراً.

وحين وضعت الخرفان المشوية، قال سي الغالي «كنت وصياً على أملاك المرحوم سي عبد الباقي بعدما جن وساح في الأرض، وبما أنه رحل إلى دار البقاء فأهله وورثته الآن أحق بالتركة وأولى بما ترك». وقبل أن تمتد أيادي الناس إلى اللحم قال الإمام : «هذا والله عمل لا يقوم به غير الأولياء... مثلك يزار يا سي الغالي...



أيها الناس....! إن أردتم أن تروا ولياً حياً يمشي ويطعم بينكم بلا ضريح وقبة، فهذا الرجل ولي، وداره مزار».

بدا أن قرار سي الغالي لم يرق الشيخ الزطاط الذي سقط في يده، فقطعت شهيته، وتوقف عن الأكل، واكتفى بالنظر، وهمس في أذن سي الغالي «قرارك لا يسري علينا...».

أبدى سي الغالي عطفه على كلثوم مردداً «لا عيب أن يعشق عمر ابني تلك الفتاة اليتيمة، لو أخبرني فقط لزوجتها...» مما زاد بحماسة الإمام فنظم أبيات مدح في الرجل، حتى كافأه بالمال، فرفض متعذراً بالواجب والحق، وتحت إلحاح سي الغالي، أخذ ما أخذ وقبل الكتف واليد، وجهز له أهل المطبخ طعاماً يحمله معه إلى بيته.

شوهد سليمان يبكي في زاوية من الدار وهو الذي لم يبك أبداً على الأقل أمام الناس، وحين أحس بالعيون تترصده مرق كالسهم خارجاً وسالم يردد في خلده «تلك دموع الحرية... أفهمك يا سليمان».

وزار سليمان لأول مرة قبر أمه رقية الحبشية في المقبرة المهجورة، ثم انشغل بصيانته وتنظيفه وكنسه لمدة، متخلصاً من الأجياف والعظام والخراب والحشائش والأزبال، فلحد القبور ونصب الشواهد، وسيج المقبرة بالأشواك وغرس نبات الصبار حولها، وتخلص من بقايا زريبة الخنازير، وصارت دار الجيلالي، مقاماً لبعض الغرباء من ساحة رباط «المزاوكيين».

وكان أن زاره سالم ذات يوم زوالاً، فأعانه على وضع الشاهدين لقبري ربيعة و رحال «السراح»، وحين هم بالانصراف قال:

- ماذا ستفعل الآن يا سليمان...؟

- سأرحل...

- إلى أين؟ لا تنس أنك غدوت مالكا للأرض والبهائم، وصار لك اسم، فلمَ الرحيل؟

- لا أدري.... المهم الرحيل من هنا.... لكن عندي سراً لك، أريدك أن تعرفه، لقد ساعدت عمر وكلثوم على الهرب، وأعرف أين هما......

- غداً اذهب وأحضرهما....

- سأحضرهما.

- لا تنس أنك حر، والمرحلة القادمة أصعب... مارس الحرية عقلاً ووجداناً، تخلص من آثار الماضي ... حرر نفسك...

في اليوم التالي سافر سليمان فجرا إلى حيث لا يعلم أحد وجهته، وكما وعد وفى، رفقة عمر وكلثوم في اليوم الثالث، فعرج الجميع أولا على بيت دار سالم، لكن الأخبار وصلت على وجه السرعة إلى سي الغالي الذي لم يتذمر من الأمر، بل عجبه وحسبه اختراقا، قال في خاطره إن مثل هذه الزيارة لابنه عمر وكلثوم من شأنها أن تقوي علاقته بسالم، فتزداد حظوته عنده».





وفي ذاك اليوم أسرت كلثوم لسالم بسرها الدفين دون أن أدنى ندم ولا رف لها جفن» ماتت تلك الليلة أمي رحمها الله، وقبل أن تفيض روحها، باحت بأسرار الجيلالي المظلمة، فهو قاتل ولد سيدي عبد الباقي وربيعة ورحال وآخرين، وشدت على يدي بقوة، وقواها تخور برعشة، وحَضَّتْني ملحة على الرحيل، وآخر كلماتها» لا تبقي معه، قد يقتلك المجرم» وكان ليلتها قد عنفها ولطمها حتى ألمها وأبكاها، وضاجعها غصبا بالقوة، وتركته يفعل بالجسد المريض ما شاء، وهي متعبة عليلة، لم يرحمها، ففكرتُ في قتله بضربة رفش، لكن الضربة ستترك أثرا، والأثر سيفتح بوابة الشيطان علي، قد ينتبه أحد للأمر مهما اجتهدت، والغسل يفضح أعطاب الجثث، إن لم تظهر للعيان، تسللت إلى غرفته، قبل بزوغ ضوء الفجر، وخنقته بقوة بوسادته ضاغطة.. ضاغطة.. قوتي غضبي وحقدي، ترنح كالديك الذبيح، تمدد وتمطى جسده ثم تقلص وهدأ حين أسلم الروح. لم تخفني عيناه الجاحظتان من هول الموت خنقا، بل نظرت فيهما برباطة جأش، وبصقت في الوجه، لم يأخذ تهديدي محمل الجد، سبق أن أنذرته ألا يضرب أمي... سبق أن أنذرته ولم يتعظ...بكيت أمي وحدي، وندبت يتمي ورحيل الغالية، ولولت ولطمت حتى سمع أهل البلدة صراخي.. فأتوا يستطلعون الأمر، لا أحد شك في موتهما معا في الليلة نفسها، لا أحد تساءل عن سبب موتهما معا، تقبلوا الأمر قضاء... وفيهم من ارتاح من الجيلالي، والأغلبية تكرهه، لهذا كان موته حدثا عابرا، حتى أسياده وجدوا في رحيله ما يريحهم، وقد كانت عنده أسرارهم القاتمة، وهي نقط ضعفهم، و كان يعرف كل

جرائمهم... بموته مات ماضيهم الأسود، هذا ما اعتقدوا وظنوا، لكن القتل ظلماً وببرودة دم وهم، لا أحد يقتل وينجو من الألم، تظل الجريمة في عقل القاتل والآمر والمشارك... تظل في الأحلام التي تحولها كوابيس، وفي الخيالات التي تخالها أرواح الضحايا.»

لم يسهب سالم في القول يومها، لكنه اختصر ما في عقله قلبه وقال:» كنت أعرف أنك الفاعلة... كنت أعرف أنك تخططين للهرب مع عمر.. لكن ليست كل حقيقة تقال... حان الوقت لنجلس جميعا، ونفكر بطريقة مغايرة لمواجهة الظلم... أنت أقنعي عمر، وأنا سأتكلف بسليمان... هو يعلم أن الحرية لا تتجزأ ولا تقدم بالتقسيط... هي إما كاملة غير منقوصة، و إما مزيفة مسمومة.»

ولم يعد ممكناً لسي الغالي إلا الرضوخ للأمر الواقع، فأعلن عرس الزواج على مدى ثلاثة أيام، وزفت كلثوم لابنه في أبهى ثياب معززة مكرمة، وسكنت رفقته في البيت الكبير.

بعد أيام، جاء الدرك الفرنسي، وفتشوا بيت الشيخ الزطاط، وهو في ذهول من شدتهم وغلظة طبعهم وكان يحسب نفسه واحداً من رهطهم، فوجدوا بنادق ومناشير تدعو لقتل النصارى، وكان جندياً فرنسياً قد اغتيل على الطريق المؤدية إلى مراكش غيلة، فاقتادوه إلى الثكنة العسكرية، عذبوه حتى أقر بما لم يفعل طلباً للراحة، والغفوة، وأتوا به يوما للبلدة، وربطوه إلى جدار، ثم أعدمته كتيبة عسكرية رميا بالرصاص، وذهل الناس، وتوزعوا



بين مشفق ومتشف، وأكثرهم كان على مذهب سي الغالي، قالوا ما قاله، والتمسوا للنصارى الأعذار، وألصقت الخيانة بالشيخ، فطالت شظاياها كلغم انفجر أهله ورهطه وقبيلته، فتجاسرت وتطاولت عليهم الغوغاء والدهماء، وقد تبدد مجدهم بين ليلة وضحاها، وتلاشى بأسهم إلى الأبد في رمشة عين، فنزح كثير من قبيلة الزطاطين خارج البلدة، وتكفل بوشعيب الزطاط بأبناء أخيه مدة إلى أن اختفوا جميعاً عن الأنظار ليلة مقتل القائد العبري بطلق ناري وسط حرسه، وقيل إن بوشعيب الزطاط، قتل القائد انتقاماً لأخيه الشيخ الزطاط، ظناً منه أنه من كان وراء البلاء الذي حل بأخيه وأسرته.

تناسلت الأخبار، كل راوية يمزج الحقيقة بالخيال، حتى غدا بوشعيب أسطورة في ذهن الناس، يقتنص الجنود في جنح الليل ويحرق ضياعهم وبيوتهم، فشدد سلطات الحماية الحراسة والمراقبة على الطرقات والمداخل، وأزم الأوضاع انفجار قنبلة في حانة «التجار» سقط هلكى من أثرها كثير من الفرنسيين، وقلة من الخدم المغاربة، وكانت الخمارة ناديا للضباط والوجهاء.

ذات فجر، أتى الجنود الفرنسيون بمن سموهم الإرهابيين الذين قتلوا الجنود وفجروا الحانة، وذهل الناس وهم يرون سليمان وبوشعيب الزطاط يقتادان إلى جدار الإعدام، ويتم إعدامهما رمياً بالرصاص على الملأ، فتنكر سي الغالي لسليمان مرة ثانية، وأفتى إمام القرية بعدم قتل الأبرياء من الجنود الذين جاءت بهم فرنسا للحماية والأمان، ولولاهم لأكل الناس بعضهم بعض، وعدد

فضلهم زمن المسغبة، وذكر بالعهود والمواثيق، ونهى عن الغدر بالناس وقتلهم غيلة، وحذر من العلامات الكبرى ليوم القيامة، مؤكدا على كثرة الفتن والقتل والهرج.

لم يتوقف القتل ونحر الجنود الفرنسيين غيلة، فداهم الدرك الفرنسي بيت سي الغالي ذات فجر، وقيدوا ابنه عمر أمام عينيه وكبلوا زوجته كلثوم، وجروهما سحلاً، وسي الغالي في ذهول جامح وصدمة جارفة، لم يصدق أن شعاع الحرية سرى في أفئدة أهله دون أن يشعر، فعلم الناس قصة العاشقين، علموا أن عمر واحد من الوطنيين، وأن كلثوم كانت تخرج ليلاً فتغوي الجنود بجمالها وقوامها، ثم تستدرجهم إلى عمر لذبحهم.

وأعدم عمر على جدار الإعدام أيضاً رمياً بالرصاص أمام الناس وهو مبتسم رابط الجأش، فكبر المتجمهرون، وصخبوا، ولم يهتابوا الأمر، بل استنكروا بصمت إلا من همهمات ونجوا، وكانت النساء أكثر شجاعة وجرأة، فارتفعت الزغاريد لأول مرة حين أعدمت كلثوم شنقاً على التلة، فجن جنود السلطات الفرنسية، وهددوا بقطع لسان المزغردات، لكنهم ظلوا منشغلين بالبحث عمن سموه رأس الحربة، المخطط والزعيم، فاهتدوا إلى رجل غريب اسمه سالم، رجل ندرت حوله المعلومات والأخبار، وبدا لهم لغزا محيرا، فجاؤوا بحثاً عنه، وجدوا الدار فارغة، وعلم الناس أنه رأس الجماعة الوطنية، فتشوها تفتيشا دقيقا،



فوجدوا مسدسات ورشاش، ومواد لصنع قنابل تقليدية، شمت كلابهم قطعا من قميص له، فأطلقوها مسعورة لاهثة في الأزقة والدروب والتخوم، تقتفي أثر رائحته، فضلوا وضلت الكلاب، بينما اهتدت قلوب الناس إلى منارة الأمل والرجاء، فعلا شأنه عندهم علوا غطى على مجده الأول المزعوم، وسما قدر عمر بمجد جديد لا صلة له بسطوة أبيه، واكتسبت كلثوم سمعة شعبية من قصص تختلط فيها الأسطورة والحقيقة، أنستهم أيام الجيلالي الخنز، وروائح زرائب الخنازير الكريهة، فلم يعد اسمها مقرونا ببنت الهبيل، ولا بربيبة الشيطان الخنز، بل اسمها يقرن ب»لالة»، وهو لقب لا يمنح إلا لشريف النسب من آل البيت، أما سليمان فعدت طارت بخبره الركبان والقوافل، وفشت قصته بين الشيوخ والشباب والولدان، فأعز عزه كل ذي بشرة سوداء، وكان استشهاده نبع مجد وسؤدد لكل زنجي بالمغرب الأقصى، وفيهم من كابد عنصرية مغلفة، تلميحا وتشبيها وسلوكا اجتماعيا.

ما إن علم سي الغالي بخبر سالم حتى هرع إلى الدار، يبحث بين الأثاث والأوراق عن ظهير تعيينه، عن قيادته التي تبخرت، فلم يجد غير بقايا كراسة فارغة، وشهادات صارخة على الوهم والسراب، فسقط مغشياً عليه، منذ ذاك اليوم، لم ينتصب واقفا أبدا.

انشغل الناس بأمور أخرى، فبنوا لسي عبد الباقي قبة

وضريحاً، وقدسوه ميتاً بعدما ظلموه حياً، صارت له زيارات وليال ومواسم، وسمي قبرا ربيعة ورحال، بقبري الغريبين، ودبت حركة جديدة في البلدة، فطفق صوت الحرية يرتفع بعدما كان خجولاً، فسجن الناس وعذب الأبرياء، لكن نارها التهبت، ولم يطفئها لا جدار الإعدام ولا منصة الشنق.





## ٢٠

بثت سلطات الاحتلال الفرنسية العيون والجواسيس في كل مكان، وأعلنوا عن جائزة مالية مجزية لمن يأتي بخبر «سالم»، أو يدل على مكانه، أو يشي بأحد أعضاء مجموعته، التي سمتها «جماعة العقرب السوداء»، وحفزوا الناس على الخيانة والوشاية، بوعدهم بالمال الوفير والحماية، ولو بخبر بعيد أو قريب عن هذه الجماعة التي وصفوها في الإعلام والمذياع، بجماعة القتل والنهب وقطع الطريق، وما هم في الحقيقة إلا جماعة من الأحرار، جمعتهم الظروف على قضية عادلة، تحرير الوطن من الاحتلال، وتحرير العباد من الاستعباد.

تفاقم الوضع، وتوسعت دائرة المقاومة والنضال الوطني بتنحية سلطات الحماية للسلطان الشرعي محمد الخامس ونفيه وأسرته يوم ٢٠ غشت ١٩٥٣، بتآمر مع الخونة من باشوات المدن المغربية الكبرى إضافة إلى عشرين قائداً، الذين حرروا وثيقة لسحب الشرعية الدينية عن السلطان بتحريض من الباشا الكلاوي، الذي يكن الضغينة للسلطان منذ استقباله رجالات الحركة الوطنية قبل القواد يوم عيد المولد النبوي .

تفجرت المظاهرات والاحتجاجات الشعبية العفوية، واشتعلت الشوارع بالمسيرات السلمية العارمة مطالبة بعودة السلطان، فواجهتها قوات الاحتلال بالقمع والعنف الشديدين والرد بالاعتقال والحبس، فتشكلت جبهة المطالبة بالاستقلال في عدة مناطق، وظهرت النواة الأولى لجيش التحرير، وطفقت دائرة الرفض والتمرد تتوسع وتطال التجار والحرفيين والعمال في عدة مناطق بالدار البيضاء وفاس ومراكش وسوس، وبعدما كانت عفوية، أخذت مسارها نحو التنظيم والتأطير مدنياً في إطار منظمات سياسية، ومقاومة مسلحة في إطار جيش التحرير.

لم تطل بعد أيادي الاحتلال «سالماً» الذي مازال حراً طليقاً، كاد يجن المسؤولون الأمنيون والعسكريون، وكان اعتقاله وإعدامه ضرورياً لمواجهة وضرب المقاومة والعمليات الفدائية معنويا وتكتيكيا، ووأد أسطورته في المهد التي شجعت آخرين من بني جلدته، ولترهيب المتحمسين لقضية الاستقلال، فضاعفوا المكافأة لمن يساعد على القبض عليه حياً، فنشرت صورته التقريبية في كل مكان وفضاء عام، وعلقت في الفضاءات العمومية، وفي محطات البنزين والسكك الحديدية والحافلات، وأكدوا على عدم المس بحياته، فالأمن الفرنسي يريده حياً، لاستنطاقه ومعرفة الكثير منه، فانتشرت الوشاية الكاذبة كالنار في الهشيم، وصارت مطية انتقام أو وسيلة حصول على عطاء وتصفية الحسابات بالبلاغات المزيفة المفترية، حتى صار الرجل إن طمع في أرض جاره اتهمه زوراً، وأقسم بأغلظ الأيمان، بل هناك من طمع في امرأة غيره فوشى



به ظلماً لسلطات الاحتلال حتى إذا ما اختفى أو أعدم، أخذ زوجته غصبا بالقوة، فَعُذِّب الكثيرون جوراً، وزج في السجون بكل من وشى به غريم أو خصم في الخفاء أو طامع ذو نزوة أو طمع، حتى توجس الكل من الكل، وأصبح الزوج يخشى غدر زوجته، وبعد حين أدركت سلطات الاحتلال عبثية الأمر، حين امتلأت السجون بالأبرياء، فشددت على الواشي والمخبر، وأعطت عبرة بالكاذب من الوشاة المزيفين الطامعين في المال فقط، عذاباً وتنكيلاً وسجناً، فهدأ الوضع وعاد الناس إلى تجارتهم وأشغالهم، بعدما شعروا بأمان ولو عابر.

لم يرق للضابط الفرنسي الشاب المتحمس مسيو «رونار RENARD» الذي أُحضر من الدار البيضاء خصيصاً للقبض على من يسميهم بالإرهابيين والمخربين.

غدا سالماً لغزاً محيراً لهذا الضابط المتحمس، حيث تملكه العجب من شخصيته الزئبقية، فلا أحد يعرف سره، وأجمع أهل بلدة العقرب كلهم حول جهلهم بنسبه وبلده وطبيعة عمله، إلا ما عرفوا من رواية الشيخ الزطاط، ولم يطمئن الضابط الفرنسي لروايتهم، ووصفهم له بالشاب الغامض، صاحب القلم والدواة والكراسة، والذي حيره أكثر أنه جاء باسم دار المخزن من العاصمة، وبمهمة سرية، وبمجيئه تغيرت عدة أشياء، فأعلن حملة تطهير شرسة، كان يقتحم البيوت والدور بالقوة والعنف بفظاظة وجلافة، ويختطف الرجال عند الفجر من وسط أبنائهم وكل قادر على حمل سلاح وسط البكاء والصراخ والنحيب، مكسراً

الأبواب والنوافذ بصخب وفوضى، مبعثراً الأثاث والمواعين، حتى يثير الرعب في القلوب، وتمتد يده إلى النساء صفعاً وركلاً ورفساً أمام أبنائهن وأزواجهن وإخوتهن العاجزين عن حمايتهم، وإلى الشيوخ نهراً وزجراً وسحلاً دون رحمة ولا حياء، كان لا يرحم ولا تأخذه شفقة بضعيف أو شيخ أو صغير، وينعت الناس بالأوباش والحيوانات والهمج.

طال عنفه وقسوته العمشاء التي أحضرت بالقوة تحت السحل في جنح الليل إلى الثكنة، وجريرتها أنها كنست لسالم الدار وغسلت المواعين، وغسلت الملابس، فضربت حتى تورمت عيناها، وسقطت ثناياها، وتكسرت أضلاعها، لتجيب عن سؤال واحد فقط «من هو؟» المرأة لم تكن تعرف عنه إلا ما علم الناس، فكادت أن تجن وهي ترد على أسئلة الشرطي المغربي المتعاون المكنى «بالثور»، وحين أيقنوا من عدم توفرها على أية معلومات، وأنها غدت تنسج من خيالها لترتاح، رموا بها من سيارة «جيب» فجراً على التل، فزحفت وحبت فيأنين وألم ووجع حتى وصلت دار الجيلالي، ففطن لوجودها نفر من أهل ساحة رباط «المزاوكيين» الذين سكنوا الدار الخربة، فاعتنوا بها أياماً حتى شفيت من كسورها إلا كسر ساقها اليمنى، شفي لكن على عوج وعيب، فغدت عرجاء، وقصدت ساحة رباط «المزاوكيين» ولم تغادرها أبداً حتى نزحت مع النازحين إلى الأراضي المجاورة من شدة تضييق الضابط «رونار» على الناس في معاشهم وأرزاقهم وقوتهم، حتى جاعوا وفشا المرض، وأكلوا الجراد والحشائش .



لم يسلم «ولد الغرار» من بطش الضابط المتحمس، قيل إنه تغوط في ملابسه حين جاءه الجنود فجراً، وسحبوه من داره، لم يمهلوه ارتداء ما يستر عورته، فالضابط المهوس يرى الكل متآمراً، ويرهق عقله الحائر السؤال القاتل «كيف أجمعوا جميعاً على الرواية نفسها»، فيعتقد أن هناك مؤامرة كبرى شارك فيها الكل، فجلد «ولد الغرار»، وعلقه من قدميه، وضُرب ضرباً شديداً على أخمص قدميه، والرجل لا يملك غير قصة الكراء وما رواه الشيخ الزطاط، وزادوا في عذابه، فاكتشف أن سلك الكهرباء لا يوصل الكهرباء فحسب، بل يحرق خلايا الدماغ حين يلمس الخصيتين، نكلوا بالرجل حتى غدا على شفير الجنون، ثم ظهر ذات ليلة في الأزقة في خرق من لباس متسخة يتوسل الناس أن يرشدوه إلى داره، متورم الأجفان متقرح القدمين، يمشي كالأجفى، بعدها لزم بيته أياماً قليلة ومات في صمت، ودفن في مقبرة سي عبد الباقي، فرحل أهله إلى وجهة مجهولة، وردد الناس ولو بخوف وتوجس أن الشرطي «الثور» اغتصب زوجة الرجل أمام عينيه، عله ينتزع منه اعترافاً أو معلومة، وكاد يفعل الفعل نفسه مع بناته، فرق قلب الضابط «رونار» فمنعه ولم يلن قلب الخائن، فانتشر الخوف والرعب في البلدة، حتى ظن كل واحد من أنه مطلوب، ونزح الناس نحو القرى القريبة، وتفرقوا بدداً قدداً.

أما سي الغالي، فقد شل ووضعوه في كرسي متحرك، وصار يقمط قمط الرضع، بعدما انفجر شريان في دماغه، ولم يعد قادراً على التحكم في غائطه وهو مثن أصلاً، وخانه اللسان عياً، بعدما

شل نصف وجهه، ولم تعد له من وسيلة للتواصل غير إشارات يعجنها وأنيناً حاداً يصدره، وتفرقوا عن الناس خوفاً من العقاب، وتخلت عنه زوجته الشابة صفية وعادت إلى بيت أبيها رئيس مكتب البوسطا في مركز البلدة.

طلب سي الغالي بالإشارة طلباً غريباً منتحباً بأنين، فرفضوا ما طلب حتى انقطع عن الأكل والشراب احتجاجاً وغدا على شفير الموت جوعاً وعطشاً، فضعفوا وأشفقوا لحاله خوفاً عليه من الموت، خفضوا له جناح الذل من الرحمة، وأذعنوا لطلبه اللحوح، فأخذوه كما طلب إلى مقبرة سيد عبد الباقي، فبكى على قبر الشيخ الجليل بكاء شديداً، وظل هناك طيلة اليوم، وحين أعادوه إلى الدار، توقف عن الكلام، وصام عن الطعام والشراب والإشارة.

تربص بالشرطي المغربي العميل «الثور» شاب أجلف يكنى بـ«الكوبرا» هو أحد لصوص ساحة رباط «المزاوكيين» ، باغته وهو يغادر حانة التجار ليلاً متأخراً، فطعنه طعنة غادرة في ظهره بعد مشى وراءه طويلاً، إلا أن «الثور» كان قوي البنية وشرساً في الصراع، فتعارك معه، وقبل أن يخر الخائن صريعاً، أطلق رصاصة في صدر «الكوبرا» فسقط ميتا.

شيع اللصوص والصعاليك والأغراب والمجاذيب وكل الناس في جنازة مهيبة كبرى ملأت سفوح الهضبة، «عياداً» المكنى «بالكوبرا» إلى مثواه الأخير، ووري الثرى في المقبرة على التل التي



غدا اسمها مقبرة سيدي عبد الباقي، ورفض الإمام أن يصلي عليه، بحجة أنه قتل ثملاً، وقتل رجل بدون وجه حق، فصخب عليه المجاذيب والصعاليك صخبا شديدا، وكادوا يقتلونه ضرباً لولا أن أنقذه منهم بوليس الحماية الفرنسية.

بعد أيام قتل الإمام وهو يخطب في صلاة الجمعة، ناهياً الناس عن الفتنة، فما إن أنهى عبارة «الفتنة أشد من القتل» حتى سقط صريعاً برصاصة في رأسه.

جن جنون الفرنسيين، فاستدلوا على الفاعل الذي قتل الإمام، فاستغربوا لشأنه، وذهلوا من أمره، وهم يتساءلون «كيف تصير لأمثاله قضية يموت من أجلها» فمطلق الرصاصة لم يكن غير حوذي من رباط «المزاوكيين»، آلمه ألم العمشاء، وقطع قلبه ما فعلوا «بولد الغرار» وكان كل الوطن يختزله في ساحة الرباط «المزاوكيين»، وزاد من ألمه رفض الإمام الصلاة على «عياد» «كوبرا» قاتل الشرطي المغربي العميل لفرنسا، بدعوى أنه كان ثملاً، وقتل نفساً بدون حق.

لم يعرف أحد مصيره قاتل الإمام، أخذوه فجراً من الساحة فاختفى عن الأنظار ولا أحد يعرف هل أعدم أم سجن، فالضابط «رونار» صار يخشى مواكب الجنازات على الطرقات وفي الدروب والأزقة، وترهبه مسيرات دفن الشهداء على منحدرات التل بصخبها وأدعيتها وتكبيراتها وتهليلها، فغدا يخشى أثرها السحري القوي على الناس وعواطفهم، فقد كان الموت يقربهم أكثر مما

يفرقهم، وكان كلما سقط شهيد، تقوى فيهم الانتماء للوطن والعزة للأمة، وتمددت جسور جديدة بين الناس، وتفقهوا أكثر في قضيتهم وقضايا وطنهم، فتتقوى شكيمتهم ويزداد عدد الوطنيين المقاومين، ويصمد الإلحاح رغم الجراح.

ظلوا يبحثون عن سالم، فلم يعثروا له على أثر، حتى يئسوا من الأمر، فخففوا حملة الترهيب والاعتقال والخطف، وإجراءات البحث والتحقيق، وكانوا فتشوا كل البيوت، إلا بيت رئيس مكتب البريد، والحقيقة أن الرجل وإن كان قماراً، لم يكن وضيعاً ولا نذلاً، بل كان وطنياً غيوراً، فليلة انتشار خبر إعدام سليمان وبوشعيب «الزطاط»، هَرَّب «سالماً» في صندوق السيارة، وخَبَّأه في داره أياماً، حتى أخرجه ذات ليلة خارج البلدة، متجاوزاً الحراسة عند المدخل، وعرج به على طريق رملية، وأعطاه خريطة وماء وطعاماً يكفيان لأيام.

متدثراً بسواد الليل لكي لا تترصده العيون، وبالأحراج والطرق غير الممهدة كي لا يصادف جواسيس الفرنسيين، مشى أياما وأياما حتى كَلَّ ظهره وأدميت قدماه، وتقرح وجهه، وضمر بدنه، ونفد الطعام والماء، وكان الجو حارا، فأكل من حشائش الأرض وحشراتها، وشرب المياه الراكدة، وحين هدّه الجوع والمرض والتعب، استسلم للموت مستلقياً على جنبات طريق مسلكية معزولة، يناجي طيف «بحرية» في الرمق الأخير، أحس كأنه يشعر بيدها تلوح إليه، ثم خُيِّل إليه أنها هنا، تبتسم في وجهه، ثم تلاشت الطيف، وتبدد الخيال في الخاطر، أيقن أنه





يحتضر، فظل مبتسماً يستحضر عبقها ونعومة يديها، فأغمض العينين، وانتظر العبور بحبور، فعاد يشعر بيدها على جبهته، ويسمع همسها الجميل في أذنه، فانتفض كمن يسترجع الروح، ليجد نفسه في غرفة غريبة، مضمد القدمين، وعلى حافة الفراش امرأة عجوز، تبرد نار حماه بقطعة قماش مبللة بالماء، انتفض جسده ذعراً، كاد يطلق ساقيه للريح، فاقترب منه شيخ أشعث الشعر، مغبر الوجه والثياب، وطمأنه منفرج الأسارير:

- لا تخف يا بني...! أنت في أمان...

أتى به الشيخ البشوش المسمى «بويا علي» من وسط الأحراش محموماً منهكاً فاقداً للوعي، كادت الذئاب والكلاب البرية تنهش لحمه، فمرضته زوجته العجوز «العالية»، وكانا الزوجان يعيشان في كوخ بسيط من لبن محلي وسقف من جريد وسيقان الأشجار، ويطعمان ويشربان من قطيع الماعز ومن زراعة متواضعة للخضر، فاستغرب سالم من عدم تعرض قطاع الطرق لقطيعهما، فعلم من الشيخ أن هذا البيت رغم تواضعه آوى كثيراً منهم وهم «مطاريد» أو جرحى، وأن الشيخ نفسه كان قاطع طريق في شبابه، وأخبره أن بلدة العقرب تكاد تصير فارغة من أهلها لا يسكنها غير الغربان، فرمق دمعتان ساختنتان تعبران خذي العجوز «العالية»، وحين حاول معرفة سبب بكائها، قال «بويا علي» بأسى جارف وترح غامر وحزن جامح وهو يكفكف أيضاً دمعه: «كان لنا ابن وحيد، يعمل نادلاً في حانة التجار، مات في انفجار بقنبلة مؤخراً... الله يرحمه».

شعر سالم بالأرض تدور تحت قدميه، وتملكه الغثيان ثم القيء، شعر بالمرارة تعصر قلبه، وانكسرت روحه، وتشظى فؤاده، حتى عجز عن التنفس من انفطار قلبه، حبس الدمع فغلبه جموحاً وغزارة، فقد كان هو من أعطى أمر تفجير الطرد بالحانة، وهو من صنع القنبلة رفقة المجموعة من وسائل تقليدية، فبكى بكاء حاراً، ثم قال:

- «بويا عمر» أتعرف من أنا....؟ أنا سالم..

تضع العجوز يدها على فمه بلين ورقة قائلة بنبرة حزن ورحمة» نعرف من أنت.. لا نريد سماع التفاصيل.. ارتح يا بني..!»

وانخرط في هستيريا من البكاء والنحيب الحادين، حتى بح صوته وهو يصرخ ويلطم وجهه:

- أريدكما أن تعرفا أني...

يقاطعه الشيخ وعيناه تبرقان وميض رحمة سابحة وشفقة دافقة» كفى يا بني..! اصمت.. وارتح..! لا تشغل روحك وعقلك المتعب بأي شيء آخر..!»

- يا عمي..! القنبلة..

وضعت «مي العالية» أصابع يدها المرتعشة على فمه وهي تبتسم بصفاء وسكينة روحيين، وتجلى نور ساطع على وجهها المتجعد، تطمئن له الروح والجوارح، وتهدأ لنبرة صوتها الجبال مهما اهتزت، وقالت بصوت خفيض هادئ مريح ومازال بريق





عينيها يبث السكينة والرجاء: «لا...! لا تبك...! يا ولدي...! كل يعيش فقط قدره..! يا سالم ...! يا سالم... ! اسمعني جيداً وضعها علامة في جسدك بالكي، مات ابننا ورحل، فقط لا نريد موته أن يكون هدرا بلا معنى ولا نتيجة، حررونا يا ولدي...! فقد هرمنا، حررونا... !حررونا من الذل والهوان... نريد حياة كريمة... حررونا...!».

رفع عنه الحرج «بويا علي» وقال كأنه يهمس ويسر بسر عظيم، بوقار وهدوء وسكينة وشفتاه ترتعشان من كبر لا من وجل «ابني مات شهيداً، ولو كان يسقي الخمر، فقد كانت لا تفوته صلاة، والوطنيون الذين فجروا الحانة، كانت نيتهم طيبة، وقضيتهم عادلة، فلا تشعر بالخزي والعار والحزن...! إياك أن يكسرك الندم والحسرة...! إياك أن تلين للخيبات القاتلة للعزيمة...! أنا لا أفهم في السياسة يا سالم...! لكن دعني أقل لك...! تفادوا العزل والطفل والرضيع.. وكل من لم يبلغ الحلم والتمييز، تجنبوا المرأة والشيخ وكل ضعيف لا يقوى على حمل السلاح... تفادوا الأبرياء وإن كانوا من الأعداء مالم يحملوا في وجوهكم السلاح، ضرباتكم لا يجب أن تكون عمياء، ضرباتكم لا يجب أن يكون وقودها الضغينة والحقد، بل الأمل والحب...»

عاد سالم ينحط بحزن شديد، ينفطر له القلب، وكمد رهيب و«مي العالية» و«بويا علي» يصبرانه ويهدئانه حتى تعب وغفا في سلام روحي.

أمضى أسابيع حتى شفي عند الشيخ وزوجته، واسترجع عافيته وانتعشت صحته، ثم عزم على الرحيل، فحضر كهل خمسيني اسمه «بوطاس» من معارف «بويا علي» وهو محترف أريب في التهريب ونقل المخدرات من حشيش و«كيف» للتجار والمزارعين على الطرقات النائية، التي تندر الحركة فيها لوحشتها وعزلتها وبعدها عن التجمعات السكنية، حتى قيل إنها لا تطؤها أقدام لا الجن ولا الإنس، وكان ضخم الجثة، طويل القامة، واسع المنكبين، ذا نظرات مخيفة وقاسية، يغلب على تعابيره قسوة وشدة طبعتا شخصيته، وزاد في حدة عينيه شاربه الكث فبدا «كالمتغول» وكان أعلم اللصوص وقطاع الطرق بالدروب والمسالك التي يتفاداها ويتجنبها الناس خوفاً ورهبة في القلوب من سرد الخرافات الغريبة والأساطير المخيفة، ولا يعرفها غير مهربي الحشيش، وبعض قطاع الطرق الأشداء.

كلفه «بويا علي» بمهمة تأمين تنقل سالم ووصوله دون أن تطاله عيون الجواسيس إلى بلدة القراقشة، لكنه فطن لشيء فقال:

- يا بني...يا سالم...! لا يمكنك العودة إلى بلدتك، فالبوليس والعسكر حتماً هناك يتربصون بك، وقد تجدهم في قلب الدار، فما إن تدخل تراب «أولاد تايمة» حتى تنقل عيون الجواسيس أخبارك للقائد بوشعيب القرشي، طمعاً في الجائزة المالية، والناس جياع، والعام سنة رمضاء، والبطون الجائعة، لا تفكر إلا في الخبز، واعلمُ أن عمك هو الخليفة بدل أبيك رحمه الله، يعني لن يجيرك منهم وهو منهم، فكر جيداً...!





ابتسمت «مي العالية» ابتسامتها الربانية بعدما سلمت في صلاة المغرب، حتى أضاءت تلك الابتسامة الوجه المتجعد، وما حولها من عتمة، وازدادت بهاء من بريق السكينة في عينيها، وتضوعت منها رائحة المسك بلا عرف، فهمست:

- دعوه معنا...! دعوه هنا...! يؤنسنا ونؤنسه...

اعترض «بوطاس» على الفكرة، وقال محذراً وهو يمشط شعر أحد حصاني عربته:

- قريبا سيصلون إلى هنا... حتماً وأكيداً... ألا تسمعون هدير الحوامات التي تكنس الأماكن الوعرة والمنعزلة، ولهم وسائل متطورة للرؤية على بعد مئات الأمتار من السماء.

رد عليه بلطف «بويا علي»:

- سنخفيه عن الأعين....

ألح بوطاس بقوة وأصر على رأيه مردداً:

- لا يمكن يا عمي...! إن لهم كلاباً مدربة على اقتفاء أثر الهاربين باقتفاء الرائحة، يعتمدون على قطعة ثوب أو جورب للهارب، ما إن يشمها الكلب قطعة لباس حتى ينطلق في البحث، لا أعرف أكثر، المهم.. سهل أن يجدوا خرقة من ملابسه، ولا أظنه جمع كل ملابسه عند الهرب...

نظر إليهم سالم بقلق وقال:

- عندي حل...

رد عليه «بويا علي» بحماس «قل لنا ما هو يا ولدي...!»

- أحول الرحلة إلى أخوالي بقبائل حاحا، فهم حصن منيع، ولهم كبرياء رفيع، من لاذ بهم منع، ومن استجارهم صار في حماهم ولو يموتون من أجله...

قال «بوطاس» برباطة جأش:

- لا مانع عندي، لكن الطريقة وعر وصعب، فقط سأوصلك إلى أرض حاحا، وأنتم أنت الطريق إلى وجهتك بالضبط...!

- وليكن ...!نعم... ! توكلنا على الله...

قال الشيخ «بويا علي» وهو يبتسم:

- نحن في غرة الخريف ورحلتكما شديدة وطويلة وشاقة، لا تصلح لها الخيول، بل البغال أصلح، فهي أكثر صبراً وتحملاً للمشاق في الطرق الوعرة... سمعا، فكا الحصانين واربطا البغلين، خير لكما، فهما يتحملان المشاق والتعب ويصبران على الكد والكدح.

ودعا الشيخ والعجوز بحرارة، فركبا معاً عربة مكشوفة ببغلين قويين مستعدين للركض، وطفقا يقطعان الشعاب والوديان والمفازات لأيام وأيام، مسيرهما جله ليلاً، ليكون غطاء لهم ودثاراً، فلا تكشفهما عيون الجواسيس، ولا تسمح حسيسهما الآذان، ولا الطامعين في الجائزة، فلا تردهما الحواجز الأمنية، إذ



يستغلان الغسق للمرور منها، مستغلين خمول العسس والعسكر وكسلهم في هذه الساعة المتأخرة من الليل، كانا يريحان البهيمتين وجسديهما نهاراً، ويسافران ليلاً، متلحفين الظلمة الحالكة، ومنتهزين قلة الحركة، أو انقطاعها في بعض الأماكن المشهورة بالقصص الخرافية والأساطير المرتبطة بالجن والعفاريت، وحين وصلا أرض «قبيلة أداوكرض»، استقبلهم الأهل بحفاوة وكرم دون أن يعرفوا منهم، فصليا معهم في مسجدهم العريق، مسجد «بوامسا» وخيما في منطقة تسمى «الغزاوة» ليلة واحدة، فأغار على موقعهما قطاع الطرق، حتى إذا ما رأى رئيسهم «بوطاس»، فزع وجنح للسلم وهو يردد «هذا أنت يا «بوطاس»...! ما الذي أتى بك إلى ديار حاحا!...؟».

دعاهم بوطاس إلى خيمته وهو يرد ضاحكاً «تعالوا... الشاي موجود وساخن بالخيمة... » فرشفوا كؤوس الشاي، ودخنوا الكيف، ثم حكى لهم حكاية «سالم»، فانتفضوا واقفين، وهم يسلمون عليه ويقبلون يده مرددين: «أنت سالم... ولد الخليفة...! سالم الزموري من أولاد تايمة ...قائد منظمة العقرب السوداء.! سالم الذي أدخل الرعب في قلوب جنود الاحتلال... ببلدة العقرب... مرحباً بك... مرحباً بك...!» وسالم يرد بخجل محرجا «أي منظمة هذه التي اخترعها المحتل... أنا وطني فقط...».

في الصباح أدبر «بوطاس» عائداً بعدما ترك له ماء وطعاماً وخنجراً وعلبة عود ثقاب وحبلاً وسلكاً، وصاح ضاحكاً وهو يحث البغلين ويسوي شاربيه: «إن صرت ذا شأن، لا تنس إخوتك

من اللصوص والحشاشين والمهربين....! من يدري...؟ فربما صرت في الأجل القريب وزيرا». ثم لوح بسوطه عالياً وصاح بالبهيمتين اللتين ركضتا، مخلفتين وراءهما النقع وقد علا صدى قهقهاته الساخرة، لكن قبل أن يختفي عن الأنظار وسط الغبار المتطاير أرسل سالم الجواب صائحاً: «يريد وزير المستقبل معرفة اسمك الحقيقي... » فرد عليه «بوطاس» وهو يلوح بعصاه في الهواء «عباس بوطاس كبير الراس... سيدي الوزير... متعدد الاختصاصات..... هههههه» فقهقه واختفى بعيداً عن الأنظار بين الأحراج.

سار سالم ليلة أو أكثر مع قطاع الطريق، حتى وصلوا إلى غابة «العرعار» بنواحي منطقة تسمى «تمنار»، فأطلق رئيس العصابة صفيراً عالياً من ثلاثة مقاطع، فأجفلت الطيور، وحلقت بعيداً عن وكناتها، واختطت الأصوات، من نعيق ونقيق وعويل وصرير، وحفيف وهفيف، كأن لتواصلهم بالصفير شفرة لا يحلها غيرهم، وفجأة خرج من بين الدغل والأحراج، مجموعة رجال تظهر عليهم الشدة والقسوة، وصاح أحدهم:

- بيهي...! من معكم....؟

رد «بيهي» وهو الرئيس عليه:

- كنز....! يساوي مليون فرنك....

- مليون فرنك... خبل...



فارتفعت قهقهة بيهي وقال:

- يا حسين...! ألم تصدق؟ تعال لترى...!

تقدم حسين خطوات نحوهم، بينما صعد رفاقه الآخرون إلى أعالي الأشجار، وتأهبوا لكل طارئ وهم مدججون ببنادق ومسدسات، كان الحسين رئيسهم وهو شاب دون الثلاثين، ذو سمرة من لفح الشمس، بارز عظام الوجه، طويل القامة، نحيف القد، ذو أنف يكاد يكون معقوفاً، أسنانه متراصة بيضاء، وشفاه رقيقتان، ويرتدي جلباباً غير فضفاض، و ينتعل حذاء عسكرياً، ويتعمم عمامة بيضاء...

تفرس في الجميع، ثم توقف عند سالم، وحدق فيه جيداً ثم قال هازئاً بسخرية:

- أهذا هو الكنز الذي يساوي مليون فرنك...؟

رد عليه بيهي بثقة في النفس، رابط الجأش:

- أو أكثر....

- من يكون...؟

- سالم الزموري.

مندهشاً يدنو من سالم ويقول:

- سالم الذي جنن الفرنسيين ببلدة العقرب.... سالم..... قائد منظمة العقرب السوداء....حدثني عن سليمان وكلثوم وعمر... الأساطير...

قال وهو يبتسم :

- إن كان لابد من الحكي فمن ساحة رباط «المزاوكين»... البداية هي سيدي عبد الباقي....عندنا متسع للوقت للحكي... فتريث يا أخي...!»

فارتمى في حضنه وضمه، في عناق حار وهو يصيح: «اخرجوا يا رجال...! معنا بطل... وسيد من الرجال... وطني....! مؤسس منظمة العقرب الأسود التي أدخلت الرعب في أشرس جنرالات فرنسا...».

فخرج الرجال وكانوا أحد عشر رجلاً من مخابئهم، فتقدم نحوهم الحسين وقال «هذا .... سالم... الزموري الذي جنن بوليس وعسكر فرنسا ببلدة العقرب... هذا هو الأسطورة في حاحا...».

فتوافدوا عليه مهللين وفرحين، حتى كادوا يخنقونه... وهو يردد مبتسماً:

- لست إلا رجلاً مثلكم..

فيختلط الصياح عاليا، وهم يحتفون به في جلبة

- لا.... أنت ابن خليفة وتركت العز، واخترت الوطن... مرحباً بك في جيش التحرير....

مندهشاً يقول:

- وهل تشكل جيش التحرير... !؟





يقفز أحدهم من شجرة وهو يردد:

- نعم... منذ غشت... عقب نفي الاحتلال الفرنسي للسلطان... سنأخذك عند الرئيس الأخ إيدار...

- وأنتم... يا قطاع الطرق.. نعم... أنتم... متى تنظمون إلى القضية العادلة...؟

يرد بيهي عليه وهو يهز رأسه:

- لم نعد نسرق غير الفرنسيين... نحن معكم لكن بطريقتنا....

أمر بيهي مجموعته بالتحرك بسرعة، بحركة من يده، وأردف سالماً على فرسه، وحثها وهو يصيح ملوحاً بيده، فاختلط الصخب ووقع السنابك بنقيق الضفادع وصرير الجنادب، همس سالم في أذن بيهي: «هل من إمكانية لإرسال رسالة إلى القراقشة» ابتسم بيهي وهو يهتز على صهوة الفرس العادية، وقال: «أعلم أنك حاجة إلى طمأنتها... وقد اشتقت إليها...» استغرب سالم، وقال: «وكيف تعرف»، منذ شهر قامت بالاتصال بشاب المقاومة، خصوصاً بعدما هرب القائد القرشي إلى فرنسا، وتخلى أبوها عن منصبه السلطوي... وتوصلت كل المجموعات بمشور نداء للبحث عليك.... لن ترسل لها رسالة، بل ستراها عما قريب.. بحرية قائدة القطاع النسوي».

ينشغل سالم بحديث النفس وهو يهتز على الفرس» كنت أعتقد أنك تمزحين يا بحرية حينما قلت إنك ستصيرين وطنية،

وها أنت تفين بوعدك.. إيه...! الزمن يدور وكل شيء يتغير حولنا...»

ساد صمت رهيب بعد ذلك في عقله بعدما انقطع عن العالم الخارجي، كأنه في حلم وصورة «بحرية» تهدهد الخيال والإحساس، فشعر بفرح غريب مشوب بخوف وقلق عابرين، سالت دمعتان ساخنتان على خديه، لا هما دمعتا فرح ولا هما دمعتا ترح، ولا يعرف وهو يهتز مع الرفيق الجديد لمَ استحضر دومنيك وماسين ودوروتا ونتاليا وكامي وسارتر ووجه أستاذه السلافي، وحانات باريس الساهرة، ونقاشات المثقفين والمفكرين والفنانين الفرنسيين في نواديهم المخملية، في هذه اللحظة بالضبط بدت له باريس مختلفة، باردة بلا روح، وبدت الثورة الفرنسية نرجسية أنانية بلا جوهر، وتهاوت صروح السوربون أمام عينيه، وهو يسترجع جبروت الضابط رونار، وتهاوي الجثث على جدار الإعدام ببلدة العقرب.

عرج بذاكرته التي انتعشت واستعرت على ساحة «سان جرمان دوبري»، فشعر برغبة غريبة في لمس تمثال «**دانتون**»، دون أن يعرف السبب، ولأول مرة أعاد رسم صورة التمثال في عقله بمشقة، قطعة قطعة، فانتبه إلى عينيه الغائرتين الحزينتين الحائرتين، كأنهما تبثان رسالة ظلت عالقة بين شفتيه، كأنه يسمع دانتون يصيح «حذار أن تتقاتلوا باسم الثورة، فكل قتال بين الثورة هو قتال حول السلطة» رغم أن الجو جو الحماسة والتحفيز، وتملكه خوف عابر طاف بقلبه وعقله، من أن تكرر هذه الثورة ضد





الاحتلال الفرنسي المآسي والخيبات نفسها ككل ثورة، فكل ثورة نهمة قد تأكل أبناءها، التفت إليه «بيهي»، فالتقط سالم معالم وجهه الأمازيغي ، فأحس أنه يسقط عليه صورة «دانتون»... وضج في خلده صدى طبل يوقع بشدة، واستحضر العقل الحائر صورة حامل اللواء، وغدا كأنه يسمعه ينادي «إلى الحرية... إلى الحرية.... إلى السلاح.... لنخرج المحتل من البلاد»، وتسللت مشاهد قاتمة إلى الخاطر المضطرب، فانتصبت أمامه المقصلة على غرة، وانتفض على صوتها وهي تهوي ساقطة بقوة ورعب لنزع الحياة من أرواح كانت هي دفء الثورة... أحس بيهي حين انتفض جسده، فقال له وهو مبتسما» لكل شيء زمنه، والساعة نحن في حاجة للراحة» فبادله الابتسامة بهز رأسه معبرا عن رضاه مردد:» لكل شيء زمنه...صدقت يا رفيق السلاح...!»